

عيسى عليه السلام

عناصر الموضوع

المجلد الخامس والعشرون

التعريف بعيسى عليه السلام

أولًا: اسمه ونسبه:

ذكر الله تعالى اسمه ونسبه في كتابه العزيز، فسماه المسيح عيسى، ونسبه إلى أمه مريم، ولم يزد على ذلك: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٥].

فهو إذًا: المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله.

وعيسى: اسم علم، وهو اسم أعجمي غير منصرف، وهو عبراني أو سرياني[(١)].

ثانيًا: لقبه:

تسميته بالمسيح: التسمية بـ (المسيح) في حق عيسى عليه السلام على سبيل المدح، قالوا: وهو لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق.

أما سبب تسميته بالمسيح:

قيل: أصله مشيحا بالعبرانية، ومعناه: المبارك.

وقيل: سمي عيسى عليه السلام مسيحًا؛ لأنه ما كان يمسح بيده ذا عاهة إلا برىء من مرضه.

وقيل: سمي مسيحًا؛ لأنه كان يمسح الأرض، أي: يقطعها.

وقيل: كان مسيحًا؛ لأنه كان يمسح رأس اليتامى لله تعالى.

وقيل: لأنه مسح من الأوزار والآثام.

وقيل: سمي مسيحًا؛ لأنه لم يكن في قدمه خمص[(٢)]، فكان ممسوح القدمين.

وقيل: سمي مسيحًا؛ لأنه كان ممسوحًا بدهن طاهر مبارك يمسح به الأنبياء ولا يمسح به غيرهم، ثم قالوا وهذا الدهن يجوز أن يكون الله تعالى جعله علامة حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبيًا.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٣٥٣، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٤٠، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ١٥٢، تاج العروس ١٦/ ٢٩٧، الكليات، الكفوي ١/ ٦٦٢.

(٢) الأخمص باطن القدم وما رق من أسفلها وتجافى عن الأرض وقيل الأخمص خصر القدم، والأخمص ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض، فالأخمص من القدم الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطء.
انظر: النهاية، ابن الأثير ٢/ ٨٠، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٠.

وقيل: سمي مسيحًا؛ لأنه مسحه جبريل عليه السلام بجناحه وقت ولادته؛ ليكون ذلك صونًا له عن مس الشيطان[1].

ولما كانت العادة أن ينسب الأولاد إلى آبائهم، نسب عيسى عليه السلام إلى أمه ليكون ذلك دليلًا على براءتها، وأنه لا أب له في الحقيقة.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٩٠، تفسير السمعاني ١/ ٣١٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٤٤، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٤٨٠.

صفات عيسى عليه السلام

عيسى عليه السلام نبي الله ورسوله، فهو إذًا متصف بكل الصفات التي تؤهله لهذه المكانة العالية والمقام الرفيع.

أولًا: صفاته الخُلُقية:

- أنه معاذٌ من الشيطان الرجيم: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ آل عمران: ٣٦، وقد مر بنا قوله صلى الله عليه وسلم: (ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان، غير مريم وابنها) ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦][1].
- الوجاهة: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥]. والوجيه: ذو الوجاهة، وهي: القوة والمنعة، ووجاهته في الدنيا النبوة، وفي الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة[2].
- القرب من الله تعالى: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].
- أنه من الصالحين: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٦].
- كلمة الله وروح منه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. قال الشيخ المراغي رحمه الله: «وقد خص المسيح لإطلاق الكلمة عليه وإن كان كل شيء قد خلق بكلمة التكوين؛ لأنه لما فقد في تكوينه وعلوق أمه به ما جعله الله سببًا للعلوق في العادة، وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البويضات التي يتكون منها الجنين أضيف إلى الله، وأطلقت الكلمة على هذا المكون إيذانا بذلك، بخلاف الأشياء الأخرى، فإنها تنسب في العرف إلى الأسباب العادية»[3].
- حكيمٌ: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب: (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)، رقم ٤٥٤٦، ٦/ ٣٤.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٩١.
(٣) تفسير المراغي ٣/ ١٥٠.



﴿وَأَطِيعُونِ ۝٦٣﴾ [الزخرف: ٦٣].

* عنده علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]. ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣﴾ [الزخرف: ٦٣].

* موحد مخلص لله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝١١٦﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝١٧٢﴾ [النساء: ١٧٢]. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾ [المائدة: ٧٢].

* مجاب الدعوة: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝١١٤ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝١١٥﴾ [المائدة: ١١٤-١١٥].

* اللين والرحمة: يدل عليه قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[المائدة:١١٨].

* مبارك: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ [مريم: ٣١].

* بار بوالدته: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ [مريم: ٣٢].

ثانيًا: صفاته الخَلْقية:

كان عيسى عليه السلام مربوع القامة، ليس بالطويل ولا بالقصير(١)، أحمر اللون، آدم، جعد، سبط الرأس.

فعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ورأيت عيسى رجلًا مربوعًا، مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس)(٢).

(١) انظر: أشراط الساعة ص١٥١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، ٤/ ١١٦، رقم ٣٢٣٩.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيت عيسى وموسى وإبراهيم، فأما عيسى فأحمر، جعد، عريض الصدر)[1].

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وأراني الليلة عند الكعبة في المنام، فإذا رجل آدم، كأحسن ما يرى من أدم الرجال، تضرب لمته بين منكبيه، رجل الشعر، يقطر رأسه ماء، واضعًا يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا ؟ فقالوا: هذا المسيح ابن مريم)[2].

أما قوله: (أحمر)، و(آدم) على الروايتين: الأحمر عند العرب: الشديد البياض مع الحمرة، والآدم: الأسمر، ويمكن الجمع بين الوصفين بأنه أحمر لونه بسبب كالتعب وهو في الأصل أسمر[3].

وقوله: (جعد)، (سبط الرأس): فصفة الجعودة هنا في الجسم لا في الشعر؛ لأنه وصف الشعر بالسبط، والسبط من الشعر المنبسط المسترسل، وهو ضد الجعد[4]، وأما الجعد في الجسم فهو المجتمع الشديد[5].

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين عروة بن مسعود رضي الله عنه، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(عرض علي الأنبياء، فإذا موسى ضرب من الرجال، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت به شبهًا عروة بن مسعود)**[6].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٦، رقم ٣٤٣٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٦، رقم ٣٤٤٠.
(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٨٦.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣٣٤.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ١/ ٢٧٥، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٢٢.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، ١/ ١٥١، رقم ١٦٥.

ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم (٢٥) مرة، في (١١) سورة.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
آل عمران	٤٥-٦٢
النساء	١٥٧-١٥٩، ١٧١-١٧٣
المائدة	٤٦، ١١٠-١١٨
مريم	٢٢-٣٤
الزخرف	٦٣-٦٥
الصف	٦، ١٤

التعريف بمريم عليها السلام

أولًا: اسمها ونسبها:

ورد في القرآن انتساب مريم والدة عيسى إلى عمران عليهم السلام: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ [التحريم: ١٢].

أبوها: هو عمران الرجل العابد الطاهر وهو من رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم[(١)]، يصل نسبه إلى النبي الكريم داود عليه السلام.

وأمها: هي حنة العابدة الطاهرة التي كرمها الله فأجاب دعوتها ورزقها بمريم.

وزوج أختها أو زوج خالتها «أشياع» هو زكريا النبي الكريم عليهم السلام جميعًا.

فلا ريب حينئذ أن يكون هذا البيت المبارك بيت آل عمران من البيوت القليلة المباركة التي حظيت بتشريف الله تعالى لها بقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤].

ثانيًا: الحمل بمريم عليها السلام:

أشار الله تعالى لقصة حمل أم مريم بها ووضعها في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٦].

ثالثًا: الوضع والوفاء بالنذر:

لما حملت أم مريم عليهما السلام حررت ما في بطنها، وكانت لم تعلم بعد ما هو ذكر أم أنثى، والمحرر عندهم لا يعمل للدنيا ولا يتزوج ويتفرغ لعمل الآخرة ويعبد الله، فيجعل للمعبد يقوم بخدمته ولا يخرج منه[(٢)]، ولم يكن يحرر إلا الغلمان.

ثم مات عمران وحنة حامل بمريم، فلما وضعت إذ هي أنثى، فقالت عند ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّى

(١) انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٢٨.

(٢) وقيل: لا يبرح منه حتى يبلغ الحلم، فإذا بلغ خير، فإن أحب أن يقيم فيه أقام، وإن أحب أن يذهب ذهب حيث شاء.
انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٢٨.



﴿وَضَعَتْهَا أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦].

و(مريم) معناه: العابدة[(١)].

وقد استجاب الله دعاء أم مريم هذا كما أجابها حين اشتهت الحمل، فأعاذها مريم وابنها من الشيطان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان، غير مريم وابنها) ثم يقول أبو هريرة: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦][(٢)].

رابعًا: مكانة مريم عليها السلام وفضلها:

لمريم عليها السلام مكانة كبيرة تمتاز بها عن سائر نساء العالمين، فقد وضع الله مريم بين أهل الصلاح والنقاء، فترعرعت ونشأت في جو إيماني طاهر عفيف، وقد بين الله تعالى فضلها ومكانتها في مواطن من كتابه، كما جاء ذلك على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن دلائله:

- قبول الله تعالى لها، وإنباتها نباتًا حسنًا. قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧].
- إعاذتها وذريتها من الشيطان الرجيم. قال تعالى: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦].
- كفالة نبي الله زكريا عليه السلام لها بعد أن تنازع الأحبار العباد في حق رعايتها والقيام بشؤونها. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤]، فقد وضعتها أمها عند المسجد، فتنازعوا فيها، كل يريد أن يكفلها، فهي بنت (عمران) إمام من كبار أئمتهم، فقال زكريا عليه السلام: أنا أحق بها، وأراد أن يؤثرها لنفسه دونهم من أجل أن زوجته أخت أمها أو خالتها على القولين، فشاحوه في ذلك، وطلبوا أن يقترع معهم، فوقع الاقتراع على زكريا عليه

(١) انظر: تاريخ ابن الوردي ١/ ٣٠، المختصر في أخبار البشر، عماد الدين أبو الفداء ١/ ١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب: (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)، رقم ٤٥٤٦، ٦/ ٣٤.
وانظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٢٨، البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ٥٧.

السلام، فأخذها وكفلها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]. وضمها إلى زوجه أم يحيى، واسترضع لها حتى كبرت[١].

- عناية الله بها: فقد كان زكريا يدخل على مريم عليهما السلام فيجد عندها رزقًا لم يأتها به، فيسألها من أين لك هذا؟! فتقول: هو من عند الله، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧]. وقد عد عدد من العلماء ذلك من باب الكرامات وخوارق العادات[٢].
- اصطفاؤها وتطهيرها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢].
- إعانتها على طاعة الله، وإحصانها، وتشريفها بذلك: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٣] وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١] وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].
- حملها بعيسى عليه السلام وهو النبي الكريم المتصف بمعالي الصفات. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].
- انتساب ولدها إليها: فمريم هي الأنثى الوحيدة في الوجود كله التي اختصها الله من بين النساء، فنسب إليها ولدها وذلك في مواطن كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].
- جعلها وابنها عليهما السلام آية من آيات الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١]. ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

---

(١) وذهب بعض العلماء إلى كونها لم ترضع ثديا قط.
انظر: تفسير السمعاني ١/ ٣١٤، الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٨٦، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٤٦١.

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٨٠٥، الكشاف، الزمخشري ١/ ٣٦٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٢٦.

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[1].
- وعن علي رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (خير نسائها مريم ابنة عمران وخير نسائها خديجة)[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه)، رقم ٣٤٣٣، ٤/ ١٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم ٢٤٣١، ١٨٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك)، ٤/ ١٦٤، رقم ٣٤٣٢.

حمل مريم بعيسى عليهما السلام

كان حمل مريم عليها السلام معجزة لم يكتب لها التكرار، فقد أراد الله تعالى لمريم البتول الطاهرة أن تحمل بابنها عيسى عليه السلام، هذا الحمل الذي هو معجزة كبرى وآية عظمى على قدرته جل جلاله، وهو بيان لمكانة هذه الطاهرة القانتة.

بين الله تعالى هذه القصة الغريبة، والمعجزة الباهرة في كتابه تعالى فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧].

وقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ١٦-٢٢].

إذًا فمريم قد حملت، وكان حملها بغير زواج وهي التقية النقية، بل كان من غير أن يمسها بشر أيًا كان، فقد أرسل الله تعالى إليها ملائكة تبشرها بهذه البشارة: الحمل بولد هو كلمة الله تعالى، واسمه: عيسى ابن مريم، وهذا الولد له الكثير من الميزات والخصائص التي انفرد بها عمن سواه، فكانت ردة فعلها وهي الطاهرة النقية البتول العذراء أن تساءلت كيف لها أن تحمل ولم يمسسها بشر، فأخبرت بأن هذه هي إرادة الله تعالى، وأن هذا الأمر هين على الله تعالى، وهو أمر قد قضاه وتكفل به، فما كان للطائعة القانتة إلا الاستسلام.

والملك المرسل إلى مريم هو جبريل -عند أكثر المفسرين- وقد تمثل لها على هيئة بشر سوي، فخافت مريم واستعاذت بالله منه ظانة به ظن سوء، لكنه أخبرها بأنه رسول من الله، كلف ببشارتها بأن الله سيهب لها غلامًا ذكر اسمه وصفته، فوصفه بأجمل الصفات وأثنى عليه عظيم الثناء[1].

أما عن كيفية الحمل فقد نفخ فيها نفخة فحملت بإذن الله، قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٨٧-٣٩١.

[الأنبياء: ٩١].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

قال الرازي رحمه الله: ذكر الله تعالى أمر النفخ في آيات فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

أي: في عيسى عليه السلام، كما قال لآدم عليه السلام: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩].

وقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] لأن عيسى عليه السلام كان في بطنها.

واختلفوا في النافخ فقال بعضهم: كان النفخ من الله تعالى لقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وظاهره يفيد أن النافخ هو الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

ومقتضى التشبيه حصول المشابهة إلا فيما أخرجه الدليل، وفي حق آدم النافخ هو الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] فكذا هاهنا.

وقال آخرون: النافخ هو جبريل عليه السلام؛ لأن الظاهر من قول جبريل عليه السلام: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: ١٩] أنه أمر أن يكون من قبله حتى يحصل الحمل لمريم عليها السلام، فلا بد من إحالة النفخ إليه[(١)].

واختلفوا في كيفية النفخ، هل نفخ الله في درعها؟ هل نفث الله في جيبها؟

وقد كفانا الله مؤونة البحث بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢١].

قال الشيخ محمد عبده رحمه الله: «أعلم أن الكافرين بآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب جمودًا على العادات، وذهولًا عن كيفية ابتداء خلق جميع المخلوقات، ولو كان لهم دليل عقلي على استحالة ذلك لكانوا معذورين، ولكن لا دليل لهم إلا أن هذا غير معتاد، وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتادًا من قبل، فمنه ما يعرفون به سببًا ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع، ومنه ما لا يعرفون له سببًا ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة.

ونحن نرى علماء الغرب وفلاسفته متفقين على إمكان التولد الذاتي، أي: تولد الحيوان من غير حيوان، أو من الجماد، وهم يبحثون ويحاولون أن يصلوا إلى ذلك

---

(١) مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٢٤.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٦٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧٣.

بتجاربهم، وإذا كان تولد الحيوان من الجماد جائزًا فتولد الحيوان من حيوان واحد أولى بالجواز وأقرب إلى الحصول.

نعم إنه خلاف الأصل، وأن كونه جائزا لا يقتضي وقوعه بالفعل، ونحن نستدل على وقوعه بالفعل بخبر الوحي الذي قام الدليل على صدقه.

إذا تمهد هذا فنقول: إن الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات، وقد أرسل روحًا من عنده إلى مريم، فتمثل لها بشرًا، ونفخ فيها، فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها، فحملت بعيسى عليه السلام»[1].

وصدق الشيخ رحمه الله، فالاستنساخ المعروف اليوم دليل إلى ما ذهب إليه من إمكان حصول الشيء المخالف للعادة، والبعيد عن التصور.

قال الله جل جلاله: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٣ - ٢٦].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

لما انتهت مدة الحمل أحست مريم عليها السلام ألم الوضع، فاحتضنت جذع النخلة لشدة ما تجد من الألم، وتمنت الموت حينئذ لما توقعته من أذى قومها، (وأنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم -فيما يظنون- عاهرة زانية)[2]، فجاءها صوت من تحتها يطمئنها، ويطلب منها ألا تحزن، وأمرت بهز جذع النخلة والأكل مما فيها من الرطب، والشرب من جدول الماء، وعلمت طريقة التصرف إن رآها بشر أو تعرض لها أحد، فقد أمرت بالصوم عن الكلام.

والذي نادى مريم من تحتها: قيل: هو جبريل عليه السلام. وقيل: بل عيسى عليه السلام أنطقه لها حين وضعته تطييبًا لقلبها، وإزالة للوحشة عنها؛ حتى تشاهد في أول الأمر ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد[3]، وأيًا كان فالقصد منه طمأنتها وإيناسها.

ومكان الربوة مكان ولادة عيسى عليه السلام قيل: الغوطة بدمشق. وهذا أشهر

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ٢٥٤.

(٢) دعوة عيسى في الكتاب والسنة ص٧.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٤، مفاتيح الغيب ٢١/ ١٧٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١١٨.

الأقوال؛ لأن صفة الغوطة أنها ذات قرار ومعين على الكمال، وقيل: هي الرملة من فلسطين. وقيل: بأرض مصر. وقيل: الربوة بيت المقدس. ويترجح أن الربوة بيت لحم وهي قرية قريبة من بيت المقدس؛ لأن ولادة عيسى هنالك كانت، وحينئذ كان الإيواء[1].

أما الصوم: فالمقصود به الصمت، صيانةً لها عن الكلام مع المتهمين لها؛ ولأن عيسى عليه السلام تكلم عنها[2].

وأما حكمة خلق عيسى عليه السلام بلا أب فقد قال الشنقيطي رحمه الله: «من حكم خلقه عيسى من امرأة بغير زوج؛ ليجعل ذلك آية للناس، أي: علامة دالة على كمال قدرته، وأنه تعالى يخلق ما يشاء كيف يشاء، إن شاء خلقه من أنثى بدون ذكر كما فعل بعيسى، وإن شاء خلقه من ذكر بدون أنثى كما فعل بحواء، وإن شاء خلقه بدون الذكر والأنثى معًا كما فعل بآدم، وإن شاء خلقه من ذكر وأنثى كما فعل بسائر بني آدم، فسبحان الله العظيم القادر على كل شيء»[3].

وقصة الحمل بعيسى عليه السلام وقصة ولادته دليل على بشريته عليه السلام.

مواجهتها لقومها: بعد ذلك كله جاءت مواجهتها لقومها التي أخبر الله سبحانه وتعالى عنها بقوله: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٧ - ٢٨].

جاءت مريم إلى قومها وهي تعلم براءة نفسها ونزاهتها، وهي واثقة من تبرئة الله سبحانه وتعالى لها، قال لها قومها تلك المقولة، وعجبوا من ذلك وهي من أهل بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والزهد والعبادة، فلم تتول هي الإجابة لنفي التهمة عنها، ولكنها أشارت إلى وليدها، وهي تعلم أنه ليس من أهل الكلام حتى يتولى الرد عنها ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: ٢٩].

ولكن من إيمانها بربها وثقتها به فعلت ذلك، فأنطق الله صاحب المهد ببراءتها ونزاهتها، فنطق عيسى عليه السلام بعد هذه الإشارة: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

ومن الملاحظ أن عيسى عليه السلام لم يرد مباشرة على التهمة الموجهة لأمه، بل إن مضمون كلامه فيه ردٌّ قويٌّ عليهم بما

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٤٥، المختصر في تاريخ البشر، عماد الدين أبو الفداء ١/ ١٩.

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٤،

(٣) أضواء البيان ٣/ ٣٨٩.

زعموا، فإن الله سبحانه وتعالى لا يعطي الكتاب والنبوة لولد من زنى، إضافة إلى ما وهبه الله من الأوصاف الجميلة التي توحي ببركته ونزاهة أمه وطهارتها[1].

حوارات عيسى عليه السلام

أولًا: حوار عيسى عليه السلام مع ربه عز وجل:

عيسى عليه السلام نبي الله تعالى ورسوله، فهو واحد من الأنبياء الذين أرسلهم الله لهداية البشر، ورسول تعتبر تعاليمه ورسالته تكملة وامتدادًا لتعاليم الرسل الذين جاؤوا من قبله، وتهيئة للتعاليم التي سيأتي بها النبي صلى الله عليه وسلم[2].

ودعوة كل الرسل هي الدعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى وحده، قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوةٌ لعلاتٍ أمهاتهم شتى ودينهم

(١) انظر: دعوة عيسى عليه السلام في الكتاب والسنة ص٨- ٩.

(٢) انظر: عيسى المسيح والتوحيد ص٢٢١.

واحدٌ)[(١)].

وعن قتادة رحمه الله: أرسلت الرسل بالإخلاص والتوحيد، لا يقبل منهم عمل حتى يقولوه ويقروا به، والشرائع مختلفة، في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي القرآن شريعة، حلال وحرام، وهذا كله في الإخلاص لله والتوحيد له[(٢)].

فالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام هم أصحاب الدعوة إلى التوحيد، وأهم أكثر البشر التزامًا بهذه الدعوة وتحقيقًا لها، ومنهم عيسى ابن مريم عليهما السلام الذي وصفه ربه عز وجل بأنه من الصالحين: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٦].

ومن اتصف بالصلاح كان قدوة حسنة لمتبعيه.

وقد ظهر إجلاله عليه السلام لربه تعالى، وإخلاصه له، وعبوديته، فها هو يدعو قومه إلى التوحيد، ويبين لهم عاقبة الشرك: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٤].

وقد حكى الله تعالى حوارًا يكون بينه عز وجل وبين عيسى عليه السلام، يقر فيه عيسى عليه السلام بعبوديته، وافتقاره إلى الله تعالى، وأنه اجتهد وأخلص في دعوة قومه إلى التوحيد، وإفراد العبادة لله سبحانه، رغم ما حصل من انحراف بعضهم، وتأليههم لعيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١١٦- ١٢٠].

قال جمهور المفسرين: هذا القول يكون

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم)، ٤/ ١٦٧، رقم ٣٤٤٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٥.

من الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق؛ لأن عبادة النصارى لعيسى عليه السلام حدثت بعد رفعه، والمراد به توبيخ النصارى، وتبرئة عيسى عليه السلام مما نسبوه إليه، فيقول الله هذا الكلام لعيسى عليه السلام، فيتبرأ عيسى عليه السلام ويقول: سبحانك عن هذا الكلام القبيح، وعما لا يليق بك.

وقد تقدم في هذه السورة ما يثبت براءة عيسى عليه السلام من مثل هذه المقالة، وذلك قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢](1).

ثانيًا: حوار عيسى عليه السلام مع بني إسرائيل:

بدأ عيسى عليه السلام حواره مع قومه وهو في المهد، فقد رد عن أمه بقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٢٩ - ٣٣].

وكان عيسى عليه السلام قد بعث لدعوة بني إسرائيل خاصة.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فدعاهم عليه السلام إلى التوحيد، وإلى إخلاص العبادة لله تعالى وحده: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥١].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اعْبُدُوا۟ اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ٣٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٤].

وكان عيسى عليه السلام قد أرسل مقررًا لشريعة موسى عليه السلام في التوراة، مع ما جاء به في الإنجيل، قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا۟ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠].

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٣٢، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٤/ ٤١٦، التحرير والتنوير ٧/ ١١٢.

قال ابن كثير رحمه الله: «فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئًا، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ، وكشف لهم عن الغطاء في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٣] والله أعلم»[1].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

كما تضمنت دعوة عيسى عليه السلام البشارة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

واتخذ عيسى عليه السلام من قومه أنصارًا، قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

فطلب النصرة ليحتمي بها من قومه، ويظهر الدعوة. وهذه سنة الله في أنبيائه وأوليائه، وقد قال لوط عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ٨٠].

أي: عشيرة وأصحاب ينصرونني[2].

وكان من أساليبه عليه السلام أن دعاهم بالحكمة، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨].

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وبالموعظة: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: ١١٢].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «وأما قوله: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنه يعني: قال عيسى للحواريين القائلين له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾: راقبوا الله أيها القوم، وخافوا

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٣٢، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٤/ ٤١٦، التحرير والتنوير ٧/ ١١٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٦.

أن ينزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا، فإن الله لا يعجزه شيء أراده، وفي شككم في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء كفر به، فاتقوا الله أن ينزل بكم نقمته ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[1].

واستعمل معهم الترغيب والترهيب: قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

فكان من قوم عيسى عليه السلام فئة معتدلة، آمنت به واتبعت دعوته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

ومنهم فئة مفرطة كفرت ولم تؤمن: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤].

وتجاوزوا ذلك إلى التآمر عليه -عليه السلام- ومحاولة قتله، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

وثالثة أفرطت في حقه عليه السلام، وخالفت دعوته، فقالوا مرة: بأنه هو الله، وقالت أخرى: بأنه ابن الله، وثالثة: بأنه ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وقد رد الله تعالى في كتابه كل هذه الادعاءات؛ سعيًا إلى بيان الحقيقة وتصحيحًا للعقيدة، فاستنكر كون المسيح إلهًا، وشنع على من قال بأنه ابن الله، كما رفض عقيدة التثليث[2].

وأخبر سبحانه أن غلو النصارى في المسيح، واعتقادهم أنه إله أو ابن لله كفر بالله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧].

(١) جامع البيان ٧/ ١٣١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٩٧.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣][1][2].

معجزات عيسى عليه السلام

عيسى عليه السلام نبي الله ورسوله:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقد أيد الله أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات، والآيات الظاهرات، الدالة على صدقهم فيما جاؤوا به من عند الله عز وجل.

والمعجزة: فعل يظهر على يدي مدعي النبوة، بخلاف العادة، في زمان التكليف، موافقًا لدعواه، وهو يدعو الخلق إلى معارضته، ويتحداهم أن يأتوا بمثله فيعجزوا عنه؛ فيبين به صدق ما يظهر على يده[3].

---

(١) جامع البيان ٧/ ١٣١.

(٢) والحق الذي جاء في القرآن عن حقيقة المسيح عليه السلام أنه مخلوق كبقية البشر، هو الذي جاء في الإنجيل، فقد جاء فيه: أن المسيح ولد بعد أن لم يكن شيئًا انظر: لوقا ٢: ٤-٧، ومتى ٢: ١-٦، وختن بعد أن كان أغلف انظر: لوقا ٢: ٢١، وكان يصلي ويجتهد في عبادة الله انظر: لوقا ٩: ١٨، ٢٨، ٢٩، ومتى ١٤: ٢٢، وشب واكتهل بعد أن كان صبيًا انظر: لوقا ٢: ٤٢، ٣: ٢٣، وجاع فأكل انظر: متى ٤: ٢، ٢٦: ١٧-٢٥، ومرقس ١١: ١٢، ١٤: ١، ١٤: ١٢-٢٦، لوقا ١٤: ١، يوحنا ١٣: ١-٤، وعطش ثم شرب انظر: يوحنا ٤: ٧-١٠، ومشى ثم تعب فجلس انظر: متى ٥: ١، ١٣: ١-٢، يوحنا ٤: ٧، وركب الجحش في البر والسفينة في البحر انظر: متى ٥: ١، ١٣: ١-٢، يوحنا ٤: ٧، وبصق على الأرض انظر: مرقس ٧: ٣٣، ٨: ٢٣، يوحنا ٩: ٦، وكان يحزن فيبكي انظر: مرقس ١٤: ٣٣-٣٤، لوقا ١٩: ٤١، وغير ذلك من الصفات التي تدل على أنه مخلوق مثل بقية البشر، لا يختلف عنهم، إلا أن الله اصطفاه بالرسالة كغيره من الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين انظر: المسيح عيسى ابن مريم مصدق لما بين يديه من التوراة/ ١١- ١٤.

(٣) التبصير في الدين، الإسفرائيني ص ١٦٩.

قال العلماء: إن الله تعالى جعل معجزات الأنبياء من جنس أبرع وأشهر ما يكون في زمانهم؛ ليكون أبلغ في التأثير على أقوامهم، وإظهار نبوتهم، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر؛ جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم، ولـما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب؛ جعل معجزاته من جنس تلك الطريقة، فجاء عليه السلام بغرائب لا تعرف في أصول الطب، وكذلك لـما كان الغالب في أيام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الفصاحة والبلاغة؛ جعل معجزته ما كان لائقًا بذلك الزمان، وهو فصاحة القرآن(١).

ومن معجزات عيسى عليه السلام:

١. خلق عيسى عليه السلام بغير أب.

وقد مرت بنا قصة حمل مريم بابنها عيسى عليه السلام.

كلام عيسى عليه السلام في المهد.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٢٧-٣٣].

إذًا فقد أنطق الله تعالى عيسى عليه السلام في مهده، دلالةً على براءة أمه مما قذفها به المفترون عليها، وحجة له على نبوته عليه السلام . والمهد: الحجر حجر أمه، أو موضع اضطجاع الصبي وقت تربيته(٢).

٢. أنه عليه السلام ينفخ في الطين فيكون روحًا بإذن الله.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ

(١) بل إن التأكيد على دعوة التوحيد ثابتة في كتبهم، ففي إنجيل يوحنا: «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» يوحنا ١٧: ٣.ففي هذا النص التصريح بأن الله هو الإله الحق الذي لا إله غيره، بأن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله، فهو ليس إلهًا، ولا ابن إله، ولا ثالث ثلاثة كما تزعم النصارى.

(٢) انظر: عيسى المسيح والتوحيد، محمد عطا الرحيم ص٢٢١- ٢٣٠.

﴿ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].
﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠].

فمن معجزات عيسى عليه السلام أنه يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه، فيكون طيرًا حقيقيا ذا حياة، فيطير عيانًا بإذن الله عز وجل.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه دليلٌ على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه، أجراه على يد عيسى عليه السلام، فكون عيسى عليه السلام خالقًا بيده، ونافخًا بفيه إنما هو ليبين تلبسه بالمعجزة، وأنها جاءت من قبله، وأما الإيجاد من العدم، وخلق الحياة في ذلك الطين فمن الله تعالى وحده لا شريك له[1].

(١) والحق الذي جاء في القرآن عن حقيقة المسيح عليه السلام أنه مخلوق كبقية البشر، هو الذي جاء في الإنجيل، فقد جاء فيه: أن المسيح ولد بعد أن لم يكن شيئًا انظر: لوقا ٢: ٤-٧، ومتى ٢: ١-٦، وختن بعد أن كان أغلف انظر: لوقا ٢: ٢١، وكان يصلي ويجتهد في عبادة الله انظر: لوقا ٩: ١٨، ٢٨، ٢٩، ومتى ١٤: ٢٢، وشب واكتهل بعد أن كان صبيًا انظر: لوقا ٢: ٤٢، ٣: ٢٣، وجاع فأكل انظر: متى ٤: ٢، ٢٦: ١٧-٢٥، ومرقس ١١: ١٢، ١٤: ١، ١٤: ١٢-٢٦، لوقا ١٤: ١، يوحنا ١٣: ١-٤، وعطش ثم شرب انظر: يوحنا ٤: ٧-١٠، ومشى ثم تعب فجلس انظر: متى ٥: ١، ١٣: ١-٢، يوحنا ٤: ٧، وركب الجحش في البر والسفينة في البحر انظر: متى ٥: ١، ١٣: ١-٢، يوحنا ٤: ٧، وبصق على الأرض انظر: مرقس ٧: ٣٣، ٨: ٢٣، يوحنا ٩: ٦، وكان يحزن فيبكي انظر: مرقس ١٤: ٣٣-٣٤، لوقا ١٩: ٤١، وغير ذلك من الصفات التي تدل على أنه مخلوق مثل بقية البشر، لا يختلف عنهم، إلا أن الله اصطفاه بالرسالة كغيره من الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين انظر: المسيح عيسى ابن مريم مصدق لما بين يديه من التوراة/ ١١-١٤.

٣. إبراء الأكمه والأبرص.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿وَأُبْرِئُ﴾ معناه: أزيل المرض يقال: برأ المريض وأبرأه غيره، ويقال: برىء المريض أيضًا.

﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: هو الأعمى الذي لا يبصر شيئًا لا ليلًا ولا نهارًا. وهذا ما رجحه الطبري رحمه الله.

﴿وَالْأَبْرَصَ﴾: البرص، المرض المعروف[(١)].

وذكر هذين الداءين خاصة؛ لأن الاحتجاج على بني إسرائيل في معنى النبوة لا يقوم إلا بالإبراء من العلل التي لا يبرىء منها طبيب بوجه، إلا من أعطاه الله مثل الذي أعطى عيسى عليه السلام.

وقد روي أنه ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى، من أطاق منهم أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام، وما يداوي إلا بالدعاء.

وكان الغالب على زمان عيسى عليه السلام الطب، فأراهم الله المعجزة في جنس علمهم[(٢)].

٤. إحياء الموتى.

قال تعالى: ﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

كرر بإذن الله دفعًا لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية[(٣)].

٥. الإنباء بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

قال تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٩]

يعني: وأخبركم بما تأكلون، مما لم أعاينه وأشاهده معكم في وقت أكلكم، وما ترفعونه فتخبأونه ولا تأكلونه.

وهذا كله من الإنباء بالغيب الذي لا سبيل لأحد من البشر عليه إلا بإذن الله[(٤)].

٦. نزول المائدة.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

---

(١) التبصير في الدين، الإسفرائيني ص ١٦٩.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٤١٨، ١٨/ ١٨٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٣٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٢٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٥٣٥.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٣٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٢٨، ٢٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٤، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٩٢، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٣٢٠، تفسير المراغي ٣/ ١٥٧، ١٥٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٥١.

هذه قصة المائدة، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، لما أجاب دعاءه بنزولها، بعد طلب من قومه، فأنزلها الله آية ودلالة ومعجزة باهرة وحجة قاطعة على قدرته تعالى، وعلى نبوته عليه السلام[1].

(١) البرص: داء معروف، وهو بياض يقع في الجسد، برِصَ بَرَصًا، والأنثى برصاء. انظر: لسان العرب ٧/ ٥.

رفع عيسى عليه السلام ونـزوله

أولًا: رفع عيسى عليه السلام إلى السماء:

لما تآمر أعداء الله من اليهود على قتل عيسى عليه السلام والخلاص منه ومن دعوته، نجاه الله سبحانه وتعالى منهم، ورد كيدهم في نحورهم، فرفعه إليه.

يدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ [آل عمران: ٥٥].

قال ابن جرير رحمه الله: «يعني بذلك جل ثناؤه: ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتل عيسى عليه السلام مع كفرهم بالله وتكذيبهم عيسى – عليه السلام – فيما أتاهم به من عند ربهم، إذ قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾. فتوفاه ورفعه إليه.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى الوفاة التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية:

فقال بعضهم: هي وفاة نوم، وكان معنى الكلام على مذهبهم إني منيمك ورافعك في نومك.

وقال آخرون: معنى ذلك إني قابضك من الأرض فرافعك إلي، قالوا: ومعنى

الوفاة القبض، لما يقال: توفيت من فلان ما لي عليه، بمعنى: قبضته واستوفيته، قالوا: فمعنى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ أي: قابضك من الأرض حيًا إلى جواري، وآخذك إلى ما عندي بغير موت، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك

وقال آخرون: معنى ذلك إني متوفيك وفاة موت.

وقال آخرون: معنى ذلك إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليَّ، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا. وقال: هذا من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم.

قال أبو جعفر: «وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال: معنى ذلك إني قابضك من الأرض ورافعك إليَّ؛ لتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ثم يمكث في الأرض)[1] مدة ذكرها اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه»[2].

وأكد الله تعالى أن عيسى عليه السلام لم يقتل، ولم يصلب، بل شبه على اليهود الذين أرادوا ذلك، فظنوا أنهم صلبوه.

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء:١٥٧].

أما قضية الرفع فبينا أقوال المفسرين فيها، وعلماء أهل السنة على أنه عليه السلام رفع ببدنه وروحه إلى السماء[3]، أما كيف شبه لهم؟ فهناك تفسيرات عديدة لمسألة التشبيه على الناس في مسألة الصلب، و نلخص التفسيرات التي لا تعارض القرآن الكريم بما يلي:

١. لم يصلب اليهود أحدًا، لكنهم ادعوا ذلك ليشبهوا على من قلدهم و يكذبوا عليهم بعد أن نجى الله المسيح عليه السلام من مكرهم[4].

٢. صلب اليهود واحدًا من الناس و ادعوا أنه هو المسيح ابن مريم عليه السلام؛ ليشبهوا الأمر على الناس بعد أن نجى الله نبيه عليه السلام، وهذا التفسير هو ما ذهب إليه ابن حزم رحمه الله

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٤٣١، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٣٩- ٤٤٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٢٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٣/ ١٦٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٤، تفسير المراغي ٣/ ١٥٨.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٤٣٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٥٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٢٥.

في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» حيث يقول رحمه الله: «إنما عنى بذلك تعالى أن أولئك الفساق الذين دبروا هذا الباطل وتواطؤوا عليه أنهم كذبة، وهم شبهوا على من قلدهم وكذبوا عليهم، فأخبروهم أنهم صلبوه وقتلوه، وهم كاذبون في ذلك، عالمون أنهم كذبة»[(١)]. و يضيف ابن حزم في شرح جملة (شبه لهم) قائلًا: «إنما هو إخبار عن الذين يقولون بتقليد أسلافهم من النصارى واليهود أنه عليه السلام قتل و صلب، فهؤلاء شبه لهم القول، أي: أدخلوا في شبهة منه. وكان المشبهون لهم شيوخ السوء في ذلك الوقت، وشُرَطهم المدعون لهم أنهم قتلوه وصلبوه، وهم يعلمون أنه لم يكن ذلك. وإنما أخذوا من أمكنهم فقتلوه وصلبوه في استتار ومنع من حضور الناس. ثم أنزلوه ودفنوه تمويهًا على العامة الذين شبه لهم الخبر»[(٢)].

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعضٍ أمراء، تكرمة الله هذه الأمة». أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم، رقم ١٥٦، ١/ ١٣٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٢٨٩- ٢٩١.

٣. صلب اليهود أحد تلاميذ المسيح عليه السلام الذين افتدوا نبيهم بأنفسهم، فادعى التلميذ بأنه هو المسيح عليه السلام عندما طلبه الجنود. فشبه الأمر لليهود بأن ظنوا أنهم صلبوا المسيح عليه السلام وقتلوه.

٤. صلب اليهود أحد الذين وشوا بالمسيح عليه السلام بعد أن جعل اليهود يرونه على صورة المسيح عليه السلام . فظنه اليهود بأنه هو المسيح عليه السلام فصلبوه وقتلوه. فشبه الأمر لليهود بأن ظنوا أنهم صلبوا المسيح عليه السلام وقتلوه[(٣)].

والناظر إلى التفسيرات الأربعة أعلاه يرى عدم تعارضها مع الآية: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

لكن النظريتين الأخيرتين تعتمدان في الأغلب على أناجيل النصارى الذين لا نصدقهم في ادعاءاتهم ولا نكذبهم؛ حيث لم يخالفوا في قصتهم عن شبيه المسيح نصًا من نصوص الشريعة الإسلامية من قرآن أو حديث[(٤)].

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٦٤- ٦٥، مجموع فتاوي ابن تيمية ٤/ ٣٢٢.

(٤) ويقوي هذا الاحتمال ما نقله إنجيل يوحنا بأن يسوع تحدى اليهود بأنهم سيطلبونه ولا يجدونه: «فقال لهم يسوع: أنا معكم زمانًا

ثانيًا: نزوله عليه السلام آخر الزمان:

وردت الإشارة إلى هذا النزول في القرآن الكريم حسب أقوال المفسرين، ففي قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦١﴾ [الزخرف: ٦١].

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة: إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ١٥٩﴾ [النساء: ١٥٩].

قال ابن جرير رحمه الله: «يعني قبل موت عيسى -عليه السلام- يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم»[٢].

وأما في السنة فقد تواترت الأحاديث على نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان[٣]، وفي الصحيحين:

عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحدٌ)[٤].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

يسيرًا بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني. ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا» يوحنا ٧: ٣٤-٣٥.

(١) الفصل ١/ ٧٦.

(٢) الفصل ١/ ٧٧. وذهب قريبًا من هذا الاستنتاج النصراني «ملمن» في كتابه «تاريخ الديانة النصرانية» حيث يقول: «إن تنفيذ الحكم كان وقت الغلس، وإسدال ثوب الظلام، فيستنتج من ذلك إمكان استبدال المسيح بأحد المجرمين الذين كانوا في سجون القدس منتظرين تنفيذ حكم القتل عليهم كما اعتقد بعض الطوائف، وصدقهم القرآن».

(٣) ويؤيد هذه القصة ما ورد في إنجيل برنابا، فقد جاء فيه أن الله ألقى شبه عيسى عليه السلام على يهوذا، وأنه رفع إلى السماء. و قد مهد لهذا بإعلان أن المسيح عليه السلام سوف يحيا إلى نحو منتهى العالم، وأن جبريل قد أخبره بخيانة يهوذا، ثم أعلن يسوع أن الله سيصعده من الأرض، وسيغير منظر الخائن يهوذا حتى يظنه كل أحد أنه يسوع برنابا ١١٢: ١٥. ثم يؤكد إنجيل برنابا القول بأن المسيح عليه السلام لم يوضع على الصليب أبدًا، بل ألقى الله شبهه على يهوذا الاسخريوطي فصلب بديلًا عنه. و مما قاله برنابا: «الحق أقول إن صوت يهوذا وشخصه ووجهه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه و المؤمنون به كافة أنه يسوع» إنجيل برنابا: تحقيق سيف الله أحمد فاضل/ ٢٩٢.

(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٨٠٥، الكشاف ١/ ٣٦٨، المحرر الوجيز ١/ ٤٢٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٧.

(لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعضٍ أمراء، تكرمة الله هذه الأمة)[(١)].

وأما الحكمة من نزوله، فللعلماء في ذلك أقوال، منها:

- الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبين تعالى كذبهم، وأنه الذي يقتلهم.
- نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض؛ إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها.
- أنه دعا الله لما رأى صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأمته أن يجعله منهم، فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجددًا لأمر الإسلام، فيوافق خروج الدجال فيقتله.
- تكذيبه لكل من ادعى إلهيته أو بنوته لله تعالى. قال ابن حجر رحمه الله: «والأول أوجه»[(٢)].

وأما مدة بقائه في الأرض فقد اختلفت في ذلك الروايات بين سبع سنين، أو تسع عشرة، أو أربعين سنة[(٣)].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٧٠، تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٣٣.
(٢) جامع البيان ٦/ ١٨.
(٣) انظر أقوال أهل العلم في تواتر الأحاديث في هذه المسألة: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، الكشميري، ص ٥٦.

موضوعات ذات صلة

الإنجيل، أهل الكتاب، مريم، موسى، النصارى



عناصر الموضوع

مفهوم العين

أولًا: المعنى اللغوي:

العين والياء والنون أصلٌ صحيح يدل على عضوٍ من خلاله يبصر وينظر، ويترتب على ذلك الأصل اللغوي معان عديدة[(١)]، أوصلها العلامة مرتضى الزبيدي رحمه الله نقلاً عن بعض مشايخه إلى ما يزيد على المائة، وكل معانيها ترجع إلى ما ذكر، فالباصرة أصل في معناها، وهو الذي جزم به الكثيرون[(٢)]، وتطلق العين في اللغة، ويراد بها: عين الينبوع[(٣)]، وعين الجاسوس[(٤)]، وعين الشيء ونفسه[(٥)]، وعين التأمل والمعاينة[(٦)]، وعين الشرف والأشراف[(٧)]، وعين المال الحاضر[(٨)]، وعين الحسد[(٩)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

نظرًا لأن المعاني اللغوية كلها رجعت إلى معنى واحد، هو أصلها والبقية فرع عنه، فسيكون التعريف الاصطلاحي تبعًا له، وعليه فإن التعريف الاصطلاحي قد تغلب عليه السمة التشريحية الطبية، وفي ضوء هذا عرفوا العين في الاصطلاح بأنها عبارة عن: «عضو صغير معقد، يتم به الإبصار، مكون من عدة أجزاء، على شكل كرة، موجودة داخل محجر، تدرك الأشكال والحركات والنتوءات والألوان واختلافات الإضاءة بصورة معكوسة»[(١٠)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٩٩ .
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٩٩، تاج العروس، الزبيدي ٣٥/ ٤٤٠ .
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ١٣٠، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٠٣.
(٤) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥٤ .
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٠٦.
(٦) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥٥، تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ١٣٢.
(٧) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥٥، تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ١٣٣، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٠٣.
(٨) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥٤.
(٩) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٠١.
(١٠) انظر: أمراض العين وعلاجاتها، ابن سينا ص٢٦، أسرار العيون، محمود مصطفى ص٧، العين عناية ووقاية، خالد طبارة ص١٣.

العين في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عين) في القرآن الكريم (٦١) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الإفراد	١٨	﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ [المائدة:٤٥]
التثنية	٧	﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف:٨٤]
الجمع	٣٢	﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة:٩٢]
الصفة المشبهة	٤	﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الدخان:٥٤]

وجاءت العين في القرآن على خمسة وجوه[٢]:

أحدها: العين الباصرة الجارحة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾[البلد: ٨].

الثاني: الماء الجاري أو النهر: ومنه قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٦].

الثالث: الحفظ والكلاءة والرعاية: ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[القمر: ١٣ - ١٤]. يعني: بحفظنا ورعايتنا.

الرابع: القلب: ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾[الكهف: ١٠١]. يعني: قلوبهم.

الخامس: بمعنى النفس: ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾[مريم: ٢٦].يعني: طيبي نفسًا.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٩٥-٤٩٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب العين ص٨٤٤-٨٤٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٤٤-٣٤٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٤٣-٤٤٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الطرف:

الطرف لغة:

يطلق الطرف في اللغة على ثلاثة معانٍ، وهي: تحريك جفني العين؛ بأن يطبق الجفن على الجفن، وبمعنى العين نفسها ويكون جمعًا ويكون واحدًا[(١)]، وبمعنى النظر إلى الشيء مد البصر، يقال: طرفت إليه مد بصري، أي: نظرت إلى نهايته[(٢)].

الطرف اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الطرف والعين:

إن الطرف في المعاني اللغوية الأول والثالث يكون جزءًا من معنى العين ومدلولها، وفي المعنى اللغوي الثاني يكون مرادفًا لها.

٢ البصر:

البصر لغةً:

هو إدراك العين، ويطلق على القوة الباصرة، وهو قوة مرتبة في العصبين المجوفين التي من شأنها إدراك أشباح الصور، بانعكاس الضوء فيها؛ إذ البصر هو حاسة الرؤية، وورد في القرآن مع ما يتعلق به من العمليات؛ ليدل على العلم القوي المضاهي لإدراك الرؤية، فيقال: بصر بالشيء: علمه عن عيان، فهو بصير به[(٣)].

البصر اصطلاحًا:

«هو القوة المودعة في العصبتين المجوفتين اللتين تتلاقيان ثم تفترقان، فيتأديان إلى العين تدرك بها الأضواء والألوان والأشكال»[(٤)].

الصلة البصر والعين:

«الفرق بين العين والبصر أن العين آلة البصر وهي الحدقة، والبصر اسم للرؤية؛ ولهذا يقال: إحدى عينيه عمياء، ولا يقال: أحد بصريه أعمى، وربما يجري البصر على العين

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢١٣.
(٢) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٢٩٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٥٠١.
(٣) انظر: الحواس في القرآن الكريم، بليل عبد الكريم، مقال منشور على موقع شبكة الألوكة الإسلامية.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص٤٦.

الصحيحة مجازًا، ولا يجري على العين العمياء، فيدلل هذا على أنه اسم للرؤية، ويسمى العلم بالشيء إذا كان جليًا بصرًا، يقال: لك فيه بصر، يراد أنك تعلمه كما يراه غيرك»[1].

٣ النظر:

النظر لغةً:

«النظر: حس العين، وتقول: نظرت إلى كذا وكذا من نظر العين ونظر القلب، وإذا قلت: نظرت إليه لم يكن إلا بالعين، وإذا قلت: نظرت في الأمر احتمل أن يكون تفكرًا فيه، وتدبرًا بالقلب، والنظر: الفكر في الشيء تقدره وتقيسه منك، والنظر يقع على الأجسام والمعاني، فما كان بالأبصار فهو للأجسام وما كان بالبصائر كان للمعاني»[2].

النظر اصطلاحًا:

«تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وهو الرَّوِيَّة»[3].

الصلة بين النظر والعين:

إن النظر له خاصية من خواص العين، وليس مرادفًا لها.

٤ الرؤية:

الرؤية لغة:

وتعني إدراك المرئي والإقبال بالبصر نحوه، قد يدرك وقد لا يدرك؛ ولذلك قد ينظر الشخص ولا يرى المرئي، وعليه فيجوز أن يقال لله تعالى: إنه راءٍ، ويقال: إنه ناظر.

والرؤية اصطلاحًا:

«المشاهدة بالبصر حيث كان في الدنيا والآخرة»[4].

الصلة الرؤية والعين:

وبهذا يتضح الفرق بين النظر والرؤية، كما يتضح ببيان أن الرؤية من توابع النظر ولوازمه غالبًا؛ لذا أجريت كلمة النظر على الرؤية على سبيل إطلاق اسم السبب على المسبب.

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص٣٨١.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٤٦٦.
(٣) المفردات الراغب الأصفهاني ٢/ ٤٣٨.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص١٠٩.

تصنيف العين في القرآن الكريم

وردت العين في القرآن الكريم متعددة ومتنوعة، ولذا اختلف تصنيف العين إلى أصناف مختلفة، نتناولها في أربعة أنواع.

أولًا: الأعين الممنون بها على كل البشر:

امتن الله تعالى علي بني البشر بنعم عظيمة آفاقية وأنفسية لا تعد ولا تحصى، ومن الآفاقية هذه العيون المائية التي بها قوام كل شيء حي، والتي ذكر الله تعالى بها البشر في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٥].

ومظاهر الامتنان في الآيات الكريمة -وبخاصة العيون- كثيرة وظاهرة، من أبرزها أمران:

الأول: التعبير بالتفجير في قوله: ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ للدلالة على الكثرة والقوة.

الثاني: مجيء العيون بصيغة الجمع؛ للدلالة على الكثرة والتعدد والتنوع، وهذا من عظيم فضل الله تعالى على عباده.

ومن النعم الأنفسية العظيمة هذه التي أكرمنا الله عز وجل؛ لنبصر بها، ولا يقدر عظم نعمة إلا من حرمها، نسأل الله تعالى أن يمتعنا بأبصارنا وأسماعنا وقوتنا ما أحيانا وأبقانا، اللهم آمين.

وهذا الامتنان ورد صريحًا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: ٨].

ويلاحظ على هذا الموطن الكريم أمران:

أولهما: أهمية نعمة البصر، وعظم نفعها، وذلك؛ لتقديمها على بقية النعم المذكورة معها.

ثانيهما: أنه ليس المراد بالعينين وما بعدها العضو وحده، بل ما يترتب عليه من آثار وتبعات، ينتج عنها الثواب والعقاب «من أمانة البصر والنطق؛ تمهيدًا لما يلي في السورة، من تقرير تبعات الرشد، ومسئولية الكلمة بعد وسائل الإدراك الحسي من بصر ونطق، ثم يأتي بعد ذلك التذكير بما هدي تعالى الإنسان إليه من إدراك مميز لمعالم الطريقين في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]»[(١)] والله أعلم.

ثانيًا: عين الإنسان:

المستقرئ لآيات القرآن يجد أن (عين الإنسان) وصفت بصفات مدح في آيات، وبصفات ذم في آيات أخر، وقطعت عن المدح والذم في مجموعة ثالثة، ويمكن جمع هذا في ثلاث مسائل:

(١) انظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، بنت الشاطئ ١/ ١٨١.

١ . الأعين الممدوحة وصفاتها.

أقصد بالمدح ما جاء في القرآن وصفًا للعين في سياق المدح تصريحًا أو تلويحًا، من أمور تتعلق بالمؤمنين في الدنيا أو الآخرة، وكذلك ما ورد بصيغة الأمر مما يتعلق بشأن العين، واعتباره مدحًا؛ لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء، بل يأمر بكل فضل وخير، ولا ينهى إلا عن كل سوء وشر، وعلى هذا اعتبرت قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨] من قبيل المدح.

ووصفت العين بناء عليه بـ(الثابتة غير المتطلعة) وهكذا.

والله تعالى وصف المؤمنين في كتابه بأوصاف عدة، فوصف أفعالهم مرة، وأقوالهم أخرى، ووجوههم ثالثة وهكذا، وكما هو معلوم أن تعدد الصفات يدل على شرف الموصوف.

وعلى هذه الشاكلة يأتينا وصف أعين المؤمنين في القرآن بصفات متعددة، يمكن تجليتها في السطور الآتية:

١ . الفياضة.

يقصد بها: العين التي يفيض دمعها، وينزل منها منهمرًا مدرارًا، إما من خشية الله تعالى، أو خوفًا من التقصير في عبادته، أو فوت طاعته وقربه، ونحو ذلك، مأخوذ من قولهم «فاض الماء: إذا سال منصبًا، ومنه: فاض صدره بالسر أي: سال، ورجل فياضٌ، أي: سخي، وحديث مستفيضٌ: منتشر، والفيض: الماء الكثير، يقال: إنه أعطاه غيضًا من فيض، أي: قليلًا من كثير»[(١)].

وورد هذا الوصف في آيتين، هما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقوله تعالى ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

فالآية الأولى: واردة في سياق الآيات النازلة في نصارى الشام الذين كانوا بالحبشة وأتوا المدينة مع اثنين وستين راهبًا مصاحبين للمسلمين الراجعين من الحبشة، وسمعوا القرآن وأسلموا كما ذكره جمع من المفسرين[(٢)].

وتظهر بلاغة التعبير القرآني عنهم ههنا من وجهين:

الأول: التعبير بقوله: ﴿تَرَىٰٓ﴾ الدالة على الرؤية البصرية، والتي هي من أقوى أسباب

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٤٨.
(٢) روي ذلك عن ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠٧، البسيط، الواحدي ٧/ ٤٩٣.

العلم الحسي، مبالغة في مدحهم، حيث يراهم الرائي وهم على تلك الصورة من رقة القلب وشدة التأثر عند سماع الحق[(١)].

الثاني: التعبير بـ﴿تَفِيضُ﴾ ومعناه: امتلاء العين من الدمع حتى تفيض؛ لأن الفيض أن يمتلأ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه، فوضع الفيض موضع الامتلاء، وهو من إقامة المسبب مقام السبب مبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها، أي: تسيل من الدمع من أجل البكاء، من قولك: دمعت عينه دمعًا[(٢)]، وفي ذلك بيان لغاية رقة قلوبهم، وشدة خشيتهم، ومسارعتهم إلى قبول الحق، وعدم إبائهم إياه[(٣)].

والآية الثانية: واردة في سياق الذين رفع الله تعالى عنهم الحرج من ذوي الأعذار ممن تخلفوا عن غزوة تبوك؛ لعذرهم، وعرف هؤلاء بـ(البكائين)، وحق لهم أن يعرفوا بذلك، وأن ينزل الله تعالى رفع الحرج عنهم من فوق سبع سموات؛ لشدة إخلاصهم، ورغبتهم الصادقة في الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للغزو والجهاد، ونظرًا لقوة إيمانهم وفرط محبتهم للاستشهاد وصفهم الله تعالى بأبلغ وصف - كالآية السابقة - فقال: ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾، ولاشك أن التعبير بذلك أبلغ من قولنا: (يفيض دمع أعينهم)؛ لأن العين في التعبير القرآني جعلت كأنها كلها دمع فائض[(٤)].

٢. القريرة.

هذا الوصف - كما يقول ابن فارس - يدل على معنيين، أحدهما برد، والآخر تمكن.

فالأول: القـر، وهو البرد، ومنه: يوم قار، أي: بارد، ويقال: أقر الله عينه، إذا سر ورضي، وقرة العين: ما يسر ويفرح من الأمور، ونظرًا لأن للسرور دمعة باردة، وللحزن دمعة حارة قالوا لمن يدعى عليه: أسخن الله دمعه.

والثاني: التمكن، يقال: قر واستقر، أي: هدأ واطمأن، وقولهم: قرت عينه، أي: أعطاه الله تعالى ما تسكن به عينه فلا يطمح إلى غيره[(٥)]، وعليه قال بعض أهل اللغة: إن معنى قرة العين أن يصادف عينه ما يرضاه قلبه، فتقر عينه عن النظر إلى غيره، يعني: لا تنظر إلى غيره[(٦)].

ووصف العين بالقريرة يشمل المعنيين

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٣٢٨، التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٥٦.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٦٩.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٥.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٠١.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٧، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ١٢٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ٤٦٠.
(٦) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٢٢٥.

معًا، حيث إنها تكون باردة ودمعتها كذلك عند فرحها وسرورها، كما تكون عندئذ قارة ثابتة غير متطلعة لما ليس لها غالبًا.

والدعاء بقول بعضهم: أقر الله عينك معناه: «صادفت عينك سرورًا فنامت وذهب سهرها، وصادفت ما يرضيك، أي: بلغك الله أقصى أملك، حتى تقر عينك من النظر إلى غيره؛ استغناء ورضى بما في يديك»[1].

ورد هذا المعنى في القرآن في سبع آيات:

قال الله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦]

وقال أيضًا: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠]

وقال أيضًا: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]

وقال أيضًا: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القصص: ٩]

وقال أيضًا: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣]

وقال أيضًا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١].

ويلاحظ على هذه الآيات المباركات أمور:

الأول: أن الله تعالى عبر بالفعل (تقر- وقري) في أربع آيات، وبالاسم (قرة) في ثلاث، وهذا أراه في قمة البلاغة، حيث استعمل الفعل -وهو موضوع؛ للدلالة على التجدد والحدوث- حينما كان المقام مقتضيًا لذلك في هذه المواضع، فمثلًا في قصة أم موسى عليه السلام كان قلبها متلهفًا على وليدها وفلذة كبدها، فرده الله تعالى إليها؛ لإرضاعه وتربيته فترة ما، كي تقر عينها بوليدها؛ لأنه غاب عنها فترة من الزمان، وسيغيب فترة أخرى بعد انتهاء الإرضاع، فلكي تتجدد لها قرة العين مرة بعد مرة جاء التعبير بالفعل، في موضعي (طه والقصص)، وكذلك الحال بالنسبة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم حتى يتجدد لهن الفرح والسرور وقرة العين أيضًا، هذا عن صيغة المضارع، أما صيغة الأمر في قصة مريم فيلمح منها الدلالة على إنشاء قرة العين لمريم عليها السلام، وطيب نفسها، وذهاب الخوف عنها حاضرًا ومستقبلًا، عند ولادتها عيسى عليه السلام، ولا أدل على ذلك من صيغة الأمر. والله أعلم.

الثاني: التعبير بإفراد العين (عين، عينها) في ثلاث آيات، والتعبير بجمعها (أعين) في ثلاث أخرى أيضًا، وأرى أن الإفراد ورد لما

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٤٧٠.

كان حديث الآيات عن شخص مفرد بعينه، وهي أم موسى عليه السلام في سورتي (طه والقصص)، وامرأة فرعون في موضع من سورة (القصص)، ولـما كان الحديث عن جمع من الناس كعباد الرحمن في الفرقان، وأهل الجنة في السجدة، وأمهات المؤمنين في الأحزاب ناسب ذلك الإتيان بصيغة الجمع في الجميع. والله أعلم.

الثالث: التعبير بعطف نفي الحزن على قرة العين في قوله تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾؛ لتنويع المنة على أم موسى؛ لأن قرة عينها يكون برجوع موسى عليه السلام إليها، وانتفاء حزنها يكون بتحقق سلامته من الهلاك ومن الغرق وبوصوله إلى أحسن مأوى[1]. والله أعلم.

٣. الثابتة غير المتطلعة.

هذا الوصف للعين جاء بطريق الإشارة من غير تصريح في موضعين من كتاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١].

وهذان الموضعان استفيد منهما الوصف بطريق الأمر، حيث أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم -والأمر للأمة أيضا- بأن لا تتطلع عينه، ولا تطمح نفسه إلى ما في أيدي الآخرين، وما منحهم الله تعالى إياه من نعم وآلاء، وليقنع بما رزقه الله تعالى إياه، ولعل هذه النعم من قبيل الابتلاء والفتنة لهم، فضلًا عن أنه من متاع الدنيا، وكل أمرها إلى زوال.

واعتبار هذا الوصف الضمني من قبيل الصفات المحمودة؛ لأنه أمر من قبل الله تعالى، والله جلا وعز لا يأمر إلا بكل خير، مما فيه محبته ورضاه سبحانه وتعالى كما مر، وهذا بلا شك على رأس المحامد كلها، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية. قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه[2].

ومد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده؛ استحسانا للمنظور إليه.

والمراد: لا تنظرن بعين الرغبة إلى ما متعنا به بعض الخلق، فما أعطيناك في الدنيا من القرآن خير وأفضل مما أعطيناهم من الأموال، فاستغن بما أعطيناك من القرآن والدين والعلم، ولا تنظر إلى أموالهم[3].

وقريب من هذين الموضعين قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢١٩.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم الرازي ٧/ ٢٢٧٣.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢٦٢.

﴿مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

حيث ينهى الله تعالى فيه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يجاوز بصره ضعفاء المؤمنين، رغبة في مجالسة الأشراف، وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على إيمان الرؤساء؛ طمعًا في إيمان أتباعهم، ولم يمل إلى الدنيا قط ولا إلى أهلها، وإنما كان يلين في بعض الأحيان للرؤساء؛ طمعًا في إيمانهم، فعوتب بهذه الآية، وأمر بأن يجعل إقباله على فقراء المسلمين، وألا يلتفت إلى غيرهم[١].

والملاحظ على الآيات الكريمة أمور:

الأول: أن (مد العين) هنا كأنه اقترن به تمنٍ ورجاء، ولذلك عبر عن الميل إلى زينة الدنيا بـ(مد العين)[٢].

الثاني: التعبير بلفظ التثنية في (عينيك) يدل على المبالغة في النهي، أي: مدًا عظيمًا بالتمني والاشتهاء المؤكد، ولذلك ثنى العين؛ احترازًا عن حديث النفس[٣].

الثالث: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ يفيد النهي عن الإعراض، أي: لا تعرض عن هؤلاء الفقراء لأجل الأغنياء، ولذلك ضمن فعل العدو معنى الإعراض، فعدي إلى المفعول بـ (عن) وكان حقه أن يتعدى إليه بنفسه، يقال: عداه إذا جاوزه[٤].

والله أعلم.

٤. المتلذذة.

هي: العين التي تنعم وتسعد بكل ما هو طيب المخبر، أو حسن المظهر، ولا يكون كمال اللذة إلا في الجنة بنعيم الله تعالى للمؤمنين.

ووردت الإشارة إلى هذا الوصف في موطن واحد، عند الحديث عن بعض ألوان النعيم للمؤمنين في الجنة، وهو قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

فقوله تعالى: ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ من لذذت الشيء واستلذذته، والمعنى: ما من شيء اشتهته نفس أو استلذته عين إلا وهو في الجنة، وقد جمع الله تعالى جميع نعيم الجنة في هذين الوصفين، فإنه ما من نعمة إلا وهي نصيب النفس أو العين، وتمام النعيم الخلود؛ لأنه لو انقطع لم تطب[٥].

هذا ويلاحظ على هذا الموضع الكريم أمور:

أولها: اشتماله على جميع أنواع النعيم، وألوان المتع لأهل الجنة بأوجز عبارة وأدقها؛ لأنه ما من نعمة إلا وفيها حظ

(١) انظر: الوسيط الواحدي ٣/ ١٤٥.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٤٧.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١١/ ٨٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٥.
(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٨٣.

للنفس أو العين، كما مر.

ثانيها: اختصاص العين بالذكر هنا دون بقية الجوارح؛ «لأنها رائد النفس والقلب، وللدلالة على فرط حسن نعيم الجنة، وإلا ما قبلته العين والنفس»[(١)].

ثالثها: قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ رافع لكل ألمٍ وتنغيص عن أهل الجنة «فإن كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ وخوف الزوال، ومستعقب للتحسر في مستقبل الحال»[(٢)] نسأل الله تعالى أن نكون جميعًا من أهل فضله ورضوانه في الحال والمآل، اللهم آمين.

٢. الأعين المذمومة وصفاتها.

سيرًا على سنن القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب والمدح والذم، ألفينا الحديث فيه عن العين جامعًا بين هذين الأسلوبين، ومر بنا سابقًا العين المحمودة وصفاتها، وهذا بلا شك من قبيل الترغيب والمدح؛ ليمتثل المؤمنون الصادقون هذه الصفات، ولهم عند ربهم حسن المثوبة في الجنات، والآن سنعرض الأسلوب الآخر، وهو من قبيل الترهيب والذم؛ ليجتنبه المؤمنون ويحذروه، وستعرض هذه الصفات حسب ترتيبها المصحفي فيما يلي:

١. المعطلة.

يقصد بها: العين التي عطلت عن إدراك الحقائق والبينات من غير علة أو آفة من الآفات، ويدخل في ذلك عدم الاهتداء إلى الهدى، وسلوك طريقه دخولا أوليًّا.

وورد هذا الوصف للعين في القرآن الكريم في موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والآية الكريمة واردة في سياق ذم بني البشر الذين تنكبوا الصراط المستقيم، وكفروا بربهم الذي أخذ عليهم العهد في عالم الذر، وتأكد هذا المعنى بذكر قصة الذي أوتي آيات الله ثم انسلخ منها، واتضح هنا أكثر ببيان أن بعضًا من أشقياء الجن والإنس عطلوا حواسهم فلم يستعملوها فيما ينجيهم من عذاب الله تعالى، وخزي الآخرة.

ومعنى نفي الفقه والإبصار والسمع هنا عن آلاتها الكائنة فيهم: أنهم عطلوا أعمالها بترك استعمالها في أهم ما تصلح له، وهو معرفة ما يحصل به الخير الأبدي، ويدفع به الضر السرمدي؛ لأن آلات الإدراك والعلم خلقها الله؛ لتحصيل المنافع ودفع المضار،

---

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل، الكرماني ٢/١٠٦٧.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٩٦.

فلما لم يستعملوها في جلب أفضل المنافع، ودفع أكبر المضار نفى عنهم عملها على وجه العموم للمبالغة؛ لأن الفعل في حيز النفي يعم مثل النكرة، فهذا عام أريد به الخصوص للمبالغة.

وليس في تقديم الأعين على الآذان مخالفة لما جرى عليه اصطلاح القرآن من تقديم السمع على البصر؛ لأن الترتيب في آية سورة الأعراف سلك طريق الترقي من القلوب التي هي مقر المدركات إلى آلات الإدراك، القلوب ثم الأعين ثم الآذان، فللقلوب المرتبة الأولى في الارتقاء[1].

يليها العين حيث تمثل المرتبة الثانية في الإدراك.

ثم الأذن التي تمثل المرتبة الثالثة في الإدراك.

فالآية وردت بترتيب آلات الإدراك، وهي على حد قوله تعالى: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

والآية وإن كانت واردة في شأن الأصنام إلا أنها وصفت بما وصف به عابدوها قبل ذلك من نفي أو تعطيل آلات الإدراك والعلم، أو أنهم خوطبوا على وفق ما يعتقدونه فيها. والله أعلم.

وسبحان من هذا كلامه وبيانه، وصدق الله حين وصفه بقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

٢. المزدرية.

هي: العين التي تحتقر ما تقع عليه وتستصغره؛ تقليلًا لشأنه، وتهوينًا من أمره.

وهذا الوصف مأخوذ من قولهم: زريت عليه: أي: عبته، وأزريت به: أي قصرت به، وازدريت، أصله: افتعلت، والإزراء: التهاون بالناس[2].

وعليه فالعين المزدرية أي: المحتقرة للآخرين، المستصغرة لشأنهم، وقد ورد هذا الوصف في موضع واحد، هو قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٣١].

والآية واردة في ثنايا قصة سيدنا نوح عليه السلام ومجادلته قومه، وفي هذا السياق نفى نوح عليه السلام «أربعة أمور:

أولها: أنه ليس عنده خزائن، فهو في الأموال دونهم، فالله تعالى لم يبعث رسولا يعطيه خزائن الأرض، لكن يبعثه بما هو

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٣٥٩.

(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٧/ ٣٨١، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٧٩.

أعز وأغلى وهو إثراء الروح والنفس بمحبة الله ورجاء ثوابه وتقوى الله تعالى وخوف عقابه.

ثانيها: نفى أنه يعلم الغيب، فما جاء إلا هاديًا للحق وداعيًا إلى الله تعالى، وذلك لا يقتضي علم الغيب الذي اختص الله تعالى به نفسه، وهو في هذا مثلكم.

ثالثها: أنه لا يقول إنه ملك، وهو بشر مثلكم نشأ بينكم وعرفتم حياته، وأنه بشر كسائر البشر.

رابعها: نفى أنه يقول للمؤمنين الذين تحتقرهم أعينكم: لن يؤتيهم الله خيرًا، بل لهم الخير كل الخير، وأشار بقوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١].

إلى أن الاعتبار ليس للصورة ولكن إلى نور القلوب[١].

وهنا نسب الازدراء للأعين لأحد أمرين:

الأول: إما بالنظر إلى قولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

الثاني: أو الإشعار بأنهم قالوا ذلك لقصور نظرهم، ولو تدبروا في شأنهم ما فعلوا ذلك.

أي: لا أقول في شأن الذين استرذلتموهم واحتقرتموهم لفقرهم من المؤمنين: لن يؤتيهم الله خيرًا في الدنيا أو في الآخرة، فعسى الله أن يؤتيهم خيري الدارين[٢]، والله أعلم.

٣. الدوارة.

يقصد بها: العين المضطربة كثيرة الحركة والتجول من شدة الخوف والفزع لعظيم ما دهاها.

أو هي: الهلعة التي تدور هلعًا من شدة الخوف.

واستفيد هذا الوصف من قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[الأحزاب: ١٩].

وهذه الآية الكريمة واردة في سياق غزوة الخندق من سورة الأحزاب؛ لتصف بعضًا من أحوال المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وبيان أن المنافقين قوم جبناء خوارون بخلاء، فإذا جاء الخوف واقترب الوقت الذي يتوقع فيه اللقاء بينكم وبين أعدائكم، رأيتهم -أيها الرسول الكريم- ينظرون إليك بجبن وهلع، تدور أعينهم في مآقيهم يمينًا وشمالًا، كحال المغشي عليه من الموت، وجيء بصيغة المضارع في ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ ليدل على تكرر هذا النظر وتجدده.

وجملة ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾: حال من

---

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧ / ٣٧٠٢.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤ /٢٠٣.

ضمير ﴿يَنظُرُونَ﴾ لتصوير هيئة نظرهم نظر الخائف المذعور الذي يحدق بعينيه إلى جهات يحذر أن تأتيه المصائب من إحداها.

والدور والدوران: تحرك جسم حركة دائرية -كحركة الرحى- متقل من موضع إلى موضع، فينتهي إلى حيث ابتدأ، يقال: دار الشيء يدور دورًا ودورانًا وأدار الشيء: جعل حركاته تتواتر بعضها إثر بعض[(١)].

ومشتقات هذا الفعل تدور حول هذا المعنى، فالدار اسم للمكان المحدود المحيط بسكانه بحيث يكون حولهم، ومنه سميت الدارة لكل أرض تحيط بها جبال، وقالوا: دارت الرحى حول قطبها. وسموا الصنم: دوارا -بضم الدال وفتحها-؛ لأنه يدور به زائروه كالطواف، وسموا ما يحيط بالقمر والشمس دائرة، وسميت مصيبة الحرب دائرة؛ لأنهم تخيلوها محيطة بالذي نزلت به لا يجد منها مفرًا.

وعليه فمعنى ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾: أنها تضطرب في أجفانها كحركة الجسم الدائري من سرعة تنقلها محملقة إلى الجهات المحيطة، وشبه نظرهم بنظر الذي يغشى عليه بسبب النزع عند الموت فإن عينيه تضطربان، ويصير حاله في أقصى دركات الوهن والخوف والفزع.

وفي الآية الكريمة حذف تقديره: تدور أعينهم دورانا كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت، فحذف المصدر وهو (دورانا) وما أضيفت الكاف إليه وهو (دوران) وما أضيف (دوران) إليه وهو (عين) وأقيم (الذي) مقام (عين)، وإنما وجب هذا التقدير؛ ليستقيم معنى الكلام[(٢)]، والله أعلم.

ويقارب هذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠].

وهي الأخرى تصف المنافقين بهذه الحالة من الهلع والخوف والذعر الذي يتنابهم حين يطالبون بالقتال أو الاشتراك فيه مع المؤمنين، إلا أن الآية السابقة دلت على هذا الوصف مع الحركة والاضطراب، وهذه دلت عليه مع السكون وثبات الحدقة وعدم التحريك، وفي ذلك يقول ابن عاشور:

«ووجه الشبه: ثبات الحدقة وعدم التحريك، أي: ينظرون إليك نظر المتحير بحيث يتجه إلى صوب واحد، ولا يشتغل بالمرئيات؛ لأنه شاغل عن النظر»[(٣)].

فسبحان من هذا كلامه، ومنطقه وبيانه.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢٩٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٢١٨، التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ١٨٩، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٢١/ ٢٥٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٩١.

٤. المطموسة.

هي: العين التي لا يكون بين جفنيها شق، حتى تصير كأنها ممسوحة.

والطمس: إزالة الأثر بالمحو كلية، كما تطمس الريح الأثر، يقال: أعمى طميس ومطموس: إذا كان لا يتبين له جفن، ولا يرى شفر عينه[١].

وهذا الوصف ورد في موضعين، هما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر: ٣٧].

والآية الأولى: واردة في سياق ذم الكفار وتوبيخهم على تركهم سلوك طريق الحق مع وضوحه، فبين الله تعالى لهم هنا بعض مظاهر قدرته عليهم.

والمعنى: لو نشاء لأعميناهم فعدلوا عن الهدى، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين الطريق المألوف لم يستطيعوا، فكيف بغيره؟ ومن أين يبصرون لو فعلنا بهم ذلك؟!

والثانية: واردة في سياق قصة لوط عليه السلام مع قومه، حيث تعرض الآية مشهدًا من مشاهدها، حيث راودوه عن ضيفه من الملائكة الكرام، ونهاهم لوط عليه السلام عن ذلك، وحذرهم عقاب الله، إلا أنهم لم يرعووا، فطمس الله أعينهم فلم يروا الأضياف، وخرجوا من بينهم سالمين.

ويلاحظ على الآيتين الكريمتين هنا أمران:

الأول: أن الطمس لم يقع في الآية الأولى، بل هو وارد على سبيل التهديد والوعيد، ويدل عليه وقوع فعل المشيئة في أسلوب الشرط، ولعل هذا من فرط رحمة الله تعالى بعباده، إذ لم يعاجلهم بالعقوبة، حتى لو كانوا كفارًا، بينما وقع الطمس في قصة لوط عليه السلام، حيث ضربهم جبريل عليه السلام على أعينهم فأعماهم، وورد الفعل ماضيًا ﴿فَطَمَسْنَآ﴾؛ ليؤكد ذلك.

الثاني: الدلالة على تمكن الطمس وقوته عند وقوعه، وذلك للتعبير بحرف الاستعلاء (على) في الموطن الأول، مع أن الطمس يتعدى بنفسه[٢] كما جاءنا في الموطن الثاني. والله أعلم.

٥. الخائنة.

يقصد بها: العين التي تنظر خلسة إلى ما لا يحل لها.

أو المراد: العين التي يومئ صاحبها بخلاف ما يظهر من غدر أو قتل أو ضرب أو

(١) انظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى ٢/ ١٦٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٩٣، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٢٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٥١.

خيانة ونحوها فإذا كان ظهور تلك الخيانة من قبل عينه كانت عينه من خائنة الأعين[1].

وهذا الوصف وردت الإشارة إليه في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

علق سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما على الآية السابقة فقال: الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها، فإن رأى منهم غفلة نظر إليها، فإن خاف أن يفطنوا به غض بصره، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه نظر إلى عورتها[2].

وذكر ابن حجر عن بعض أهل العلم: أن معنى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾: أن الله يعلم النظرة المسترقة إلى ما لا يحل، وأما خائنة الأعين التي ذكرت في الخصائص النبوية[3].

فهي الإشارة بالعين إلى أمر مباح لكن على خلاف ما يظهر منه بالقول.

قلت[4]: وكذا السكوت المشعر بالتقرير فإنه يقوم مقام القول[5].

ولما كانت هذه الخيانة من قبل العين أضيفت إليها، وكان يحرم عليه صلى الله عليه وسلم خائنة الأعين في غير الحرب، ومكايدة العدو وهي أن يشير إلى مباح من غير أن يظهره من ضرب، أو قتل أو نحوه - كما مر - مما يحل أن ينطق به، ولا يحرم ذلك على الأمة إلا في محظور[6].

وفي ضوء ذلك نعلم أن هذا الوصف للعين ذمه القرآن الكريم، وذم متصفيه مما يؤكد أهمية ابتعاد المسلم عنه، وبخاصة إذا كان في أمر محظور نهى الشرع عنه، ولم يكن في مكيدة أو حرب، والله أعلم.

٣. أعين لا توصف بمدح ولا ذم.

مر بنا حديث القرآن عن العين المحمودة أولًا، ثم المذمومة ثانيًا، وها نحن أولاء

---

(١) انظر: عون المعبود، العظيم آبادي ٧/ ٢٤٩.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٤/ ٣٢٧.

(٣) يشار بذلك إلى الحديث الصحيح الذي أخرجه مصعب بن سعد، عن سعد قال: لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان رضي الله عنه، فجاء به حتى أوقفه على النبي، فقال: يا رسول الله، بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثًا، ثم أقبل على أصحابه، فقال: (أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟) فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟ فقال: (إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين).

أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام، رقم ٢٦٨٣، ٣ / ٥٩، والنسائي في الكبرى، كتاب المحاربة، باب الحكم في المرتد، رقم ٣٥١٦، ٣/ ٤٤٣.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٣٠٠.

(٤) الكلام للإمام ابن حجر رحمه الله تعالى وجميع علمائنا المسلمين.

(٥) فتح الباري ١١/ ٩.

(٦) انظر: شرح السنة، البغوي ١١/ ٤٣.

في هذا الموضع نقف على صفات العين الخارجة عن المدح والذم، وهي مرتبة حسب ترتيبها المصحفي كما يلي:

١. المسحورة.

هي: العين التي وقع عليها تأثير السحر، فيخيل إليها أنها ترى أشياء غير حقيقية أو واقعية.

أو هي: العين الواقعة تحت التأثير النفسي للسحر، فلا ترى الأشياء على حقيقتها.

وهذا الوصف للعين ورد في موضع واحد من كتاب الله تعالى، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

ويلاحظ على الآية الكريمة أمران:

أولهما: أن الله تعالى نسب السحر إلى الأعين، ولم ينسبه إلى الناس أنفسهم؛ للدلالة على أنهم سحروا أعين الناس وعقولهم، أي: خيلوا إلى الأبصار -بما فعلوا من التمويه والتخييل- أن صنيعهم له حقيقة في الخارج مع أنه لم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، فتأثيرهم في الرؤية لا في تغيير الحقيقة، ولذا لم يقل سبحانه سحروا الناس[(١)].

ثانيهما: أن لفظ (الأعين) الوارد على أحد أوزان جمع القلة (أفعل)، مراد به الكثرة لا القلة؛ لأن الناس في هذا اليوم جمعهم فرعون من كل حدب وصوب لرؤية هذا الحدث الجلل، تصديقًا لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٣٩: ٤٠].

ونحو ذلك من الآيات المفيدة كثرة الناس في هذا المشهد المهيب، أو أن جمع القلة على بابه والمقصود به طائفة مخصوصة من الناس، وهم قوم فرعون ومن جمعهم لمثل هذا الأمر، والله أعلم.

٢. المبيضة.

هي: العين التي غلب البياض على حدقتها من شدة الحزن، المستلزم لكثرة البكاء فتذهب الرؤية عنها[(٢)].

واخترت هذه التسمية بدلًا من (البيضاء)؛ لأن كلمة (البيضاء) توحي بأن هذا الوصف ذاتي للموصوف، وليس الأمر كذلك، بل جاءها البياض، وغلب على العين بعد ذلك لسبب من الأسباب كالحزن وكثرة البكاء ونحوهما، وهذا الوصف وارد في موطن واحد في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ

(١) انظر: تفسير السمعاني ٢/ ٢٠٤، زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٣٣٩، التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣٤٩.

(٢) انظر: تفسير السمعاني ٣/ ٥٨.

﴿ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

والآية مسوقة -كما هو معلوم- ضمن قصة يوسف عليه السلام؛ لبيان عظم حزن أبيه يعقوب عليه السلام عليه، وللمفسرين في ابيضاض العين قولان:

أولهما: أنه ذهب بصره كلية.

ثانيهما: أنه ضعف بصره؛ لبياض حصل فيه من كثرة بكائه(١).

وذهب بعضهم: إلى أن الآية من قبيل المجاز، وعليه فقوله: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ كناية عن غلبة البكاء(٢)، وليس ثمة ذهاب للبصر أو بعضه.

وأرجح القول الأول، حيث إن ظاهر القرآن يؤيده في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣] إلى أن قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦].

فقوله: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ و﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ يقتضيان سبق العمى، الذي أفضى إليه شدة الحزن وكثرة البكاء، والله أعلم.

ثالثًا: العيون الممنون بها على بعض الأقوام السابقين.

مَنَّ الله تعالى على بعض الأقوام السابقين -كما منَّ علينا أيضًا- ببعض عيون الأرض؛ لإصلاح معايشهم ومنافعهم، ومن هؤلاء الأقوام:

١ . قوم هود عليه السلام.

قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف، وهي جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن، وقد جاؤوا بعد قوم نوح عليه السلام، وكانوا ممن زاغت قلوبهم بعد فترة من الطوفان الذي طهر وجه الأرض من العصاة.

وقد وردت هذه القصة في (الأعراف) وفي (هود) مفصلة، كما وردت في سورة (المؤمنون) بدون ذكر اسم هود أو عاد، وهي تعرض هنا في (الشعراء) مختصرة بين طرفيها: طرف دعوة هود لقومه، وطرف العاقبة التي انتهى إليها المكذبون منهم(٣)، وقبل هلاكهم ذكرهم نبيهم عليه السلام بعظيم نعم الله تعالى عليهم، والتي منها عيون الماء، ولولاها -بعد الله تعالى- ما كانت لهم حياة ولا وجود ألبتة، لكنهم لم يستجيبوا ولم يؤمنوا فحاق بهم سوء العذاب، وهذا ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣١-١٣٥].

هذا ويلاحظ على الآيات الكريمة أمور

(١) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٦٩.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٩٨.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦١٠.

كما يلي:

أولها: أن سيدنا هودًا عليه السلام استعمل مع قومه في دعوته (أسلوب التفصيل بعد الإجمال) في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٣].

وهذا بلا شك أوقع في النفس، وأبلغ في الموعظة والنصح، ولعل دعاة اليوم يستفيدون من مثل هذه المناهج الدعوية للقرآن الكريم.

ثانيها: ابتدأ هود عليه السلام في تعداد النعم بذكر الأنعام؛ لأنها أجل نعمة على أهل ذلك البلد، فمنها أقواتهم ولباسهم وعليها أسفارهم، وكانوا أهل حل وترحال، وعطف عليها البنين؛ لأنهم نعمة عظيمة، وبها أنسهم وعونهم على أسباب الحياة وبقاء ذكرهم بعدهم، وكثرة سوادهم وعددهم[(١)].

ثالثها: ثم ذكر عليه السلام (الجنات والعيون) بعد ذلك؛ لأن بها رفاهية حالهم، واتساع رزقهم، وعيش أنعامهم[(٢)].

رابعها: ورود النعم المذكورة بصيغة الجمع يدل على تعددها وتنوعها، فهي ليست واحدة، بل أنعام وبنون وجنات وعيون، وهذا الجمع باعتبار التعدد والتنوع، أو باعتبار انفراد كل واحد من القوم بمجموع هذه النعم، وهذا فيه مزيد إكرام وإنعام لهم، ومع ذلك كله لم يتعظوا ولم ينتفعوا فنزل بهم ما أوعدوا به، والله أعلم.

٢ . قوم صالح عليه السلام.

كما ذكر سيدنا هود عليه السلام قومه بنعم الله تعالى عليهم، ذكر سيدنا صالح عليه السلام قومه كذلك، ومما ذكرهم به هذه الجنات والعيون التى أغدقها الله عليهم، والزروع والنخيل المترتبة على هذه العيون، فالعيون ههنا لم توصف بمدح أو ذم، لكنها واردة في مقام الامتنان والتذكير بنعم الله تعالى، ولننظر إلى سيدنا صالح عليه السلام هنا وهو يذكر قومه بقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٩].

وقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: في هذا الخير والسعة آمنين من الموت في البساتين والأنهار، ويقال: العيون هاهنا الآثار؛ لأن قوم صالح لم يكن لهم أنهار جارية[(٣)].

هذا ويلاحظ على الآيات الكريمة هنا أمران:

الأول: أن العيون جاءت مجموعة أيضًا فهذا لتعددها أو تنوعها، وفي كلٍ مزيد إنعام

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٧٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ١٩/ ١٧٠.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٦٣.

وإكرام.

الثاني: ظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم هود هو اللذات المعنوية، وهي طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة[(١)].

٣. بنو إسرائيل.

امتن الله تعالى على بني إسرائيل بمنن عظيمة، وأنعم عليهم بنعم كثيرة متنوعة، ومن ذلك هذه العيون التي رزقهم الله تعالى إياها، والمشار إليها في موضعين من كتابه هما قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨].

وفي تفسير العيون قولان:

أحدهما: عيون الماء، وهو قول الجمهور.

والثاني: عيون الذهب، قاله ابن جبير[(٢)].

والظاهر ما رجحه الجمهور؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ بعد قوله: ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، مما يدل على أن العيون للماء وليست للذهب، فالعيون شيء، والكنوز شيء آخر، فضلًا عن أن الذهب أول ما يكتنز من المعادن، فلفظ الكنوز يدل عليه ويشمله، ولا ثمة داع أن يشار إليه ثانية، فلغة القرآن منزهة عن العبث، والتكرار غير المفيد، والله أعلم.

والموضعان يتحدثان عن إرث بني إسرائيل للجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم، التي كانت لقوم فرعون بعد هلاكهم «والمعنى: أخرجناهم من بساتينهم التي فيها عيون الماء وكنوز الذهب والفضة، والمواضع التي كانوا يتنعمون فيها؛ لنسلمها إلى بني إسرائيل، وسمى الله الكنوز بهذا الاسم؛ لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله تعالى، والمقام الكريم هو المنازل الحسنة والمجالس البهية»[(٣)].

وهذا يقتضي رجوع بني إسرائيل إلى مصر؛ لأن هذه الجنات والعيون والكنوز كانت لفرعون وقومه بمصر، ثم آلت لبني إسرائيل بعد غرق فرعون، فتمتعوا بها فترة معينة، ثم خرجوا إلى الأرض المقدسة التي دعاهم موسى عليه السلام لدخولها كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٢٥.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٢٥١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٠٦.

ويلاحظ على هذه الآيات الكريمة أمران:

الأول: أن آيات سورة الشعراء بمثابة التفسير لآيات سورة الدخان، حيث فسرت القوم الآخرين بأنهم بنو إسرائيل، وهذا يعد من قبيل تفسير القرآن بالقرآن، وهو مقدم على كل تفسير.

الثاني: أن العبد بحسن طاعته وإقباله على ربه، يمنحه النعم الكثيرة والهبات الجزيلة، فبنو إسرائيل بإيمانهم أورثهم الله تعالى ما كان لفرعون، ولما طغى فرعون وتأله أهلكه، وأراح منه البلاد والعباد، والله أعلم.

رابعًا: عيون الجنة وحورها:

الناظر في كتاب الله تعالى يجد عددًا غير قليل من الآيات الكريمة، ورد فيه أوصاف لعيون الجنة وحورها مما يثير الاهتمام بها، ويؤهلها لدراسة مستقلة، لذا كانت هذه المسألة، وستكون الأوصاف مرتبة تبعًا لورودها بالمصحف في مسألتين:

١ . عيون الجنة.

١ . الجارية.

هي: العين التي يجري فيها ومنها الماء جريانًا سريعًا كثيرًا، غير بطيء ولا قليل.

والجري: المر السريع، وأصله كمر الماء، يقال: جرى الماء يجري جريًا وجريانًا[1].

وقد ورد هذا الوصف للعين في القرآن في موضعين:

قال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢].

وكلا الموضعين ورد وصفًا لعيون الجنة، وجاء الأول بلفظ التثنية موافقة للسياق، وأن من خاف ربه- على خلاف بين المفسرين في المراد - له جنتان من صفتهما أنه ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠].

وهاتان الجنتان تجريان بالزيادة والكرامة على أهل الجنة.

وقيل: تجريان بالماء الزلال، إحداهما التسنيم، والأخرى السلسبيل. وقيل: إحداهما من ماء، والأخرى من خمر. وقيل: تجريان في الأعالي والأسافل من جبل من مسك[2].

فإن كان الجنتان اثنتين لكل من خاف مقام ربه، فلكل جنة منهما عين، فهما عينان لكل من خاف مقام ربه، وإن كان الجنتان جنسين فالتثنية مستعملة في إرادة الجمع،

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٩٤.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/٢١٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٧٨.

أي: عيون على عدد الجنات، وكذلك إذا كان المراد من تثنية (جنتان) الكثرة كما أن تثنية (عينان) للكثرة.

وفصل بين الأفنان وبين ذكر الفاكهة بذكر العينين مع أن الفاكهة بالأفنان أنسب؛ لأنه لما جرى ذكر الأفنان، وهي من جمال منظر الجنة، أعقب بما هو من محاسن الجنات، وهو عيون الماء؛ جمعا للنظيرين، ثم أعقب ذلك بما هو من جمال المنظر، أعني: الفواكه في أفنانها وملذات أذواقها[1].

أما الإفراد في قوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ فلعله؛ لأن عين اسم جنس، أي: عيون، أو عين مخصوصة ذكرت تشريفًا لها[2]، وقيل: في الجنة العالية عين جارية في غير أخدود[3].

وسواء أكانت عينًا أم عينين أم عيونًا فهذا مما يدل على كرامة أهل الجنة عند المليك المقتدر سبحانه وتعالى، وأنه عز وجل يكرمهم بتعدد ألوان النعيم لهم، وذلك لتعدد أنواع الطاعات منهم، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعًا من أهل منه وكرمه، اللهم آمين.

٢ . النضاخة.

العين النضاخة هي: الفوارة شديدة الفوران، كثيرة الماء مع حسنه وجماله.

وفي ذلك يقول صاحب اللسان: والنضخ شدة فور الماء في جيشانه وانفجاره من ينبوعه.

وقال أبو علي: ما كان من سفل إلى علو فهو نضخ، وعين نضاخة تجيش بالماء[4].

ولم يرد هذا الوصف للعين إلا في موضع واحد من التنزيل، وهو قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦].

وعليه فـ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ بمعنى: فوارتان، وجل المفسرين على ذلك، وقال الضحاك: ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: ممتلئتان لا تنقطعان[5].

وسواء أكان فورانها بالماء أم المسك والعنبر أم الخير والبركة ونحو ذلك مما ذكره المفسرون[6]، فهذا مما يدل على غاية إكرام الله تعالى لهم أيضًا، مع تعدده وتنوعه، ولا حرج على فضل الله تعالى.

والملحوظ هنا أن الله تعالى وصف العين بالنضخ وهو أدون، وفي الآيات السابقة بالجري، وهو أعظم؛ لأن الجري أقوى من النضخ، والجنات الموصوفة بالنضخ أدون وأقل درجة من السابقة؛ لأنه تعالى قال في هذين دون الأوليين: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].

وفي ذلك يقول صاحب (باهر البرهان):

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٦٦.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٦٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٨٧.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٦١، تاج العروس، الزبيدي ٧/ ٣٥٧.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٠٧
(٦) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ١٩٣.

«﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: فوارتان، والنضخ دون الجري، فلذلك كانتا دون الأوليين»[1]. والله أعلم.

٣. الكافور.

الكافور: شجر من الفصيلة الغارية يتخذ منه مادة شفافة بلورية الشكل، يميل لونها إلى البياض، رائحتها عطرية وطعمها مر، وهو الذي يجعل في الطيب، وأصنافه كثيرة[2].

وقيل: هو زيت يستخرج من شجرة تنبت في بلاد الصين، يغلى حطبها ويستخرج منه زيت يسمى الكافور، وهو ثخن قد يتصلب فيصير كالزبد، وإذا وقع حطب شجرة الكافور في الماء صار نبيذًا يتخمر فيصير مسكرًا، ولونه أبيض ذكي الرائحة منعش[3].

وهذا الوصف ورد في موضع واحد أيضًا هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥ - ٦].

والكافور في الآية قيل: هو اسم عين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده.

وعن قتادة: تمزج لهم بالكافور وتختم لهم بالمسك، وقيل: تخلق فيها رائحة الكافور وبياضه وبرده فكأنها مزجت بالكافور[4].

وقوله: ﴿مِزَاجُهَا﴾ أي: يمازجه ماء هذه العين التي تسمى كافورًا، وقال عكرمة: مزاجها طعمها.

وقيل: إنما الكافور في ريحها لا في طعمها، وقيل: أراد كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده؛ لأن الكافور لا يشرب[5]، وعليه فشراب أهل الجنة هنا من عين ماؤها كالكافور بياضًا ورائحة وبرودة وفضلًا.

والملحوظ هنا أن الله تعالى عبر بقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ولم يقل: (يشرب منها) -مع أنه المتبادر من الكلام- لأمرين:

الأول: أن الفعل (يشرب) عدي بالباء؛ لتضمينه معنى التلذذ أو الارتواء، والمعنى: يتلذذ بها أو يروى بها عباد الله؛ لأن الشرب قد يكون أقل من الارتواء، يؤتى الشخص بإناء يشرب منه، فيشرب، لكن ليس إلى درجة الارتواء، فقد يرتوي وقد لايرتوي، وإذا أتي بشيء يشرب به فلابد أن يرتوي، وعليه (فشرب به) بمعنى ارتوى لغة[6].

(١) انظر: باهر البرهان في معانى مشكلات القرآن، أبو القاسم النيسابورى.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٥٣.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٤٢٠.
(٥) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ٩٥، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٣.
(٦) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي ابن أبي

الثاني: أن (شرب به) يفيد معنى الوجود في المكان نفسه، يقال: شربت بالعين، وسكنت بالبلد أي: أقمت فيها؛ لأن الباء قد تكون للظرفية، إذن: شرب بالعين معناها: أنه كان قطعًا موجودًا ومقيمًا فيها أو حولها وشرب، أما شرب من العين ليس بالضرورة أن يكون في العين، إذن اللذة تكون بشيئين: بالمنظر وبالارتواء.

وفي ذلك يقول الراغب رادًا على من ذهب إلى زيادة الباء أو بعضيتها في الآية: «وقال بعضهم: الباء بمعنى (من) في قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٨].

وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

والوجه ألا يصرف ذلك عما عليه، وأن العين هاهنا إشارة إلى المكان الذي ينبع منه الماء لا إلى الماء بعينه، نحو: نزلت بعين، فصار كقولك: مكانًا يشرب به»[1].

وعلى هذا فقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ يدل لغة على الارتواء والوجود في المكان حين الشرب، فتجتمع لهم لذة الشرب مع الارتواء، ولذة المقام والوجود وعدم المفارقة، فلاهم يفارقون هذا النعيم وهذه العيون، ولا هي تفارقهم إلى غيرهم، وهذا أبعد للتنغيص والتكدير، ثم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم، نسأل الله تعالى أن نكون منهم أجمعين.

٤ . السلسبيل.

الماء السلسبيل: هو الماء السهل اللذيذ، سلس الجري[2] والمساغ.

وقيل: هو عين في الجنة يوجد منها طعم الزنجبيل، لا يشبه زنجبيل الدنيا، يشربها المقربون صرفًا، ويمزج لسائر أهل الجنة[3].

وورد هذا الوصف أيضًا في موضع واحد من التنزيل، وهو قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧ - ١٨].

والسلسبيل صفة لعين ماء في الجنة -على الراجح- ووصفت بذلك؛ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها، يقال: شراب سلسل وسلسال وسلسبيل، وهو ما كان من الشراب غاية في السلاسة، وجاءت الباء مبالغة في هذا المعنى، والمراد: أنها في طعم الزنجبيل، وليس فيها لذعة بل هي على

طالب ١٢/ ٧٩١٢.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٦١، لمسات بيانية، فاضل السامرائي ص١٠٠.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤١٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٠٠، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٦.

نقيض اللذع وهو السلاسة[1].

والزنجبيل: مما كانت العرب تستطيبه جدًا، فوعدهم الله تعالى أنهم يسقون في الجنة الكأس الممزوجة بزنجبيل الجنة[2].

وقال قتادة: سميت بذلك؛ لأنها سلسة منقاد ماؤها حيث شاؤوا[3].

وحكى ابن جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك؛ لسلاستها في الحلق، ورجح الطبري أنها تعم ذلك كله، والأمر كما قال[4]، والله أعلم.

وفي ترجيح كون ﴿سَلۡسَبِيلًا﴾ صفة للعين لا اسمًا لها يقول الطبري، بعد ذكره الأقوال الأخرى: «الصواب من القول في ذلك عندي أن قوله: ﴿تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلًا﴾ صفة للعين، وصفت بالسلاسة في الحلق وإنما قلت ذلك أولى بالصواب لإجماع أهل التأويل على أن قوله: ﴿سَلۡسَبِيلًا﴾ صفة لا اسم»[5].

والله عز وجل جمع لأهل الجنة ألوانًا من النعيم والعيون، فجعل شرابهم جامعًا بين برد الكافور وطعم الزنجبيل من غير لذع وريح المسك، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن ذاك تارة، أما المقربون فإنهم يشربون من كلٍ صرفًا، كما قاله قتادة وغير واحد[6]، والله اعلم.

٥. التسنيم.

عين (التسنيم): هي عين يمزج بها الرحيق لأصحاب اليمين في الجنة، وأما المقربون فيشربونها صرفًا، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٥ - ٢٨].

وجل المفسرين على هذا القول.

واللفظ مأخوذ من (سنم) أي: ارتفع، ومنه سنام البعير[7].

والتسنيم: تفعيل من قول القائل: سنمتهم العين تسنيمًا، إذا أجريتها عليهم من فوقهم، فكان معناه في هذا الموضع: ومزاجه من ماء ينزل عليهم من فوقهم فينحدر عليهم[8].

وسميت بذلك؛ لأنها عين في الجنة رفيعة القدر، أو أنها تجري فوق الغرف والقصور، أو لأنها أرفع شراب في الجنة أو أنها تجري في الهواء مسنمة فتنصب في أوانيهم، أو لأن ماءها عند الجري يرى فيه ارتفاع وانخفاض، فهو التسنيم أيضًا، وذلك

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٤٢٣، السراج المنير، الشربيني ٤/ ٤٥٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٦.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٣٨، والطبري في تفسيره ٢٩/ ٢١٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٠٩- ١١٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٩٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٠٩- ١١٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٩٢.
(٧) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٢٦.
(٨) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤ / ٣٠٠.

لأن أصل هذه الكلمة للعلو والارتفاع[(١)].

ولا مانع من الجمع بين هذه الأسباب كلها، ولا حرج على فضل الله تعالى أن تجتمع هذه الصفات لعين التسنيم، وبخاصة أن الجنة فضلت بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والناظر في سياقات الآيات الواردة في عيون الجنة يلحظ أمرين:

الأول: أن بعض هذه العيون ورد في وصفها قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾ وقوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ والبعض الآخر ليس كذلك، ومن خلال استقراء كتب التفسير وجدت أن العلة في ذلك المغايرة بين جزاء الأبرار والمقربين، وتفاوت درجة كل منهم، فإذا كان الحديث عن الأبرار جاءت الآيات بالشراب الممزوج بغيره لنزول رتبتهم عن رتبة المقربين، وإذا كان الحديث عن المقربين كان شرابهم خالصًا صرفًا لعلو مكانتهم.

الثاني: ورد في التعبير عن بعضها قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ وذلك حين يكون الحديث عن المقربين؛ للدلالة علي شربهم حتى الري، مع الاستقرار والإقامة في المكان، علي ما سبقت الإشارة إليه، والله أعلم.

٢ . الحور العين.

من مشتقات مادة (عين) مجيئها في القرآن الكريم بكسر العين (عين) وصفًا للحور العين، والعين في الأصل جمع (عيناء) وهي المرأة واسعة العين، وهو وصف كذلك للبقر الوحشي.

وورد هذا الوصف في القرآن للحور العين في أربع آيات هي:

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢ – ٢٣].

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة يلحظ أمورًا:

الأول: أن الله تعالى وصف الحور فيها بأنهن (عين) وهذا الوصف فسره العلماء بتفسيرين:

- اتساع العين وكبرها مع حسنها وجمالها، ومن ذلك قولهم: امرأة عيناء، وهي الواسعة العين ويقال ذلك لبقر الوحش، ومنه أيضًا: رجل أعين، إذا كان ضخم العين واسعها[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري٢٤ / ٣٠٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢٩.

(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٥٥، تهذيب

● شدة سواد الحدقة، مع شدة بياض ما حولها، وهذا يضفي علي العين حسنًا وبهاءً، ومنه قولهم: شاة عيناء، إذا اسود عينتها، وابيض سائرها[1]، ولا مانع أن يجمع الله تعالى للحور العين هذين الوصفين وأكثر، بل وأعظم من ذلك؛ إكرامًا لأهل النعيم، فاللهم اجعلنا منهم أجمعين.

الثاني: أنه تعالى وصفهن في بعض الآيات بأنهن ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ثم وصفهن ثانية بأنهن ﴿عِينٌ﴾ وكأن الوصف الأخير وارد هنا على سبيل (الاحتراس)[2]، حيث إنه سبحانه لما وصفهن بأنهن قاصرات الطرف؛ لشدة عفتهن وحيائهن -لا من ضعف في العيون أو لعيب فيها- فلما وصفهن بالوصف الأول احترس بالوصف الثاني، حتي لا يظن بهن أي نوع من أنواع العيب يسبب لهن قصر النظر[3]، مع تشبيههن في بقية الآيات بالبيض أو اللؤلؤ المكنون، وهذا فيه من كمال الجمال ما فيه.

الثالث: الاقتصار في وصف الحور على هذه الصفة ﴿عِينٌ﴾ في الآيات المذكورة مما يدل على أنها أصل لما سواها وغنية عنه، وليس سواها كذلك، حتى صارت هذه الصفة بمثابة العلم عليهن، فإذا ذكرت (العين) انصرف الذهن إليهن مباشرة.

وهذا غيض من فيض، وقليل من كثير، مما لم تره عين، أو تسمع به أذن، أو يخطر علي قلب بشر، فاللهم اجعلنا أجمعين من أهل فضلك ورضوانك في الدنيا والآخرة اللهم آمين اللهم آمين.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، البصر، التفكر، الرؤية

اللغة، الأزهري ٣/ ١٣١، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٣٠٢.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ١٣١، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٩٩.

(٢) الاحتراس هو: أن يؤتي في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم، وسمى بذلك لأن فيه التوقي والاحتراز عن توهم خلاف المقصود، ويسمى بـ «التكميل» أيضًا.
انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني ٣/ ٢٠٨، الكليات، الكفوي ص ٥٥.

(٣) انظر: القاموس القويم، عبد الفتاح إبراهيم ٢/ ٤٦.





عناصر الموضوع

مفهوم الغرور

أولًا: المعنى اللغوي:

تعددت المعاني اللغوية لمادة غرر، ومن ذلك:

الغرور، بفتح الغين المعجمة الذي يغر، وهو ما اغتر به من متاع الدنيا، ويأتي بمعنى الباطل[(١)]، والخداع، يقال: «(غره) يغره بالضم (غرورًا) خدعه»[(٢)]، ويأتي أيضًا بمعنى الحمق، وسمي الأحمق بذلك؛ لأنه يغرك في أول مجلسه بتعاقله، فإذا انتهى إلى آخر كلامه تبين حمقه[(٣)].

والغرار: النقصان، ومنه: غرار النوم: قلته، ونقصان لبن الناقة[(٤)].

ويلحظ في المعاني اللغوية أنها تشترك في معنى النقص الذي لا يظهر للوهلة الأولى، حتى الخداع أو الحمق، فإنه لا يظهر كنهه وحقيقته إلا بعد انكشافه، وهما في الحقيقة نقص بمن اتصف بهما.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «الغرور: كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان»[(٥)].

وعرفه الغزالي: «سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان»[(٦)].

وقال البيضاوي: «إظهار النفع فيما فيه الضرر»[(٧)].

وقال ابن عادل: «الغرور عبارة عن الحالة التي يستحسن ظاهرها، ويحصل الندم عند انكشاف الحال فيها»[(٨)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٢- ١٣.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص ٢٢٥.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٥٤.
(٤) الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٦٨.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٠٤، وذكر هذا أيضًا الفيروزآبادى في بصائر ذوي التمييز ٤/ ١٢٩.
(٦) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ٣٧٩.
(٧) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٩٨.
(٨) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٧/ ٢٨.



الغرور في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غرر) في القرآن الكريم (٢٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩	﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:٤٩]
الفعل المضارع	٦	﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان:٣٣]
المصدر	٩	﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران:١٨٥]
اسم	٣	﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان:٣٣]

وجاء الغرور في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الغين، ص٨٤٧.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ١٢٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخداع:

الخداع لغة:

المنع، والحيلة، فالخدع: إظهار خلاف ما تخفيه، أو ما كان ظاهره خلاف باطنه[١].

الخداع اصطلاحًا:

إظهار خير يتوسل به إلى إبطان شر يؤول إليه أمر ذلك الخير المظهر، أو هو إظهار ما يخالف الإضمار، والخدعة بالضم: ما يخدع به الإنسان، كاللعبة لما يلعب به[٢].

الصلة بين الغرور والخداع:

الغرور فيه خداع، لأنه يغر الإنسان فيخدعه ويصده عن الصواب إلى الخطأ، وعن الحق إلى الباطل، وهذه مخادعة.

والغرور إيهام يحمل الإنسان على فعل ما يضره، أما الخدع فهو أن يستر عنه وجه الصواب فيوقعه في مكروه[٣].

٢ الوهم:

الوهم لغة:

من خطرات القلب، والجمع أوهامٌ، وللقلب وهمٌ، وتوهم الشيء: تخيله وتمثله، سواء أكان في الوجود أو لم يكن[٤]. وكثيرًا ما يستعمل الوهم في الظن الفاسد[٥].

الوهم اصطلاحًا:

من الوهميات، وهي قضايا كاذبة يحكم بها الوهم في أمور غير محسوسة[٦].

الصلة بين الغرور والوهم:

الغرور إيهام حال السرور فيما الأمر بخلافه، وليس كل وهم غرورًا؛ لأنه قد يوهمه أمرًا

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ١١١، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١/ ١٣٢.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٥٢.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٩.
(٤) انظر، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٤٣.
(٥) الكليات، الكفوي ص ٩٤٣.
(٦) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٥٥، مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي، ص ١٢٨.

مخوفًا ليحذر منه، فلا يكون في هذه الحال قد غره[1].

٣ الكبر:

الكبر لغة:

تدل على خلاف الصغر، والكبر: معظم الأمر، والكِبر: العظمة، وكذلك الكبرياء[2].

الكبر اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: «الكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره»[3].

الصلة بين الغرور والكبر:

الغرور نتيجة المغالاة في الكبر والفخر بغير وجه حق، والجامع بينهما الاستعلاء.

٤ العجب:

العجب لغةً:

العُجب: الزهو والكبـر، ورجلٌ معجبٌ: مزهوٌ بما يكون منه حسنًا أو قبيحًا[4].

العجب اصطلاحًا:

مسرة بحصول أمر، يصحبها تطاول به على من لم يحصل له مثله، بقول أو ما في حكمه من فعل أو ترك أو اعتقاد[5].

الصلة بين الغرور والعجب:

أقرب ما يكون العجب إلى الكبر، وهما معا يعدان مدخلا للغرور، غير أن الفرق بين الكبر والإعجاب يتجلى في كونهما قد يجتمعان في الذم ويفترقان في المعنى، فالإعجاب يكون في النفس وما تظنه من فضائلها، والكبر يكون بالمنزلة وما تظنه من علوها[6].

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٩.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٣-١٥٤.
(٣) المفردات ص٥٤٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٥٨٢.
وانظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٤٣، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٩٣، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٣١٨.
(٥) البحر الزخار، ٦/ ٤٩٠.
(٦) انظر: درر السلوك في سياسة الملوك، الماوردي ص ٦٠.

أسباب الغرور

للغرور أسباب متعددة، عرض إليها القرآن الكريم، وحث على الانتباه إليها والحذر منها؛ كي لا يكون المؤمن من أصحاب الغرور والغفلة، وفيما يأتي عرض لأهم الأسباب وفق النقاط الآتية:

أولًا: الفهم الخاطئ للدين:

حرف الكفار دينهم وأمدهم الشيطان بالأماني الكاذبة، فبدلوا وغيروا وفق أهوائهم، وافتروا على الله واختلقوا الأكاذيب، وهم بعد ذلك كله يوهمون أنفسهم أن ما اختلقوه من الباطل صواب، وأن تمنيهم على الله ينجيهم، وعن هؤلاء قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

والمعنى: غرهم وأطمعهم وثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم، من زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه[١].

وقيل: هو قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، وهي أربعون يومًا -وهن الأيام التي عبدوا فيها العجل- ثم يخرجنا منها ربنا، اغترارًا منهم. وقيل: غرهم قولهم: نحن على الحق وأنتم على الباطل[٢]، وأن الله قد وعد أباهم يعقوب أن لا يدخل أحدًا من ولده النار إلا تحلة القسم[٣].

ونتيجة لهذا الغرور الباطل توعدهم الله تعالى بالوعيد الشديد والعذاب الأليم قائلا سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

فأكذبهم الله على ذلك كله، وفي هذا تهديد لهم واستعظام لما أعد لهم في ذلك اليوم، وأنهم يقعون فيما لا حيلة لهم فيه، وإن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وطمع فيما لا يكون ولا يحصل لهم[٤].

وفي هذا تنبيه للعلماء العاملين المخلصين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن لا يشتروا بدين الله ثمنا قليلا، وأن يحفظوا على الناس دينهم، فلا يغتروا بما في أيدي الناس من متاع الدنيا فيلبسوا عليهم دينهم، وعليهم أن يتذكروا أن الله تعالى سائلهم عما ائتمنهم، ومحاسبهم على أقوالهم، ومجازيهم على أفعالهم.

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٢٠٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٩٢، تفسير ابن أبي حاتم، ٢/ ٦٢٣، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٣٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٩٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٩٢، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٣٥ .

ومن الآيات التي حذرت من التلاعب بالدين: قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١].

فهؤلاء تلاعبوا بالدين الذي شرع لهم، واتخذوه لهوًا ولعبًا، أي: أكلًا وشربًا. وقيل: هو ما زينه الشيطان لهم من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك من خصال الجاهلية[(١)].

ثانيًا: متاع الحياة الدنيا:

تشغل الدنيا قلوب الناس جميعا غير أن الناس يتفاوتون بمقدار ما تأخذ الدنيا من ألبابهم وعقولهم وأفعالهم، فمن شغلته الدنيا عن الآخرة هلك، ومن اشتغل فيها بطاعة الله واتخذها سلما للآخرة نجا، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

أي: وما لذات الدنيا وشهواتها وما فيها من زينتها وزخارفها إلا متعة يمتعكموها الغرور والخداع المضمحل الذي لا حقيقة له عند الامتحان، ولا صحة له عند الاختبار. فأنتم تلتذون بما متعكم الغرور من دنياكم ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب والمكاره، وفي هذا تحذير لكم من الركون إلى الدنيا فتسكنوا إليها، فإنما أنتم منها في غرور تمتعون، ثم أنتم عنها بعد قليل راحلون[(٢)].

فالغرور في الآية «الخدع والترجية بالباطل، والحياة الدنيا وكل ما فيها من الأموال فهي متاع قليل تخدع المرء وتمنيه الأباطيل»[(٣)].

فشبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه، وهذا لمن آثرها على الآخرة. فأما من طلب بها الآخرة فهي له متاع بلاغ»[(٤)].

أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن سابط في قوله ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال: «كزاد الراعي، تزوده الكف من التمر، أو الشيء من الدقيق، أو الشيء يشرب عليه اللبن»[(٥)].

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن موضع سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٩/ ١٦٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٢٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٥٣.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٥٠.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٥٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٥٣.

فيها، اقرءوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾»[1].

وقد حذر القرآن الكريم من الاغترار بالحياة الدنيا فقال جل شأنه مخاطبًا الناس جميعًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

يعني: «لا يغرنكم ما في الدنيا من زينتها وزهوتها، فتركنوا إليها وتطمئنوا بها وتتركوا الآخرة والعمل لها»[2].

وأرشد القرآن الكريم إلى أن الوقوع في غرور الدنيا عاقبته وخيمة ونتائجه أليمة، فبينت الآيات أن جهنم عاقبة من اغتر وغوى، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

وقد يتجاوز الغرور الكفار إلى المؤمنين، فالحياة الدنيا للكافرين والمؤمنين جميعًا غرور، فيلحق الغرور المؤمنين إذا ضيعوا أمر الله تعالى -وهي الأعمال الصالحة- وتدنسوا بالشهوات، فهم وقتئذ يشاركون الكفار في الغرور[3].

ثالثًا: أصدقاء السوء:

إن الصحبة الصالحة طريق إلى الجنة، أما المبطلون والمفسدون الذين ملكت الدنيا عليهم مجامع النفوس وشغلتهم عن علام الغيوب، فما عسى أحدهم أن يرشد خليله! وإلى أين سيأخذ بيده وناصيته؟! إنه يقوده إلى الهلاك، وإلى طريق السعير وبئس المصير.

قال تعالى: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

أي: وما يعد ﴿بَعْضُهُم﴾ وهم الرؤساء من المشركين، يعد بعضهم ﴿بَعْضًا﴾ وهم الأتباع، ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو قولهم لأتباعهم أن الأصنام تشفع لهم، وأنه لا حساب عليهم ولا عقاب[4]، وذلك تغرير من الرؤساء للأتباع، ومن السلف إلى الخلف.

أما الذين لا ينجرون وراء غرور من يعايشونهم ويخالطونهم فإنهم يسلمون من الاقتران بهم في الهاوية والعذاب الأليم يوم القيامة، وفي هذا حوار المغرورين مع المتقين يوم القيامة قبل أن يضرب الله بينهما

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بابٌ: ومن سورة آل عمران، رقم ٣٠١٣، ٥/ ٢٣٢. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٢٧، رقم ٦٦٣٥.

(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٣١.

(٣) انظر: أصناف المغرورين، الغزالي ص ٢٦.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٦١٧، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥١٤.

سورا: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

وفي الآيات تحذير من قرناء السوء، فلا يجر قرين السوء لقرينه إلا الهلاك والثبور، ثم إنه يتبرأ منه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ وعندها يتمنى التابع المتابع للرؤساء الظلمة لو أن له عودة للدنيا فيتبرأ منهم، ولكن حين لا تنفع الأماني ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

إن مجالسة أصحاب الأهواء والضلال تورث مجالسهم القسوة، وتجعله شريكا في إثم المجلس وإن لم يشاركهم الإثم، وفي هذا جاء القرآن محذرا من مجالستهم، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

رابعًا: الشيطان:

يعد الشيطان من أخطر مداخل الغرور إلى الإنسان، فهو مخادع كذاب، وكان الإغواء والغرور في مستهل جولاته مع أبي البشر آدم وحواء عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢١ - ٢٢].

فقد أقسم إبليس وحلف لهما: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ يعني: فخدعهما بغرور، يقال: ما زال فلان يدلي فلانا بغرور، يعني: ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل. ومعنى الآية أن إبليس لعنه الله غر آدم باليمين الكاذبة، وكان آدم عليه الصلاة والسلام يظن أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا، وإبليس أول من حلف بالله كاذبا، فلما حلف إبليس ظن آدم أنه صادق فاغتر به[(١)].

وذكر الأزهري لهذه اللفظة أصلين: أحدهما أن الرجل العطشان يتدلى في البئر ليأخذ الماء فلا يجد فيها ماء، فوضعت التدلية موضع الطمع فيما لا يجدي نفعا، والغرور إظهار النصح مع إبطان الغش، وهو أن إبليس حطهما من منزلة الطاعة إلى حالة المعصية؛ لأن التدلي لا يكون إلا من علو إلى أسفل، والأصل الثاني لقوله ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي: جرأهما على أكل الشجرة،

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٨٨-١٨٩ .

وأصله: دللهما من الدلال والدالة وهي الجراءة[1].

وقد حذرنا الله تعالى من غدر الشيطان وغروره قائلًا: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

قال أبو حيان: «والغرور: الشيطان بإجماع»[2]، وهو مروي عن ابن عباس ومقاتل وغيرهما، والمعنى: لا يخدعنكم بالله الشيطان، فيمنيكم الأماني، ويعدكم من الله العدات الكاذبة، ويحملكم على الإصرار على كفركم بالله[3].

قال القرطبي: «والغرور بفتح الغين: الشيطان، يغر الناس بالتمنية والمواعيد الكاذبة. قال ابن عرفة: الغرور ما رأيت له ظاهرا تحبه وفيه باطن مكروه أو مجهول. والشيطان غرور؛ لأنه يحمل على محاب النفس، ووراء ذلك ما يسوء. قال: ومن هذا بيع الغرر، وهو ما كان له ظاهر بيع يغر وباطن مجهول»[4].

والملاحظ في الآيات التحذير الشديد من الاغترار بالشيطان، فعلى الإنسان أن يخذله ويكذبه فيما يغره فيه حتى لا يكون تبعا له.

خامسًا: الأماني الباطلة:

قال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

والأماني: هي الأطماع، مثل قولهم: سيهلك محمد هذا العام. أو طول الآمال في امتداد الأعمار ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت على النفاق[5].

وقال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

«معنى وعد الشيطان ما يصل مفهومه إلى قلب الإنسان، من نحو ما يجده من أنه سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذتك، وستعتلي على أعدائك، فإنما الدنيا دول، فستدور لك كما دارت لغيرك، وكل هذا غرور وتمنية وتطويل للأمل، وسيهجم عن قريب عليه الأجل، وقد أبطل أيام عمره في رجاء ما لم يدرك منه شيئًا، فالعاقل من لم يعرج على هذا، وجدَّ في الطاعة ما أمكنه، وعلم أنه سينقطع عن الدنيا قريبًا، وعد نفسه

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ١/ ١١٤، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٨٩.
(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ١٠/ ١٠٧.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٤٤٠، جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٣٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٣٠٢.
(٥) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ١٠/ ١٠٧، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٢٠٥.

من الموتى، وصدق الله في قوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: إلا ما يغرهم بإيهام النفع فيما فيه الضر»[1].

وقال ابن جرير: «يعد الشيطان المريد أولياءه الذين هم نصيبه المفروض: أن يكون لهم نصيرًا ممن أرادهم بسوء، وظهيرًا لهم عليه، يمنعهم منه ويدافع عنهم، ويمنيهم الظفر على من حاول مكروههم والفلج عليهم»[2].

ومن المعلوم أن عدات الشيطان غرور وكذب، وأن أمانيه باطلة، حتى إذا حصحص الحق وصاروا إلى الحاجة إليه تنصل من وعوده إليهم، وفر من نصرتهم بعد أن وقعوا في وبال خداعه، عندها يقول لهم عدو الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

هذه عادة الشيطان في الإغواء والإضلال، وكذا كان حاله مع مشركي مكة قبيل معركة بدر، يُمنِّيهم الأماني الكاذبة بالنصر والظفر، ويزين لهم أعمالهم قائلا لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فلما تقابل المسلمون مع المشركين وحصحص الحق وعاين الشيطان جد الأمر ونزول عذاب الله بحزبه ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فصارت عداته -عدو الله- إياهم عند حاجتهم إليه غرورًا كالسراب، وأصبحت أمانيه إياهم باطلة[3].

سادسًا: الاغترار بإمهال الله تعالى وسعة رحمته:

يغتر الكفار كثيرًا بإمهال الله لهم وتأخيره العذاب عنهم.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]

قال الواحدي في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾: «أي: بحلم الله وإمهاله»[4].

ثم إن كثيرًا من الناس يرتكبون الذنوب ويغترون بعفو الله تعالى وصفحه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

قال الزجاج: «أي ما خدعك وسول لك

(١) التفسير البسيط، الواحدي ٧/ ١٠٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٢٤.
(٣) انظر: المصدر السابق ٩/ ٢٢٥.
(٤) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٧.

حتى أضعت ما وجب عليك»؟![1].

والمعنى: أي شيء غرك وجرأك وسول لك حتى ارتكبت ما ارتكبت بحق ربك الكريم الذي تجاوز عنك في الدنيا ولم يعاقبك؟![2].

«وقرأ ابن جبير والأعمش: «ما أغرك»، فاحتمل أن تكون استفهامية، وأن تكون تعجبية، ومعنى «أغره»: أدخله في الغرة، أو جعله غارًّا»[3].

وإنما قال (ما غرك بربك الكريم) لطفًا بعبده، وتلقينًا له حجته وعذره ليقول: غرني كرم الكريم. وقال الفضيل: لو سألني الله تعالى هذا السؤال لقلت: غرني ستورك المرخاة. وروي أن عليًّا صاح بغلام له مرَّات فلم يلبه، ثم أقبل فقال له: مالك لم تجبني؟ فقال: لثقتي بحلمك وأمني عقوبتك. فاستحسن جوابه وأعتقه[4].

ويستفاد من الآية أنه يجب على المرء أن لا يغتر بكرم الله تعالى وعفوه وسعة رحمته وتفضله بالإنعام على عباده، فيرتكب المعاصي والذنوب ركونا إلى عفوه وغفرانه، فإن ذلك كفر للنعمة وخروج عن الحكمة في مقابلة المن والعطاء بالجحود والكفران، فمن فعل فمصيره الهلاك والخسران.

ومن غرور كفار أهل الكتاب طمعهم بمغفرة الله تعالى ورضوانه، وقولهم: سيغفر لنا. وادعاؤهم أنهم أحباب الله وأبناؤه، وأن الله لن يعذبهم بذنوبهم، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، ومنه: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

أي: تلك أمانيهم التي تمنوها على الله باطلًا[5].

وقد يطال الاغترار بإمهال الله تعالى وسعة رحمته عصاة المؤمنين لقولهم: إن الله غفور رحيم. وإنما يرجى عفوه فاتكلوا على ذلك وأهملوا الأعمال، وذلك من قبيل الرجاء، واتكؤوا على أن رحمة الله واسعة ونعمته شاملة وكرمه عميم، وإنهم موحدون يرجوه بوسيلة الإيمان والكرم والإحسان[6].

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٩٥.
(٢) انظر: تفسير السمعاني ٦/ ١٧٣، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤١٠.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ١٩٦.
(٤) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازي، ص ٥٦٢.
(٥) التفسير البسيط، الواحدي ٣/ ٢٤٥.
(٦) انظر: أصناف المغرورين، الغزالي ص ٢٩، إحياء علوم الدين، الغزالي، ٣/ ٣٨٤.

مظاهر الغرور

بين القرآن الكريم مظاهر الغرور ومعظمها يندرج تحت البعد عن الدين والاغترار بالحياة الدنيا وزينتها وزخرفها، وتتجلى صفة الغرور في فتنة الدنيا كونها لذة سريعة الزوال لا دوام فيها ولا بقاء، فينخدع الإنسان بها ويفتتن ببهائها وزينتها ثم إنها سرعان ما تزول وكأنها لم تكن، ومن هذه المظاهر:

أولًا: التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد:

ما أن يعي الإنسان على الدنيا إلا ويكبر معه هم جمع المال وإنجاب الأبناء ذكورهم قبل إناثهم، حتى إن نظرة الرجل لإنجاب الذكور هي استمرار لتعلقه في الدنيا بعد موته، باعتبار أنهم من سيحملون اسمه، غير أن المال والولد كدمى الأطفال التي يلهون بها ساعة ثم يتركونها، وكذا المال والولد ومفاتن الدنيا يوم القيامة، فإنها إن كانت في طاعة تنفع يوم الشفاعة، وإن كان في معصية زالت لذتها وبقيت حسرتها.

قال تعالى: ﴿ اَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

جاءت هذه الآية في أعقاب آية سابقة لها تحث على الصدقة وتحرض على الإنفاق، ومناسبتها لما قبلها دحض سبب الشح المتمثل في الحرص على استبقاء المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا، فضرب لهم مثل الحياة الدنيا بحال محقرة على أنها زائلة تحقيرا لحاصلها وتزهيدا فيها؛ لأن التعلق بها يعوق عن الفلاح[١].

والمعنى في الآية: «اعلموا أيها الناس إن متاع الحياة الدنيا المعجلة لكم ما هي إلا لعب ولهو تتفكهون به، وزينة تتزينون بها، وتفاخر بينكم، يفخر بعضكم على بعض بما أولى فيها من رياشها، ويباهي بعضكم بعضا بكثرة الأموال والأولاد»[٢].

وقد ضرب الله تعالى للدنيا مثلًا آخر، وهو مثل مطر نزل من السماء فنبت به الزرع، ففرح الزارع بنباته، ويقال:(أعجب الكفار) يعني: الكفار بالله، لأنهم أشد إعجابًا بزينة الدنيا من المؤمنين، ثم إن هذا الزرع ييبس فيتغير فتراه مصفرًّا بعد خضرته ثم يكون يابسًا وحطامًا هالكًا، وكذا متاع الحياة الدنيا[٣].

قال سعيد بن جبير: «الغرة من الله أن يصرَّ العبد في معصية الله ويتمنى على الله

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٠٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٩٣.
(٣) تفسير السمرقندي ٣/ ٤٠٨.

في ذلك، والغرة في الدنيا أن يغتر بها وأن تشغله عن الآخرة أن يمهد لها ويعمل لها، وأما متاع الغرور فهو ما يلهيك عن طلب الآخرة، فهو متاع الغرور، وما لم يلهك فليس بمتاع الغرور، ولكنه متاع بلاغٍ إلى ما هو خيرٌ منها»[1].

وعلى هذا فالحياة الدنيا غير مذمومة، بل المراد أن من صرف هذه الحياة الدنيا لا إلى طاعة الله بل إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى، فذاك هو المذموم[2].

وهذا شأن النفوس المريضة، إذا أنعم الله عليها صاحبها الغرور والبطر، وإذا أبليت قابلت البلاء بالضجر.

فيا عجبًا من إنسان إذا أنعم الله عليه أُعجب بنفسه، وتكبر مختالًا في زهوه، لا يشكر ربه، ولا يذكر فضله، ويتباعد عن بساط طاعته[3]، ثم هو يغتر بما رزقه بدلاً من شكره، فيفتري على الله بقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]!

ثانيًا: رد النصيحة، والجدال بالباطل:

ينظر المغرور إلى نفسه نظرة إعجاب، ويظن أن الحق ما قال ولا سواه، وأن الصواب ما فعل ولا يصح غيره، فلا يسمع الحق من أصحاب الحق، لأن غروره عمى قلبه وبصره، فهو يجادل في آيات الله، ولا يقبل نصيحة من أحد ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ۝٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٤-٥].

أي: يماري في آيات الله ويخاصم بهوى نفسه وطبع جبلة عقله[4].

والملاحظ في الآيتين أن الجدل في الآيات جاء بعده عدم قبول النصيحة من الأنبياء، ومن ثم تكذيبهم، وهذا بسبب الغرور بالباطل.

وكذا كان موقف الأمم التي غرها في دينها ما كانت تعبد من دون الله، فلم تقبل نصح أنبيائها، قال قوم نوح لنبيهم: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤﴾ [هود: ٣٢ - ٣٤].

والنصح: «إخلاص العمل عن الفساد. وقيل: إنه بيان موضع الغي ليجتنب، وبيان

(١) انظر: الزهد، نعيم بن حماد ٢/ ٣٥، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٩٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٦٣.
(٣) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٣٣٨.
(٤) تفسير التستري ص١٩.

موضع الرشد ليطلب»[1].

وقال صاحب المنار: «النصح تحري الصلاح والخير للمنصوح له والإخلاص فيه قولًا وعملًا، والمعنى: إن نصحي لكم لا ينفعكم بمجرد إرادتي له فيما أدعوكم إليه، وإنما يتوقف نفعه على إرادة الله تعالى، وقد مضت سنته تعالى بما عرف بالتجارب أن نفع النصح له شرطان أو طرفان، هما الفاعل للنصح والقابل له، وإنما يقبله المستعد للرشاد، ويرفضه من غلب عليه الغي والفساد بمقارفة أسبابه من الغرور بالغنى والجاه والكبر»[2].

وعلى شاكلة قوم نوح كان قوم صالح، فلم يتعظوا بنصحه لهم وقالوا لنبيهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ [الأعراف: ٧٧-٧٩].

ثالثًا: البغي والاستكبار:

البغي: التعدي، وبغى الرجل على الرجل: استطال. وبغت السماء: اشتد مطرها، وبغى الوالي: ظلم، وكل مجاوزة في الحد وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء فهو بغي[3]، والبغي في عدو الفرس اختيال ومرح[4].

وأما التكبر والاستكبار فهما بمعنى التعظم[5].

ومن معاني الاستكبار: «أن يتشبع المرء فيظهر من نفسه ما ليس له، وهو مذموم، ومنه ما ورد في القرآن نحو ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]»[6].

والمعنيان السابقان للبغي والاستكبار يلتقيان مع الغرور في كون الغرور يشمل كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة، وكونه سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، وما البغي والاستكبار إلا متابعة للنفس على هواها وتحقيق لنزواتها ومبتغاها فيما يستحسن ظاهره، ويحصل الندم عند انكشاف الحال فيه، وكذا هو الغرور.

والملاحظ أن التضرع إلى الله يكون في حال الشدة والبلاء، أما في حال الخير والرخاء فإننا نجد عند كثير من الناس الكبر والبغي والبطر والغرور.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ

(١) تفسير السمعاني ٢/ ٤٢٦.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ٥٩.
(٣) الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٨١.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٧٩، البارع في اللغة، أبو علي القالي، ص٤٣٧.
(٥) مختار الصحاح، الرازي ص٢٦٥.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٤٩.

﴿أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣].

والبغي العمل في الأرض بالفساد وبالمعاصي، من بغى الجرح إذا فسد، وأصله الطلب، أي: يطلبون الاستعلاء بالفساد. ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالتكذيب، ومنه بغت المرأة بغاءً إذا فجرت فطلبت غير زوجها[١].

وقيل في معنى البغي أيضا أنه: «الكبر، وقيل: هو الظلم. وقيل: الحقد. وقيل: التعدي. وحقيقته: تجاوز الحد، فيشمل هذه المذكورة ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر، وإنما خص بالذكر اهتمامًا به لشدة ضرره ووبال عاقبته، وهو من الذنوب التي ترجع على فاعلها»[٢].

والباغي الذي اغتر بقوته وكبريائه ما يضر إلا نفسه، لأن وبال بغيه عائد إليه، فقد يمتع ببغيه متاع الحياة الدنيا ثم يعود إليه وبال بغيه في الدنيا وفي الآخرة أيضا، وفي الآية إيماء إلى أن البغي مجزي عليه في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلقوله: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾، ولما جاء في الحديث: (ما من ذنبٍ أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم)[٣]، وأما في الآخرة فكفى دلالة على ذلك ما أفادته الآية من التهديد والوعيد.

والخلاصة: إن البغي -وهو أشنع أنواع الظلم- يرجع على صاحبه؛ لما يولد من العداوة والبغضاء بين الأفراد، ولما يوقد من نيران الفتن والثورات في الشعوب، فمن يبغى على مثله تجده قد خلق له عدوًّا أو أعداءً ممن يبغي عليهم[٤].

ومن صور البطر والغرور بدلا من الحمد والشكر غرور قارون الذي ظن أن ما أوتيه بفضل منه لا تفضلا من المنعم، ويلحق به أيضا اغترار قوم قارون بما أوتيه قارون: قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: ٧٦].

﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أي: بكثرة ماله، كأنه جاوز الحد بالتكبر والتجبر عليهم، فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره، أو ظلمهم[٥].

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٢٦.
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ٧/ ٣٠٣.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب النهي عن البغي، رقم ٤٩٠٢، ٧/ ٢٦٣، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٦٦٥.
قال الترمذي: هذا حديثٌ صحيحٌ.
(٤) انظر: تفسير المراغي ١١/ ٩١.
(٥) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١٧/ ٤٤٧، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٨٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٣.

رابعًا: الاستهزاء بآيات الله تعالى:

إن هؤلاء استهزؤوا بآيات الله لأنهم اغتروا في الحياة الدنيا، فهم طمعوا في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال وقوة الجاه، فاشتدت رغبتهم في هذه الأشياء، وأصبحوا محجوبين عن طلب الدين غارقين في طلب الدنيا؛ فاتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا[1].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥١].

«يعني: أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم ولهوا عنه، وأصل اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. ويقال: لهوت بكذا ولهيت عن كذا أي: اشتغلت عنه»[2].

وقد اتخذ المشركون اللهو واللعب دينًا لأنفسهم، وهو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة وأخواتها، والمكاء والتصدية حول البيت، وسائر الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية. وخدعهم عاجل ما هم فيه من خصب العيش ولذته، وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الإيمان بالله ورسله، وعن الأخذ بنصيبهم من الآخرة حتى أتتهم المنية على ذلك. والغرة غفلة في اليقظة، وهو طمع الإنسان في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات، فإذا حصل ذلك صار محجوبا عن الدين وطلب الخلاص؛ لأنه غريق في الدنيا بلذاته[3].

قال ابن عباس: «وذلك أنهم كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا ممن دعاهم إليه وهزؤوا به اغترارًا بالله»[4].

وعلى شاكلة آية الأعراف السابقة كانت آية الجاثية، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

والمعنى: «ذر هؤلاء الذين اتخذوا دين الله وطاعتهم إياه لعبًا ولهوًا، فجعلوا حظوظهم من طاعتهم إياه اللعب بآياته، واللهو والاستهزاء بها إذا سمعوها وتليت عليهم، فأعرض عنهم، فإني لهم بالمرصاد، وإني لهم من وراء الانتقام منهم والعقوبة لهم على ما يفعلون، وعلى اغترارهم بزينة الحياة الدنيا ونسيانهم المعاد إلى الله تعالى

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٩/ ١٣٥.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٠٥.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٠٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٩٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٧٥.

ذكره والمصير إليه بعد الممات»[1].

قال ابن عباس: «يعني: الكفار الذين إذا سمعوا آيات الله استهزؤوا بها وتلاعبوا عند ذكرها»[2].

وقال مقاتل: «اتخذوا دينهم الإسلام لعبًا، يعني: باطلًا ولهوًا عنه»[3].

خامسًا: الانغماس في الشهوات والشبهات:

إن الركون إلى الدنيا ومفاتنها وشهواتها يعد المدخل الرئيس للانزلاق في الشبهات والتزوير في العقائد رجاء موافقة الهوى، فالفتنة مقدمة للغرور.

وقال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

يعني: ينادي المنافقون المؤمنين من وراء ذلك السور حين حجز بينهم وبقوا في الظلمة ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: في الدنيا نصلي ونصوم، ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: أهلكتموها بالنفاق والكفر واستعملتموها في المعاصي والشهوات، وكلها فتنة، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: بالإيمان والتوبة، وقيل: تربصتم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقلتم: يوشك أن يموت فنستريح منه، ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم في نبوته وفيما أوعدكم به ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أي: الأباطيل، وذلك ما كنتم تتمنون من نزول الدوائر بالمؤمنين ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني: الموت، وقيل: هو إلقاؤهم في النار، وهو قوله تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يعني الشيطان، قال قتادة: ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار[4].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١].

«يعني أنهم تلاعبوا بدينهم الذي شرع لهم ولهوا عنه. وأصل اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه»[5].

سادسًا: التسويف والأماني الباطلة:

قال ابن الجوزي: «فمن الناس من يغره تأخير العقوبة، ومنهم من كان يقطع بالعفو، وأكثرهم متزلزل الإيمان، فنسأل الله أن يميتنا مسلمين»[6].

فالكفار كانوا يسوفون ويؤخرون في توبتهم إلى الله، ويمنون أنفسهم بعفوه وغفرانه.

(١) المصدر السابق ١١/ ٤٤١.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٨/ ٢١٤.
(٣) تفسير السمرقندي ١/ ٤٥٨.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٤٩.
(٥) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٩/ ١٦٠، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٠٥.
(٦) صيد الخاطر، ابن الجوزي ص٤٠٢.

وقال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

قال الزمخشري: «﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وغركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم»[١].

فهذا خداع من الشيطان بإمهال الله للإنسان وحلمه عليه، وأن هذا الإمهال مدعاة للرضا عنهم وعدم إنزال العذاب عليهم.

قال الطبري: «خدعكم بالله الشيطان، فأطمعكم بالنجاة من عقوبته والسلامة من عذابه»[٢].

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٧٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٨٥.

عاقبة الغرور

بين القرآن الكريم عاقبة الغرور، وبيانها في النقاط الآتية:

أولًا: الاستدراج:

الاستدراج هو الإمهال والتأخير إلى أجل، فإن الله تعالى قد يعطي الكفار من الدنيا مع جحودهم وشركهم ما لا يعطيه للمؤمنين، ومن هنا جاء الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد به أمته: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝١٩٦ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧].

والمراد تصرفهم في التجارات والمكاسب، أي: لا يغرنكم أمنهم على أنفسهم وتصرفهم في البلاد كيف شاؤوا وأنتم معاشر المؤمنين خائفون، فإن ذلك لا يبقى إلا مدة قليلة ثم ينتقلون إلى أشد العذاب، وإنما وصفه الله تعالى بالقلة؛ لأن نعيم الدنيا مشوب بالآفات والحسرات، ثم إنه بالعاقبة ينقطع وينقضي[٣].

قال ابن كثير: «لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٧٢.

نمد لهم فيما هم فيه استدراجا»[1].

وقال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤].

فلا يغررك إمهالهم وإقبالهم في دنياهم، وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة، والتكبر والتجبر بغير حق، فإنهم مأخوذون عما قريب بكفرهم أخذ من قبلهم[2].

ثانيًا: الضلال:

لما أن كان الغرور من عمل الشيطان وتزيينه للنفوس أصبح من انساق إليه كأنما تتبع خطوات الشيطان وسار على نهجه واكتسب بعضا من صفة الغرور عنده.

قال تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠].

والإضلال: الصرف عن طريق الهداية إلى طريق الغواية، أو هو الدعاء إلى ترك الدين وتقبيحه في عينهم[3].

والملاحظ هنا أن الإغواء والتغرير الذي قام به إبليس عندما شعر بعلوه وتكبره قام به أيضا فرعون بعد أن زهت نفسه واختالت فاغتر بنفسه ودعا قومه إلى الضلال موهما إياهم أنه طريق الرشاد، وهو في الحقيقة ضلال مبين، قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩].

ولما أن كان الشيطان المصدر الرئيس للتغرير بين الناس وكان لا يصدر عن تغريره إلا الضلال تلاه أهل الباطل في تغرير بعضهم بعضًا؛ لإضلالهم عن طريق الهداية.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

ثالثًا: استحقاق العقاب:

إن العذاب الأليم مصير المغرور الذي بدل في دين الله وشك في عطائه، وظن في نفسه من الصفات ما لا تجوز إلا لله.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٩٢.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٥١.
(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ٤٧٢، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٩٦.

﴿كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

والجريمة التي اقترفها هؤلاء كما قال ابن عباس: «أنهم كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا ممن دعاهم إليه وهزؤوا به، اغترارًا بالله»[(١)].

وكان من عقوبتهم نسيان الله لهم يوم القيامة، ومعنى الآية: عن ابن عباس قال: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر، والمعنى: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا. وقال مجاهد: نتركهم في النار. وقال السدي: نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا[(٢)].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يقول للعبد يوم القيامة: (ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس، وتربع؟ فيقول: بلى، أي رب. فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني)[(٣)].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

في الآية دلالة على أنهم مأيوس من الرضا عنهم يوم الحشر بحيث يعلمون أن لا طائل في استعتابهم، فلذلك لا يشير أحد عليهم بأن يستعتبوا، وقد يكون المعنى أنهم يطردون ولا يجدون من يشير عليهم بأن يستعتبوا[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

فهؤلاء لما جعلوا اللعب واللهو دينًا أو اتخذوا دينهم الذي كان ينبغي لهم لعبًا ولهوًا فقد أسلموا أنفسهم للهلاك، أو ارتهنوها للهلاك جزاء فعلهم، وقال العوفي: أسلموا إلى خزنة جهنم[(٥)].

وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٧٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٧٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقاق، رقم ٢٩٦٨، ٤/ ٢٢٧٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٤٥.
(٥) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٨/ ٢١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٠٥.

[الأعراف: ١٦٩].

جاءت هذه الآية في حق اليهود الذين ورثوا التوراة وتابعوا أسلافهم على المعاصي وضيعوا العمل بما فيها، ومع إقدامهم على هذا الذنب العظيم يتمنون على الله الأماني الباطلة الكاذبة بأن الله سيغفر لهم، وإن وجدوا من الغد مثله حلالا كان أو حراما أخذوه وتمنوا على الله المغفرة[1].

قال مجاهد: «يعني: يأخذون ما يجدون حلالًا أو حرامًا ويتمنون المغفرة»[2].

وهذا الغرور مهلك لأنه عكس ما ينبغي للمرء أن يكون، فالمؤمن ينبغي أن يبتعد عن الذنوب وأن لا يحرص على الدنيا، ويتهم نفسه بالتقصير، ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب بين يدي الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله). ومعنى قوله: (من دان نفسه) يقول: حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة»[3].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٦٥.

(٢) انظر: تفسير مجاهد ص ٣٤٦، جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢١٢، تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٠٧، تفسير ابن زمنين ٢/ ١٥١، تفسير السمرقندي ١/ ٥٦٢.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في صفة أواني الحوض رقم ٢٤٥٩، ٤/ ٦٣٨، وابن ماجه في سننه كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم ٤٢٦٠، ٢/ ١٤٢٣ وأحمد في مسنده ٢٨/ ٣٥٠.

وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ٥٣١٩، ١١/ ٤٩٩.

وفي هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لا تخفى منكم خافيةٌ»[4].

ومن غرور الإنسان بالله تعالى ظنه أن مقامه في الجنة رغم فسقه وفجوره، قال تعالى في وصف هؤلاء: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]

ترسم هذه الآية صورة الإنسان الذي لا يميز بين عطاء الله وبلائه، فهو يحسب أن ما أوتي من نعيم الدنيا لأجل أن الله تعالى يحبه، وأن له حظوة سيأخذها إن رد إلى الآخرة.

قال سيد قطب في وصف هذا المغرور: «انتفخ في عين نفسه فراح يتألى على الله، ويحسب لنفسه مقاما عنده ليس له! وهو غرور، عندئذ يجيء التهديد في موضعه لهذا الغرور: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهذا الإنسان

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧/ ٩٦.

إذا أنعم الله عليه استعظم وطغى وأعرض ونأى بجانبه، فأما إذا مسه الشر فيتخاذل ويتهاوى ويصغر ويتضاءل»[1].

فهو لما ظن أن له الحسنى في الآخرة قاس أمر الآخرة على أمر الدنيا[2].

علاج الغرور

من رحمة الله تعالى بنا أن أبان لنا في كتابه الكريم الداء وأتبعه بالعلاج الذي فيه الشفاء، فآيات القرآن الكريم تزخر في المقابلات بين الخير والشر، الإيمان والكفر، والنفقة والبخل، والجنة والنار، وفي ذلك إرشاد للمرء بأن يختار ما هو أهدى سبيلًا.

أولًا: الإيمان بأن الله تعالى هو المنعم:

إذا علم المرء أن المنعم هو الله وأن ما به من نعمة فمن الله فإنه يخضع لله ويتواضع له، ويعلم أن المال والولد والدنيا بكل زينتها ومفاتنها وبهارجها هي من الله، وأن زوالها بيد الله، حينها لا يسع الإنسان إلا الشكر للمنعم، فبالشكر تدوم النعم، أما الكبر والغرور فعاقبته الخذلان والخسران، وقد بين الله لنا أن متاع الدنيا إلى زوال، وأن ثمار عدم الاغترار بها المغفرة من الله والرضوان.

قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وإن من أعظم الفتن التي يتعرض لها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٢٩.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٤٢.

المغرور أن يظن أن ما به من نعمة هي من نفسه حازها بعلمه وحوله وقدرته لا بقدرة المنعم سبحانه، فهذا قارون الذي أصابه الغرور بما آتاه الله، أنكر الواهب وتعلق بأوهام النفس قائلًا: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].

وصاحب الجنة الذي حدثتنا عنه سورة الكهف ظن أن أمر بقاء جنته بيده وتغافل عن الله قائلًا: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥].

بل وصل الغرور في فرعون أن يظن نفسه إلها، وأن ما تحت ملكه من خيرات وجنان هي من تدبيره ورعايته، فنسي المنعم سبحانه وقال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

وشأن الإنسان بشكل عام أنه في الخيرات والنعم يغفل عن المنعم، وعند الضيق والكربات يتوجه إلى الله تعالى مقرا بذنبه راجيًا عفوه كي يذهب عنه ما ألم به من بلاء ويكشف عنه السوء.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٥٠ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٥١﴾ [الزمر: ٤٩ - ٥١].

يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسه ضر من مرض أو شدة أو كرب يلح في الدعاء، فإذا كشف الله ضره وأزال مشقته عاد بربه كافرًا ولمعروفه منكرًا قائلًا: إنما أوتيته علم من الله، إني له أهل، وإني مستحق له، لأني كريم عليه. أو على علم مني بطرق تحصيله.

وقد بين الله أن هذه فتنة يبتلي بها عباده لينظر من يشكره ممن يكفره، أما أهل الغرور فيعدون الفتنة منحة، ويشتبه عليهم الخير المحض بما قد يكون سببًا للخير أو للشر، ولا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقًّا، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا، فما أغنى عنهم ما كسبوا.

ولما ذكر تعالى أنهم اغتروا بالمال وزعموا بجهلهم أنه يدل على حسن حال صاحبه أخبرهم تعالى أن بسط الرزق وقبضه لا يرجع لعلمهم، وأن مرجع ذلك عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبيده، فقد يضيق عليهم الرزق لطفا بهم، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيا في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم[١].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٢٧.

ثانيًا: التزود بالتقوى:

التقوى علاج كل علة، وسلاح المؤمن على مر الأزمان، وسد منيع في وجه الشيطان، فلا ينفذ الشيطان إلى نفس التقي فيسول له الكبر والغرور، وقد أوصى الله بها عباده جميعا، وخص المؤمنين بها، فهي سبيل النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٥].

يعني: من يصبر على طاعة الله تعالى، ويصبر على المصائب، وعن المعاصي، ييسر الله عليه أمره، ويوفقه ليعمل على طاعتة، ويعصمه عن معاصيه[1].

ومجمل دعوى الأنبياء تقوم على توحيد الله تعالى وتقواه، فمعظم الأنبياء أوصوا أقوامهم بالتقوى، وبينوا لهم أن ما هم فيه من النعم من مال ومصانع وبنيان وأولاد؛ إنما هو بمشيئة رب السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشعراء: ١٢٤ - ١٣٦].

وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فخروا، واستكبروا، وأصابهم الغرور فقالوا على غرار قول فرعون وقارون: (من أشد منا قوةً)، واستعملوا قوتهم في معاصي الله، وفي العبث والسفه، فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك، وأمرهم بالتقوى[2].

والآيات في سورة الشعراء فيها تسلسل واضح بأن الأمر بالتقوى دأب الأنبياء مع أقوامهم، فبعد ما سبق من الآيات في شأن هود مع قومه، تلتها آيات مشابهة في المضمون تعرض موقف صالح مع قومه ودعوته لتقوى الله وعدم الاغترار بأمر

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٤٦، تفسير السمرقندي ٣/ ٤٦٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٥٦.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٩٥.

المسرفين قائلا لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٠ - ١٥١].

قال السعدي: «أي: الذين وصفهم ودأبهم الإفساد في الأرض بعمل المعاصي والدعوة إليها إفسادًا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون لأنه شر محض وكأن أناسا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم موضعون في الدعوة لسبيل الغي، فنهاهم صالح عن الاغترار بهم»[١].

ثالثًا: عدم اتباع خطوات الشيطان:

وسوسة الشيطان عبارة عن الخواطر التي يجدها الإنسان في قلبه، وفاعل هذه الخواطر هو الله تعالى، وهو المحدث لها في باطن الإنسان، وإنما الشيطان كالعرض، والله هو المقدر له على ذلك[٢].

ومع أن الله تعالى مكن الشيطان من الوسوسة إلا أنه لم يجعل له سلطانًا على الإنسان، إنما هو قرين يوسوس له ويزين المنكر والباطل، ففي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم)[٣].

ولما أن كان الشيطان من أهم أسباب دخول الغرور إلى نفس الإنسان، فقد نهي الإنسان من تتبع خطواته، لأن اتباعه طلب للفحشاء والمنكر:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ - ١٦٩]

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]

وقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

يعني: لا تتبعوا آثاره ومسالكه ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يعني بالقبائح من الأقوال والأفعال وكل ما يكره الله عز وجل والآية عامة في حق كل أحد[٤].

وإن من أسباب النجاة عدم مجالسة المغرورين الذين غرهم الشيطان فأصبحوا عونا له وجندا من جنوده، وقد نهى الله تعالى نبيه عن مجالستهم وهم يخوضون في منكرهم مبينا أن الشيطان له الدور الأكبر

(١) المصدر السابق ص ٥٩٦.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ١٠١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، رقم ٢٠٣٨، ٣/ ٥٠.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٨٩.

في جر الناس إلى مجالس الباطل قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

يخوضون في آياتنا في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك فأعرض عنهم فلا تجالسهم وقم عنهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره فلا بأس أن تجالسهم حينئذ وإما ينسينك الشيطان وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم.

أي: يخوضون في آيات الله بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تجالسهم وقم عنهم. ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهي[١]. وقرأ ابن عامر: (يُنَسِّيَنَّكَ) بالتشديد[٢].

رابعًا: الاتعاظ بمصارع المغرورين:

دعانا القرآن الكريم للسير في الأرض والنظر في مصارع الغابرين لا للتسلية والتأكد من الخبر؛ بل لأخذ المواعظ والعبر. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٨٢، يوسف:١٠٩].

أفلم يسيروا فيدركوا أن مصير أسلافهم من المكذبين والغاوين كمصيرهم، وأن سنة الله الواضحة الآثار في آثار الغابرين ستنالهم.

فتدبروا سنن الله في الغابرين؟ أفلا تعقلون فتؤثروا المتاع الباقي على المتاع القصير؟[٣].

إن قارون لما أن اغتر بماله زاعمًا أن ما أوتيه بعلم من عنده، وخرج على قومه في زينته متباهيًا مغرورًا اغتر قومه بزينته قائلين: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٨ – ٧٩].

فماذا كانت العاقبة قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١)﴾

«فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وازينت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثاثه، ومتاعه»[٤].

ولما جاء العذاب لم يكن ينفع قارون جماعة أو أقارب أو أصدقاء أو جنود، لم

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٦٧.
(٢) حجة القراءات، ابن زنجلة ص ٢٥٦، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٢٥٩.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٣٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٢٤.

يكن له عاصم من أمر الله فجاءه العذاب، فما نفعه مال ولا جاه فكان من المهلكين.

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨١ - ٨٢].

أما موقف المغرورين بزينته من قومه، فقد اتعظوا وبتفكير يسير علموا أن القليل الدائم خير من الزينة التي سرعان ما تذهب وتذهب أهلها معها، فمع سقوط قارون وهلاكه هوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس وردتهم الضربة القاضية إلى الله وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال.

وقف قوم قارون -الذين اغتروا بماله بالأمس- يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، ولم يؤتهم ما آتى قارون. وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة. وأيقنوا أن الثراء ليس آية على رضي الله. فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضا والغضب. ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف. إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء. وعلموا أن الكافرين الذين يغترون بالنفس والمال لا يفلحون[(١)].

وأما الغرور على صعيد الجماعات والأقوام فهو كثير في الأمم الغابرة، ومنه غرور قوم هود عليه السلام، فقد اغتروا بقوتهم وصدوا عن دعوة رسولهم، «فبعث الله إليهم هودًا نبيًّا وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم حسبًا، فأمرهم أن يوحدوا الله ويكفوا عن ظلم الناس لم يأمرهم بغير ذلك، فكذبوه وقالوا من أشد منا قوةً، وبنوا المصانع وبطشوا بطشة الجبارين»[(٢)].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥ -١٦].

«والاستكبار: المبالغة في الكبر، أي: التعاظم واحتقار الناس، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل: استجاب، والتعريف في الأرض للعهد، أي: أرضهم المعهودة. وإنما ذكر من مساويهم الاستكبار لأن تكبرهم هو الذين صرفهم عن اتباع رسولهم وعن توقع عقاب الله.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ زيادة تشنيع لاستكبارهم، فإن الاستكبار لا يكون بحق إذ لا مبرر للكبر بوجه من الوجوه لأن جميع الأمور المغريات بالكبر من العلم والمال

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧١٣.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٠٤.

والسلطان والقوة وغير ذلك لا تبلغ الإنسان مبلغ الخلو عن النقص وليس للضعيف الناقص حق في الكبر، ولذلك كان الكبر من خصائص الله تعالى. وهم قد اغتروا بقوة أجسامهم وعزة أمتهم وادعوا أنهم لا يغلبهم أحد، وهو معنى قولهم: من أشد منا قوة، فقولهم ذلك هو سبب استكبارهم؛ لأنه أورثهم الاستخفاف بمن عداهم، فلما جاءهم هود بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم فكذبوا رسولهم، فلما كان اغترارهم بقوتهم هو باعثهم على الكفر وكان قولهم: من أشد منا قوة دليلا عليه خص بالذكر»[1].

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ هذا تفسير الصاعقة التي أرسلها عليهم، أي: ريحًا باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب.

﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ قيل: باردات. وقيل: متتابعات. وقيل: شداد.

﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾ أي: لكي نذيقهم ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: العذاب بالريح العقيم، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أي: أعظم وأشد، ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[2].

ثم كانت عاقبة المتقين غير عاقبة المغرورين قال الله تعالى عن المتقين الذين استجابوا لدعوة نبيهم، ولم تفتنهم قوة أجسامهم، ولا وفرة أموالهم، ولا كبرياء نفوسهم: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨].

قال الطبري: «فأما عادٌ قوم هود ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على ربهم وتجبروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تكبرًا وعتوًّا بغير ما أذن الله لهم به»[3].

وفي تفصيل أكثر لغرور قوم هود جاء في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٣٥].

ولما لم يستجيبوا لنبيهم قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩].

قال الطبري: «فأهلكنا عادا بتكذيبهم رسولنا. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول تعالى ذكره: إن في إهلاكنا عادا بتكذيبها رسولها،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٥٦.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٤٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٤٤.

لعبرة وموعظة لقومك يا محمد، المكذبيك فيما أتيتهم به من عند ربك»[1].

وفي الآيات، السابقة من عاقبة المغرورين ما يغني عن الشرح والبيان فإن من عرف الله تعالى لا يأمن مكر الله ومن نظر إلى فرعون وهامان وثمود وماذا حل بهم علم أنه لا مجال في هذه الحياة الدنيا للمغرورين[2].

خامسًا: الزهد في الدنيا:

الزهد يصرف النفس عن شهواتها، ويعافيها من أسقامها، ويصحح سلوكها واعتقادها، ويورث النفس الأدب مع الله، والتواضع مع العباد، فحين يزهد المرء في الدنيا ويعلم أن ما فيها نعيم زائل وأن الذي يدوم ما أعده الله للصابرين، فإنه لا يغتر بكل مفاتنها ويقدم مغفرة الله ورضوانه على كل المتاع الزائل.

قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

«﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: مدة الحياة في هذه الدار الدنيا وإنما أراد من صرف حياته في غير طاعة الله فحياته مذمومة، ومن صرف حياته في طاعة الله فحياته خير كلها.

ثم وصفها بقوله: ﴿لَعِبٞ﴾ أي: باطل لا حاصل له كلعب الصبيان.

﴿وَلَهۡوٞ﴾ أي: فرح ساعة ثم ينقضي عن قريب.

﴿وَزِينَةٞ﴾ أي: منظر يتزينون به.

﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ يعني إنكم تشتغلون في حياتكم بما يفتخر به بعضكم على بعض.

﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ أي: مباهاة بكثرة الأموال والأولاد، وقيل: بجمع ما لا يحل له فيتطاول بماله وخدمه وولده على أولياء الله تعالى وأهل طاعته.

ثم ضرب لهذه الحياة مثلا فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ﴾ أي: الزرَّاع، إنما سمي الزرَّاع كفارًا؛ لسترهم الأرض بالبذر.

﴿نَبَاتُهُۥ﴾ أي: ما نبت بذلك الغيث.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: ييبس ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ أي: بعد خضرته ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ أي: يتحطم ويتكسر بعد يبسه ويفنى.

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ أي: لمن كانت حياته بهذه الصفة.

قال أهل المعاني: زهد الله بهذه الآية في العمل للدنيا، وهذه صفة حياة الكافرين وحياة من يشتغل باللعب واللهو، ورغب

(١) المصدر السابق ١٩/ ٣٧٩.
(٢) أصناف المغرورين، الغزالي ص ٢٨.

في العمل للآخرة بقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي: لأوليائه وأهل طاعته.

وقيل: عذاب شديد لأعدائه، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه؛ لأن الآخرة إما عذاب وإما جنة.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: لمن عمل لها ولم يعمل للآخرة، فمن اشتغل في الدنيا بطلب الآخرة فهي له بلاغ إلى ما هو خير منه، وقيل: متاع الغرور لمن لم يشتغل فيها بطلب الآخرة»[1].

وجاء في سورة يونس تصوير مشابه لآية الحديد السابقة حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

أي: إنما مثل ما تباهون في الدنيا وتفاخرون به من زينتها وأموالها، مع ما قد وكل بذلك من التكدير والتنغيص وزواله بالفناء والموت كمطر أرسله الله من السماء إلى الأرض فنبت بذلك المطر أنواعٌ من النبات، مختلطٌ بعضها ثم ييبس ويفنى، فكذلك يأتي الفناء على ما تباهون به من دنياكم وزخارفها، فيفنيها ويهلكها كما أهلك أمرنا وقضاؤنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها، حتى صارت كأن لم تغن بالأمس، كأن لم تكن قبل ذلك نباتًا على ظهرها[2].

ويعطي القرآن الكريم مثالًا حيًا لمن ملكت الدنيا قلبه، وشغلته عن الآخرة وظن أن الدنيا باقية له في قصة صاحب الجنة الذي نصحه صاحبه المؤمن غير أنه لم يرعوي، فماذا كانت النتيجة.

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤١ - ٤٥].

وبعد أن قص القرآن الكريم علينا قصة ذلك المغرور بين لنا مثل الحياة الدنيا على الوجه الذي سبق بيانه في الآيتين السابقتين، ووجه التناسب بين قصة صاحب الجنة وبين الكلام عن تصوير سرعة ذهاب الحياة الدنيا أن الدنيا لا متعلق فيها لأحد، وأنه لا ينبغي لعاقل أن يتشبث فيها، ومن التناسب

(١) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٥٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٥- ٥٦.

أيضا أن الآية التي تليها تتكلم عن زينة المال والأولاد، وأنهما زينة الحياة الدنيا وترشد إلى الالتفات إلى الباقيات الصالحات، ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

ومن جمال التناسب أيضا أن ما ولي هذه الآيات كان الكلام فيه عن الحشر والعرض والحساب يوم القيامة، في لفتة تنقل الإنسان من متاع زائل إلى يوم الخلود والبقاء.

سادسًا: تذكر الموت:

إن تذكر الموت يثني الإنسان عن الاغترار في كل متاع زائل، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكثروا ذكر هادم اللذات)، يعني الموت[1].

وقد اقترن ذكر الموت مع تذكير الله تعالى للناس بأن الدنيا متاع الغرور، وذلك حتى يعلم الإنسان إذا تعلقت نفسه في الدنيا أنه ميت وأن أيامه في الدنيا معدودة فلا يغتر بها ويستعد للقاء الله.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥].

لا بد من أن يستقر في النفس حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل ثم تأتي نهايتها حتما يموت الصالحون ويموت الطالحون. يموت المجاهدون ويموت القاعدون. يموت المستعلون بالعقيدة ويموت المستذلون للعبيد. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص.

الكل يموت كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة لا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾

إنها متاع، ولكنه ليس متاع الحقيقة، ولا متاع الصحو واليقظة إنها متاع الغرور. المتاع الذي يخدع الإنسان فيحسبه متاعًا. أو المتاع الذي ينشئ الغرور والخداع! فأما المتاع الحق. المتاع الذي يستحق الجهد في تحصيله فهو ذاك هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار. وعندما تكون هذه الحقيقة قد استقرت في النفس. عندما تكون النفس قد أخرجت من حسابها حكاية الحرص على الحياة -إذ كل نفس ذائقة الموت على كل حال- وأخرجت من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم ٤٢٥٨، ٢/١٤٢٢، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح رقم ١٦٠٧، ١/٥٠٤.

حسابها حكاية متاع الغرور الزائل. عندئذ يحدث الله المؤمنين عما ينتظرهم من بلاء في الأموال والأنفس[1].

وفي آية الأنبياء قرن الله تعالى تذكير الناس بالموت بمسألة الابتلاء، وأعقبه تذكير الناس بالرجوع لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ربما لأن الموت ابتلاء لأقارب الميت من الأحياء، والتذكير بالرجعة إليه حتى ينزع الدنيا من قلوب العباد، فهو موت ثم رجعة إلى الله، فماذا بقي من نعيم الدنيا؟.

موضوعات ذات صلة:

الاستكبار، الشيطان، العجب

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٣٨- ٥٣٩.



غزوات الرسول مع اليهود

عناصر الموضوع

المجلد الخامس والعشرون

اليهود في جزيرة العرب

أسباب وجود اليهود في جزيرة العرب

ورد في سبب وجود اليهود في جزيرة العرب عدة أسباب يمكن حصرها في ثلاثة:

١. سبب أمني.

حيث انتقلت جماعات من اليهود من الشام إلى شبه الجزيرة العربية، فيما يبدو أنه كان فرارًا من الاضطهاد، وكان انتقالهم يشبه موجات مذعورة، تبحث لنفسها عن شاطئ ومستقر، ولم تتم على دفعة واحدة، كما أنها لم تستقر في مكان واحد.

وقد ورد في ذلك عدة روايات:

- أن هجرة اليهود كانت في أواخر عهد موسى عليه السلام أي في القرنين الثاني عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد، وذلك أن بني إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق[(١)] من أرض الحجاز، وكانت منازل العماليق يثرب والجحفة إلى مكة، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى موسى عليه السلام، فوجه إليهم جيشًا، وأمرهم أن يقتلوهم ولا يبقوا منهم أحدًا، ففعلوا، وتركوا منهم ابن ملك لهم كان غلامًا حسنًا فَرَقُّوا له، ويقال للملك الأرقم بن أبي الأرقم فيما ذكر الزبير، ثم رجعوا إلى الشام وموسى قد مات، فقالت بنو إسرائيل لهم قد عصيتم وخالفتم فلا نؤويكم فقالوا: نرجع إلى البلاد التي غلبنا عليها فنكون بها، فرجعوا إلى يثرب، فاستوطنوها وتناسلوا بها.

قال أبو حيان: كان بنو النضير من الجيش الذين عصوا موسى في كونهم لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق تركوه لجماله وعقله، وقال موسى عليه السلام: لا تستحيوا منهم أحدًا، فلما رجعوا إلى الشام وجدوا موسى عليه السلام قد مات، فقال لهم بنو إسرائيل: أنتم عصاة الله، والله ما دخلتم علينا بلادنا، فانصرفوا إلى الحجاز[(٢)].

لكن ضعف السهيلي هذه الرواية حيث قال: ولا أحسب هذا صحيحًا لبعد عمر موسى عليه السلام[(٣)].

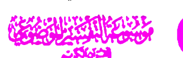
- أن هجرتهم إلى الجزيرة كانت بسبب اضطهاد بختنصر[(٤)] لهم وعسفه بهم، وهو ما أكده الطبري في تفسيره، قال

(١) قال ابن إسحاق: سموا «العماليق»، نسبة إلي أبيهم: عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٨.

(٢) البحر المحيط في التفسير ١٠/ .

(٣) انظر: الروض الأنف ٤/ ١٧٢.

(٤) بختنصر: بالتشديد، أصله بوخت ومعناه ابن، ونصر اسم صنم، وكان وجد عند الصنم ولم يعرف له أب فنسب إليه، وذكر التاريخ أنه حكم بابل سنة ٥٦١- ٥٠٤ ق.م، وخرب بيت المقدس.
انظر: القاموس المحيط ص٤٨٣.



رحمه الله: وقد قويت شوكته فحارب مع الترك، وقاد جيشًا جرارًا إلى دمشق، ثم قصد بيت المقدس لمحاربة بني إسرائيل، فصالحه ملكهم، ثم نقض الإسرائيليون عهودهم معه، ولما علم بختنصر بنقضهم عاد إلى بيت المقدس، فأثخن فيهم، وهدم بيت المقدس، وأحرق التوراة، وقتل أولاد الأنبياء، واسترق نساءهم، وسبى ذراريهم، ففر كثير منهم إلى أقطار مختلفة، وفر بنو النضير وبنو قريظة وبنو هدل إلى الحجاز يثرب وغيرها[(١)].

ورجح السهيلي هذا الرأي، حيث قال عقب إيراده للرأي الأول ورده: «والذي قال غيره -أي: غير أبي الفرج الأصفهاني ممن تعرض لأسباب وجود اليهود في الجزيرة-: إن طائفة من بني إسرائيل لحقت بأرض الحجاز حين دوخ بختنصر البابلي في بلادهم، وجاس خلال ديارهم، فحينئذٍ لحق من لحق منهم بالحجاز كقريظة والنضير، وسكنوا خيبر والمدينة، وهذا معنى ما ذكر الطبري، والله أعلم»[(٢)].

❁ إن هجرة اليهود كانت في القرن الأول الميلادي بعد تنكيل الرومان بهم سنة ٧٠ م وخراب القدس، وذلك أنهم ظنوا ألن يعاقبهم الله تعالى بتكذيبهم رسله وقتلهم، قال تعالى ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠ - ٧١].

قال أبو جعفر: يقول تعالى: وظن هؤلاء الإسرائيليون أن الله أخذ ميثاقهم، وأنه أرسل إليهم رسلًا، وأنهم كانوا كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقًا وقتلوا فريقًا، أن لا يكون من الله لهم ابتلاء واختبارٌ بالشدائد من العقوبات بما كانوا يفعلون[(٣)].

وكان قتال الرومان لهم أحد هذه العقوبات التي حلت بهم.

وقد رجح الدكتور جواد علي، أن هجرة اليهود إلى جزيرة العرب كانت بعد غزو الرومان لهم، حيث قال: أما ما ورد في

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٣٧٣.
وانظر: تاريخ الرسل والملوك ١/ ٥٣٨، الروض الأنف، السهيلي ٣/ ٧٣، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء، الكلاعي ١/ ٩، السيرة النبوية، ابن كثير ٢/ ٣١٩.
(٢) انظر: الروض الأنف ٤/ ٢٩٠.

وانظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الصالحي ١/ ١٢٢، بنو إسرائيل ووعد الآخرة، فوزي أبو زيد ص٧٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٧٨.

روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالي الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم، مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء البعيدة عن مجالات الروم فإنه يستند إلى أساس تاريخي صحيح[1]، فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فلا يستبعد أن يكون يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين[2].

٢. سبب ديني.

وقد دل عليه: ما حكاه ابن النجار أن علماء بني إسرائيل كانوا يجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، وأنه يهاجر إلى بلد فيه نخل وماء بين حرتين، وكانت هذه الصفة تنطبق على أربعة أماكن في الجزيرة مروا بها تقريبًا (تيماء، وخيبر، وفدك، ويثرب) فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة، فلما رأوا تيماء وفيها النخل نزلها طائفة منهم، وظن طائفة أنها خيبر فنزلوها، ومضى أشرفهم وأكثرهم، فلما رأوا يثرب سبخة وحرة وفيها النخل قالوا: هذه البلد التي تكون مهاجر النبي عليه الصلاة والسلام.

قال ابن النجار: «وقال آخرون: بل كان علماؤهم -أي: اليهود- يجدون في التوراة أن نبيًّا يهاجر من العرب إلى بلد فيه نخل بين حرَّتين، فأقبلوا من الشام يطلبون صفة البلد، فنزل طائفة تيماء وتوطنوا نخلًا، ومضى طائفة، فلما رأوا خيبر ظنوا أنها البلدة التي يهاجر إليها، فأقام بعضهم بها، ومضى أكثرهم وأشرفهم، فلما رأوا يثرب سبخةً وحرةً ونخلًا قالوا: هذا البلد الذي يكون له مهاجر النبي إليها، فنزلوه»[3].

لكن كثيرًا من علماء بني إسرائيل كانوا يرون أنها يثرب، لذا يلحظ أن كثيرًا من القبائل الإسرائيلية نزلوا يثرب وآثروا العيش فيها، واتخذوها وطنًا، حتى إذا ظهر النبي المبشر به آمنوا به، فلما ظهر لم يؤمن به إلا عدد قليل منهم، وكان إيمانهم على هيئة فردية وليست جماعية، فكان للمعتقد الديني أثره في استقرارهم في الحجاز.

٣. المصادفة والاختيار.

حيث ذكرت بعض الروايات أن موسى عليه السلام خرج حاجًّا إلى الكعبة، وفي عودته تخلف بعض اليهود فسكنوا يثرب.

ومنها ما أورده الصالحي في سيرته قال: «وقال أبو المنذر الشرقي بن القطامي: سمعت حديث تأسيس المدينة من سليمان

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٥٩٤.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ١٢/ ٩٤.

وانظر: التفسير الحديث، دروزة ٦/ ١٦٦، التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ٣٤.

(٣) الدرة الثمينة في أخبار المدينة ص ٢٧ .

بن عبد الله بن حنظلة الغسيل، وسمعت أيضًا بعض ذلك من رجل من قريش عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عمار بن ياسر، فجمعت حديثهما لكثرة اتفاقه وقلة اختلافه، قالا: «بلغنا أنه لما حج موسى صلوات الله عليه حج معه أناس من بني إسرائيل، فلما كان في انصرافهم أتوا على المدينة، فرأوا موضعها صفة بلد نبي يجدون وصفه في التوراة بأنه خاتم النبيين، فاشتورت طائفة منهم على أن يتخلفوا به، فنزلوا في موضع سوق بني قينقاع، ثم تألفت إليهم أناس من العرب فرجعوا إلى دينهم، فكانوا أول من سكن موضع المدينة»[(١)].

إلا أن هذه الرواية مرجوحة بما اتفق عليه أكثر المؤرخين، وهو أن قبائل اليهود في الحجاز هم عبرانيون نازحون من جراء الاضطهاد الروماني، في الفترة مابين عامي ٧٠ م - و١٣٥ م، ولم يكونوا عربًا، أي: إنهم هم الناجون من دمار أورشليم على يد تيطوس أو الذين تم إجلاؤهم (بني النضير وقريظة) على يد الإمبراطور هادريان.

وقد ادعى يهود بني قينقاع أن أصلهم موغل في القدم بيثرب ويعود لزمان موسى في الوجود، كما تدعي الإسرائيليات التي حاول اليهود ترويجها، ونقلها لنا المؤرخون المسلمون، إلا أن قدم تواجدهم لا دليل عليه، فلا يمكن الاستدلال على قدم الوجود اليهودي ما قبل الميلاد فضلًا لزمان موسى عليه السلام؛ لأن اليهود على مر التاريخ لاقوا من الاضطهاد ما لم تلقه أمة أخرى، ولذا فلا يمكن نفي أن اليهود في يثرب قد جاؤوا على فترات متقطعة، ولكن لا يمكن تأكيد بحال من الأحوال فترات ما قبل الميلاد، أما ما بعد الميلاد فالثابت هو نزوح بني النضير وقريظة إلى يثرب.

وتبقى هذه الادعاءات ادعاءات يهودية محضة، ربما عن قصد ألفوها ونشروها بين المسلمين ليكتسبوا شرعية في المكان الذي استقروا فيه، وبرغم أصالة وعبرية تلك القبائل مثل بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر وفدك ووادي القرى، إلا أن هناك من قبائل العرب من اعتنق اليهودية أيضًا، وربما كان تقربًا لليهود.

والذي يظهر: أن غالبية يهود جزيرة العرب حلوا بها في القرن الأول الميلادي، أي: بعد التدمير الثاني لأورشليم على يد تيطس الروماني، وكان أهم أسباب حلولهم بها هو فرارهم من وجه الرومان حتى يأمنوا من بطشهم وفتكهم بهم.

أما عدد قبائلهم وبطونهم فكثيرة، وقد أوصلها بعضهم إلى نيف وعشرين فرعًا، منهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة،

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الصالحي ٣/ ٢٨١.

وبنو هدل، وبنو عكرمة، وبنو ثعلبة، وبنو محمم، وبنو زعوراء، وبنو القصيص، وغيرهم[(١)]، وقد اشتهر من هذه القبائل، بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وسبب شهرتهم أنهم كانوا ذوي عدد وعدة، ولهم وقائع مع الأوس والخزرج، ثم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته[(٢)].

ثانيًا: أماكن وجودهم:

تفرق اليهود في الجزيرة العربية، وسكنوا عدة أماكن منها، وكان أشهرها:

- المدينة المنورة، وسكنها ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة.
- خيبر.
- بعض المناطق الأخرى المتفرقة، مثل: فدك وتيماء ووادي القرى، وكانت واحات صغيرة، تقطنها جماعات يهودية محدودة العدد، وبالرغم من قلة المعلومات عنهم، فإن الدلائل تشير إلى التشابه الكبير بين طبيعة حياتهم، وحياة يهود المدينة[(٣)].

وما ورد من وجود لليهود باليمن، فالراجح أنه نتيجة تسرب اليهودية من إسرائيليي الحجاز إليها في القرن الخامس بعد الميلاد[(٤)].

ثالثًا: علاقتهم بالأوس والخزرج:

ذكر المفسرون أن علاقة اليهود بالأوس والخزرج كانت وطيدة، إذ بنيت على التحالفات فيما بينهم، وبما أنهم كانوا يسكنون مكانًا واحدًا، فمن الطبيعي أن تتولد بينهم علاقات تجمعهم، وقد عكس لنا القرآن الكريم جانبًا من جوانب هذه العلاقة، وهو الجانب السياسي، وما ترتب على هذه العلاقة من نتائج، قال تعالى ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة: ٨٥].

قال السدي رحمه الله: كانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فكانوا يقتتلون في حرب سمير[(٥)] فيقاتل بنو قريظة مع حلفائها، النضير وحلفاءها، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها، فيغلبونهم، فيخربون بيوتهم، ويخرجونهم منها، فإذا أسر الرجل من الفريقين

---

(١) المدينة في العصر الجاهلي، محمد الحظراوي ص٧٤.

(٢) مرويات تاريخ يهود المدينة، أكرم السندي ص٢٠.

(٣) انظر: آثار المدينة المنورة، عبدالقدوس الأنصاري ص٦٥ - ٧٦.

(٤) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ٣/ ١٥٠ - ٢٧٣.

(٥) حرب سمير: كانت في الجاهلية بين الأوس والخزرج. وسمير رجل من بني عمرو بن عوف.
انظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٥٨٦.

كليهما، جمعوا له حتى يفدوه، فتعيرهم العرب بذلك، ويقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم، وحرم علينا قتالهم. قالوا: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنا نستحيي أن تستذل حلفاؤنا، فذلك حين عيرهم جل وعز بقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [البقرة: ٨٥][(١)].

وقد انعكست هذه العلاقة على الجانب الاقتصادي فيما بينهم، إذ كان اليهود قد سيطروا على أغلب الجوانب الاقتصادية في المدينة، وكان من أهم الأعمال التي اشتغلوا بها التجارة، حتى صار لبعضهم فيها شهرة كبيرة، كذلك اشتغلوا بالزراعة التي كانت المهنة الرئيسة لسكان القرى منهم.

كما اهتموا أيضًا بالصناعة، ومن أهم الصناعات التي برعوا فيها صناعة الصياغة، واشتهر بها بنو قينقاع وصناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحربية، وكانت لديهم ثروات وأموال، وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات وتعاطي الربا.

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها، أن قوي نفوذهم المالي وتحكموا في الأسواق فحشًا واحتكارًا لمصلحتهم ومنفعتهم، فكرههم أغلب الناس لأنانيتهم واشتطاطهم في أخذ الربا وسعيهم للثراء بطرق خبيثة يأنفها العربي ويأباها.

وقد كانت علاقة اليهود بالأوس والخزرج خاضعةً للمنفعة الشخصية والمكاسب المادية، فكان اليهود يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم، كما حصل ذلك في كثير من الحروب التي أنهكت الأوس والخزرج؛ لأنهم كانوا يهمهم أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة والسيطرة على صناعة السلاح وجزء كبير من الزراعة ومصادر المياه.

أما بالنسبة للجانب الديني، فقد كان اليهود يعدون أنفسهم أعلى مكانةً من الأوس والخزرج؛ لأنهم أهل كتاب، أما الأوس والخزرج فكانوا كفارًا، ولذا فقد كان اليهود يترقبون خروج النبي صلى الله عليه وسلم حتى يتبعوه وتكون لهم السيادة في الأرض، وكانوا يدعون أنه سيكون منهم، وعند بعثته سيتحكمون في غيرهم من الأوس والخزرج دينًا ودنيا[(٢)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٠٦، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ١/ ٤٦٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣١٨.

(٢) بنو إسرائيل ووعد الآخرة، فوزي أبو زيد ص٨٠.

غزوة بني قينقاع

حينما استقر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد هجرته إليها، وأسلم من أسلم من أهلها، وظل اليهود على ديانتهم، وكانوا قوة لا يستهان بها آنذاك، وكانوا شركاء للمسلمين في سكنى المدينة، عقد النبي صلى الله عليه وسلم عهدًا معهم، أبقاهم فيه على صلاتهم وتحالفهم مع الأوس والخزرج، ومنحهم حرية الدين، وأوجب عليهم مشاركة المسلمين في الدفاع عن المدينة إذا ما تعرضت لأذى، كما أوجب على المسلمين معاونتهم أيضًا إذا تحقق ذلك.

ولم يمر على هذا العهد سوى عام ونصف حتى نقضته الطائفة الأولى من اليهود وهو بنو قينقاع[1]، فكانوا أول من نقض العهد من اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم، فتوجه النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ليعاقبهم على فعلهم.

أولًا: زمان الغزوة ومكانها.

أما الزمان: فكانت يوم السبت للنصف من شوال في السنة الثانية من الهجرة، حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر يومًا إلى هلال ذي القعدة[2].

وأما المكان: فوقعت الغزوة في ديارهم وكانت في طرف المدينة المنورة[3]، ومنازلهم عند جسر بطحان مما يلي العالية[4].

ثانيًا: أسباب الغزوة:

أورد أهل التفسير أن غزوة بني قينقاع كان لها سببان:

الأول: نقضهم للعهد الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم، حيث أظهروا له الحسد بما فتح الله عليه في بدر، وكشفوا عن أخلاقهم الدنيئة.

قال محمد بن إسحاق رحمه الله: (كان من أمر بني قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق بني قينقاع، ثم قال: يا معشر اليهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في

(١) قينقاع: بضم النون وقيل بكسرها وقيل بفتحها، فهي مثلثة النون، والضم أشهر.
انظر: السيرة الحلبية ٢/ ٢٨٤.

(٢) انظر: دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ١٧٣، عيون الأثر، ابن سيده ١/ ٣٤٣.
وقيل: كانت في صفر سنة ثلاث، وجعلها بعضهم بعد غزوة الكدر.
انظر: إمتاع الأسماع، المقريزي ١/ ١٢٢، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الصالحي ٤/ ١٧٩.

(٣) انظر: جوامع السيرة، ابن حزم ص١٢١، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة،محمد شراب ص٢٢٨.

(٤) انظر: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، السمهودي ١/ ١٣١.

كتابكم وعهد الله إليكم، فقالوا: يا محمد إنك ترى أنا كقومك، لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب، فأصبت فيهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس)[(١)].

الثاني: إثارة الفتنة، بالاعتداء على الأعراض وقتل المسلمين: فعن أبي عون قال: كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلبٍ[(٢)] لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًا، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[(٣)].

ولا مانع من تحقق السببين معًا، أو أن يكون فعل اليهود بالمرأة إن صح نتيجة لحقدهم على الإسلام والمسلمين.

ثم سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، يحمل لواءه عمه حمزة بن عبد المطلب، وكان أبيض، واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، حتى أتاهم فوجدهم قد تحصنوا بحصنهم، فحاصرهم خمس عشرة ليلة لا يطلع منهم أحد.

وكان عدد اليهود يومئذٍ سبعمائة مقاتل، أربعمائة حاسر[(٤)] وثلاثمائة دارع[(٥)]، مدرعون بدروع الحديد[(٦)].

ثالثًا: حديث القرآن عن الغزوة:

لم يكد يستقر النبي صلى الله عليه وسلم بعد عودته من غزوة بدر ظافرًا منتصرًا، حتى كشف يهود بني قينقاع عن نواياهم الخبيثة، وما تضمره قلوبهم من حسد وبغضاء للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فنقضوا العهد الذي وثقه النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبينهم، وليس هذا ببعيد عنهم، فقد كشف القرآن الكريم في مواضع عدة عن مواقفهم الدنيئة التي عكست التعجيز والتشكيك والسخرية واللجاج والدس والتآمر التي اشتهروا بها.

ولما لم يستجب يهود بني قينقاع لدعوة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٢٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧، السيرة النبوية، ابن هشام ٣/ ٥٠.

(٢) الجَلَب: كل ما يجلب للبيع.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٦٨.

(٣) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٤٨.

(٤) الحاسر: هو الذي لا درع عليه ولا مغفر.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٣٨٣.

(٥) الدارعُ: هو من له درعٌ.
انظر: الدلائل في غريب الحديث، السرقسطي ٢/ ٨٤٥.

(٦) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٨٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٠٤.

الحق بدخولهم في الإسلام أو مراعاة العهد الذي بينهم وبين المسلمين، فقد اقتضت حكمة التنزيل توجيه الإنذار لهم، أن يحيق بهم مثل ما حاق بأسلافهم من كفار قريش في بدر.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران ١٢-١٣].

وقد ذكر أئمة التفسير أن هاتين الآيتين نزلتا في يهود بني قينقاع، وذلك لما جمعهم النبي صلى الله عليه وسلم في سوقهم ووجه إليهم الإنذار لفعلهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما أنزلت هؤلاء الآيات إلا فيهم، أي: في يهود بني قينقاع[(١)].

وفي تلك الغزوة ظهرت موالاة المنافقين لليهود، حيث قام زعيم المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول بمحاولة تخليصهم من خلال شفاعته عند النبي صلى الله عليه وسلم.

روى ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة قال: (حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أُبي ابن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني، وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رئي لوجهه ظلل ثم قال: ويحك أرسلني، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟! إني امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هم لك)[(٢)].

من أجل ذلك نهى رب العزة سبحانه وتعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٢٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٥٦، تفسير العز بن عبد السلام ١/ ٢٥٣، البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٣/ ٤٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٤.

﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

وقد ورد في سبب نزول هاتين الآيتين، ما رواه محمد بن إسحاق بسنده عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: «لما حاربت بنو قينقاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تشبث بأمرهم عبدالله بن أبي ابن سلول، وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أحد بني عوف، لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبدالله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم من حلفهم، وقال: يا رسول الله أتولى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم، قال: ففيه وفي عبدالله بن أبي نزلت هذه القصة من المائدة»[(١)].

وذكر أبو حيان في تفسيره، قال الزهري وغيره: سبب نزولها قصة عبد الله بن أُبيٍّ واستمساكه بحلف يهود، وتبرؤ عبادة بن الصامت من حلفهم عند انقضاء بدر، في قصةٍ فيها طولٌ هذا ملخصها[(٢)].

وهذا دليل واضح على مشروعية التبرؤ من اليهود والنصارى، وعدم موالاتهم.

وبعد أن أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة، جعلهم الله تعالى مضرب المثل، وعبرةً لمن خلفهم من اليهود.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال في قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١٥] يعني: بني قينقاع[(٣)].

رابعًا: علاقة قصة غزوة بني قينقاع بموضوع سورة آل عمران:

تدور آيات سورة آل عمران حول ثلاث موضوعات هامة هي:

- تحديد معنى الدين ومعنى الإسلام.
- وصف حال المسلمين مع ربهم وموقفهم من تعاليم الدين وتكاليفه.
- التحذير المستمر من الثقة بغير المسلمين، وتوضيح ما ينجر للمسلمين من الأخطار والمتاعب إذا والوهم ووثقوا بهم في شؤونهم[(٤)].

وقد جاءت الآيات في بني قينقاع تندرج تحت الموضوع الثالث، وهو تحذير المسلمين من اليهود والكافرين، وأنهم مهما بلغت قوتهم وازداد عددهم، لكن قدرة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٣.
(٢) البحر المحيط في التفسير ٤/ ٢٩١.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٩٣.
(٤) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي ١/ ٢٠١.

الله تعالى أكبر منهم، فهو يعدهم سبحانه بأنهم سيغلبون، وستكون جهنم مهادهم ومصيرهم، ويدلل سبحانه على تحقق ما وعد به من خلال الواقع الملموس وما حاق بكفار قريش رغم كثرة عددهم وعدتهم في مقابلة قلة عدد المسلمين وعتادهم، كي يكون ذلك آية وعبرة لليهود والكافرين، وأن النصر بيد الله سبحانه وتعالي يكتبه لمن يشاء، وقد وعد به المؤمنين قال تعالي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

ثم تستمر السورة في التحذير من غير المسلمين ومن موالاتهم وبخاصة اليهود والنصارى، وأن من يخالف أمر الله فإنه منهم، وقد جعل الحق سبحانه وتعالى موالاة اليهود والنصارى علامة من علامات النفاق، حينما أخبر أن المنافقين وهم من في قلوبهم مرض يتوددون إلى اليهود والنصارى ويتقربون منهم، شكًّا منهم في وعد الله، مع أن وعده سبحانه لا يتخلف، ونافذ ولو بعد حين، وهذه عقيدة المؤمنين.

خامسًا: نتائج الغزوة:

كان من أهم نتائج الغزوة:

١. هزيمة اليهود ونزولهم على أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالجلاء من المدينة.

٢. نقض اليهود العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم.

٣. كشف الحقد الدفين الذي انطوت عليه طبائع اليهود ضد المسلمين.

٤. تكشف أمر المنافقين بالدفاع عن اليهود، كما حدث من عبد الله بن أبي بن سلول في دفاعه عن اليهود ومؤازرتهم.

٥. براءة المؤمنين من حلف اليهود: وهو ما ظهر من الموقف الإيماني للصحابي الجليل عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

٦. إجلاؤهم من المدينة: حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة بن الصامت أن يجليهم، فخرجوا بعد ثلاث، ومضى بهم عبادة حتى بلغوا جبل ذباب[1].

(١) ذباب ذكره الحازمي بكسر أوله وباءين، وقيل: بالضم، جبل أو أكمة بالمدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع، وهو علي يمين الخارج من المدينة السالك ثنية الوداع -الشامية للمتجه إلى تبوك- ويكون جبل سلع على يساره، وموقعه الآن في أول شارع عثمان بن عفان العيون المتفرع من شارع سلطانة، وهو الآن مكسو بالعمائر، ويقع في «حي النصر» بالمدينة.
انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٣/ ٣، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، صفي الدين البغدادي ٢/ ٥٨٣، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، السمهودي ٣/ ٤٩، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، محمد

٧. الغنائم: عرف عن يهود بني قينقاع الثراء والغنى، وظهر ذلك مما غنمه المسلمون منهم، فقد كانوا صاغةً، ولديهم آلة للصياغة، ووجد المسلمون لديهم سلاحًا كثيرًا، خص النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ببعض منه، قال الواقدي: كان محمد بن مسلمة هو الذي أجلاهم وقبض أموالهم، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلاحهم ثلاث قسي، قوس تدعى الكتوم كسرت بأحد، وقوس تدعى الروحاء، وقوس تدعى البيضاء، وأخذ درعين من سلاحهم، درعًا يقال لها السغدية[١] وأخرى فضة، وثلاثة أسياف، سيف قلعي، وسيف يقال له بتار وسيف آخر - لم يسم - وثلاثة أرماح، ووجدوا في حصونهم سلاحًا كثيرًا وآلة للصياغة وكانوا صاغةً[٢].

شراب ص١٢٠.

(١) السغدية: بسين مهملة وغين معجمة، نسبة الى سغد بلد تعمل فيه الدروع.
انظر: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، الدياربكري ٢/ ١٨٩، عيون الأثر، ابن سيده ٢/ ٣٨٦، مستعذب الإخبار بأطيب الأخبار، أبو مدين الفاسي ص ٣٧٤، تاريخ الإسلام، الذهبي ١/ ٥١٣.

(٢) انظر: مغازي الواقدي ١/ ١٧٨.

غزوة بني النضير

يهود بني النضير هم الطائفة الثانية من اليهود الذين سكنوا المدينة، وهم داخلون في العهد الذي أبرمه النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود بطوائفهم الثلاث، وقد أثبتت الحقائق التاريخية أنهم لم يرعوا هذا العهد، بل كانوا يتحينون الفرص لنقضه، حتى إذا سنحت لهم الفرصة بادروا إلى النكوث والعودة فيه.

فهم أهل خيانة وغدر، ودلت أفعالهم الدنيئة من انتهاكهم لحرمات المسلمين، وإثارتهم للفتن والقلاقل أنهم لا يرجون أمانًا، ولا يطلبون سلامًا.

وبالرغم مما حاق بأسلافهم من بني قينقاع، إلا أنهم لا يعتبرون، قد أعمى بصائرهم وأبصارهم حقدهم وبغضهم للإسلام والمسلمين.

أولًا: زمان ومكان الغزوة:

فأما الزمان: فقد تعددت الروايات في زمنها[٣]، مما أدى إلى اختلاف أهل التفسير والسير والتاريخ في تحديد وقتها إلى أربعة أقوال:

الأول: أنها كانت بعد بدر بستة أشهر وقبل

(٣) انظر في غزوة بني النضير: مغازي الواقدي ١/ ٣٥٣، الطبقات الكبري، ابن سعد ٢/ ٥٧، تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٥٥٠، السيرة النبوية، ابن هشام ٣/ ١٤٢.

أحد، روي ذلك عن عروة والزهري وابن إسحاق والبخاري والبيهقي وغيرهم[(١)].

قال البخاري رحمه الله: قال الزهري عن عروة: «كانت على رأس ستة أشهرٍ من وقعة بدر قبل أحد»[(٢)].

الثاني: أنها كانت في ربيع الأول بعد أحد من السنة الرابعة للهجرة، وهذا رأي ابن إسحاق والمحققين من المؤرخين، قال ابن كثير رحمه الله: «ذكر البيهقي والبخاري قبله خبر بني النضير قبل وقعة أحد، والصواب إيرادها بعد ذلك، كما ذكر ذلك محمد بن إسحاق[(٣)] وغيره من أئمة المغازي[(٤)]، وبرهانه أن الخمر حرمت ليالي حصار بني النضير، وثبت في الصحيح[(٥)] أنه اصطبح الخمر جماعة ممن قتل يوم أحد شهيدًا، فدل على أن الخمر كانت إذ ذاك حلالًا، وإنما حرمت بعد ذلك فتبين ما قلناه من أن قصة بني النضير بعد وقعة أحد والله أعلم»[(٦)].

الثالث: أن غزوة بني قينقاع وبني النضير كانتا في زمن واحد، وهذا رأي الحاكم، قال مغلطاي: قال الحاكم: غزوة بني قينقاع وبني النضير واحدة فربما اشتبهتا على من لا يتأمل.

وقد رد الحافظ ابن حجر على هذا القول بعد أن ذكر أن يهود بني قينقاع أول من نقض العهد فغزاهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم بني النضير، فقال رحمه الله: وأغرب الحاكم فزعم أن إجلاء بني قينقاع وإجلاء بني النضير كان في زمن واحد، ولم يوافق على ذلك لأن إجلاء بني النضير كان بعد بدر بستة أشهر على قول عروة، أو بعد ذلك بمدة طويلة على قول ابن إسحاق.[(٧)]

الرابع: التوقف، وهو ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر، فلم يجزم برأي قاطع، وعلق التسليم برأي ابن إسحاق بثبوت تعلق الغزوة بقصة القتيلين العامريين.

قال رحمه الله معلقًا على رواية الزهري:

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٧٦، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٨/ ٦٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله، ٥/ ٨٨.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٣/ ٢١٩.

(٤) وقد ذهب إلي ذلك جل أهل المغازي، انظر: مغازي الواقدي ١/ ٣٦٣، السيرة النبوية، ابن هشام ٣/ ٣١٩، دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ١٨٠.

(٥) جاء ذلك في حديث جابرٍ رضي الله عنه قال: (اصطبح الخمر يوم أحد ناس، ثم قتلوا شهداء). أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ٥/ ٩٥، رقم ٤٠٤٤.

(٦) البداية والنهاية ٤/ ٩.

(٧) انظر: فتح الباري ٧/ ٣٣٢، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٢/ ٣٥٠، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ١/ ٤٠٩.

فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق من أن سبب غزوة بني النضير طلبه صلى الله عليه وسلم أن يعينوه في دية الرجلين، لكن وافق ابن إسحاق جل أهل المغازي فالله أعلم، وإذا ثبت أن سبب إجلاء بني النضير ما ذكر من همهم بالغدر به صلى الله عليه وسلم وهو إنما وقع عندما جاء إليهم ليستعين بهم في دية قتيلي عمرو بن أمية، تعين ما قال ابن إسحاق؛ لأن بئر معونة كانت بعد أحد بالاتفاق[(١)].

والذي تطمئن إليه النفس ما ذهب إليه ابن إسحاق وابن كثير وابن القيم وغيرهم، من أن غزوة بني النضير كانت بعد أحد، لأن إباحة شرب الخمر في أحد، وتحريمه في غزوة بني النضير يؤيد ذلك، ولأن الثقات من أهل المغازي كابن كثير وابن القيم عندما رتبوا الغزوات حسب الزمن وضعوا غزوة بني النضير بعد غزوة أحد، والله أعلم.

وأكد ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله ورد على أصحاب الرأي الأول بقوله: وزعم محمد بن شهاب الزهري، أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وهم منه أو غلط عليه، بل الذي لا شك فيه أنها كانت بعد أحد والتي بعد بدر بستة أشهر: هي غزوة بني قينقاع. ثم قال: والصحيح الذي عليه أهل السير: أنها بعد غزوة أحد، وللنبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود أربع غزوات: أولها: غزوة قينقاع بعد بدر، والثانية: غزوة بني النضير بعد أحد، والثالثة: غزوة بني قريظة، بعد الخندق، والرابعة: خيبر، بعد الحديبية[(٢)]. وإلى هذا القول ذهب ابن العربي[(٣)].

وأما المكان: فوقعت الغزوة في ديار يهود بني النضير، وكان موقعها العوالي في الجنوب الشرقي للمدينة المنورة عند وادي مذينيب -وهو فرع لبطحان- على مسافة ميل أو ميلين منها في أواخر منطقة قربان حاليًا، وتبعد عن المسجد النبوي مسافة ٤كم تقريبًا، ولم يبق من آثارهم غير بعض أطلال حصن كعب ابن الأشرف[(٤)].

ثانيًا: أسباب الغزوة:

هناك عدة أسباب حملت النبي صلى الله عليه وسلم على غزو بني النضير وإجلائهم، ومن أهمها:

الأول: نقض بني النضير عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم والذي يحتم عليهم ألا يؤووا عدوًا للمسلمين، ولم يكتفوا بهذا النقض، بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة.

(١) فتح الباري ٧/ ٣٣٢.
(٢) زاد المعاد ٣/ ٢٢٣.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٦٥.
(٤) انظر: دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ١٧٦، آثار المدينة المنورة ص٦٥ - ٧٦.

وقد حصل ذلك في غزوة السويق حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين عاد بقافلته إلى مكة، ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المدينة، فلما خرج في مائتي راكب قاصدًا المدينة قام سيد بني النضير سلام بن مشكم بالوقوف معه وضيافته وأبطن له خبر الناس، ولم تكن مخابرات المدينة غافلة عن ذلك[1].

قال موسى بن عقبة: «كانت بنو النضير قد دسوا إلى قريش وحثوهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ودلوهم على العورة»[2].

الثاني: محاولة اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم حينما خرج في نفر من أصحابه إلى ديار بني النضير يستعينهم في دية القتيلين العامريين[3].

وكان سببه ما رواه محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر قالا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير ليستعينهم على دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري[4]، فلما جاءهم خلا بعضهم

(١) انظر: تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٢٨٤، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٧٩.

(٢) انظر: عيون الأثر، ابن سيده ٢٧٠، فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٣٣٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٥٨، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، الصلابي ص ٥٤٩.

(٤) جاء في قصة قتل العامريين ما رواه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيرهم من أهل العلم قالوا: قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام، فقال: يا محمد لو بعثت رجالًا من أصحابك إلي أهل نجد فدعوهم إلي الإيمان رجوت أن يستجيبوا لك، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج المعنق ليموت في أربعين رجلًا من المسلمين من خيارهم منهم الحارث بن الصمة وحرام بن ملحان أخو بني عدي بن النجار، وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، ورجال مسمون من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا بئر معونة -وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم كلا البلدين منها قريب وهي من سليم أقرب- فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عامر بن الطفيل، فلما أتاهم لم ينظر في كتابه إلى أن عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم، وقالوا: لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا، فاستصرخ عليهم قبائل بني سليم: عصية، ورعلًا، وذكوانًا، فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا أسيافهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار، فإنهم تركوه فيه رمق، فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق، فكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري، ورجل من الأنصار -أحد بني عمرو بن عوف- فلم

ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا محمدًا أقرب منه الآن، فمن رجلٌ يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر، وانصرف عنهم، فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ١١][١].

ثالثًا: حديث القرآن عن الغزوة:

لم يجن اليهود من وراء نقضهم العهد إلا لعنة الله تعالى لهم وطردهم من رحمته، فصارت قلوبهم قاسية تجانبها الرحمة، ويبعد عنها الوفاء.

قال تعالى في وصفهم: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣].

ورجح الطبري أن هذه الآية نزلت في يهود بني النضير، قال رحمه الله: «والصواب من القول أن الله عنى بهذه الآية يهود بني النضير الذين هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إذ أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية العامريين، فأطلعه الله على ما قد هموا به»[٢].

ينبئهما بمصاب إخوتهما إلا الطير تحوم على المعسكر، فقال -أي: عمرو ابن أمية-: والله إن لهذه الطير لشأنًا، فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره الخبر، فقال الأنصاري: لكني ما كنت أرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنت لتخبرني عنه الرجال، ثم قاتل القوم حتى قتل، وأخذ عمرو بن أمية أسيرًا، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته، واعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه، فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة، أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا معه في ظل هو فيه، وكان للعامريين عقد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوار، فلم يعلم به عمرو بن أمية وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر، فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلهما وهو يرى أنه أصاب بهما ثأره من بني عامر لما أصابوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره الخبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لئن قتلت قتيلين لأدينهما)**، وجعل حسان بن ثابت يحرض ربيعة بن عامر على عامر بن الطفيل حتى طعن ربيعة عامرًا.

أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ٣٥٧.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٢٩: رجاله ثقات إلا ابن إسحاق.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٣.

وهذا يدل على خبث نواياهم، وسوء طبائعهم، ولأهمية هذه الغزوة فقد خصها الله تعالي بسورة كاملة في القرآن، سماها سورة الحشر.

روى الطبري بسنده إلى يزيد بن رومان قال: نزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها، يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته، وما سلط عليهم به رسوله صلى الله عليه وسلم وما عمل به فيهم(١).

وسمى حبر الأمة عبد الله بن عباس سورة الحشر بسورة بني النضير، فعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قل سورة النضير(٢).

قال الداوودي: كأن ابن عباس كره تسميتها سورة الحشر لئلا يظن أن المراد بالحشر يوم القيامة، أو لكونه مجملًا فكره النسبة إلى غير معلوم(٣).

وعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة ما زالت تنزل ومنهم ومنهم حتى ظنوا أنها لن تبقي أحدًا منهم إلا ذكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدرٍ، قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير(٤).

وقد تناولت السورة أهم جوانب الغزوة، ففيها إشارة إلى أن الوضع المادي الذي كان عليه بنو النضير من المال والسلاح والحصون كان يوحي إليهم بأنهم في عز ومنعة، فلا يستطيع أحد أن يطاولهم، فضلًا عن أن ينتصر عليهم، كما أن هذا الوضع نفسه يوحي إلى المسلمين بأن الاستيلاء عليهم يحتاج إلى تضحيات جسام، إن لم يكن في حكم المتعذر بالمرة، لكن الله عز وجل وهو القادر على كل شيء، ألقى في قلوبهم الخوف والهلع والجزع، لما خالفوا أمر الله ورسوله، وأعد المسلمون لهم عدتهم.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٦٣، السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ١٩٢.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٥٦.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ٥/ ٨٨، رقم ٤٠٢٩.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٣٣٢.
(٤) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٣، الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٨٨.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الحشر ٦/ ١٤٧، رقم ٤٨٨٢، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر ٤/ ٢٣٢٢، رقم ٣٠٣١ واللفظ له.

﴿عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾ [الحشر: ٢-٤].

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم عنادهم وعدم نزولهم على رأيه، وطال حصارهم عمد النبي صلى الله عليه وسلم إلى خطة بارعة ليلقي الخوف في قلوبهم وينزلوا على أمره، فأمر بحرق نخيلهم، وقضى بذلك على أسباب تعلقهم بأموالهم وزروعهم، وضعفت حماستهم للقتال، وجزعوا وتصايحوا: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من يفعله، فما بال قطع النخيل وتخريبها؟

روى الطبري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (أن النبي صلى الله عليه وسلم حرق نخل بني النضير)[١].

وفي روايةٍ قال: (حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥])[٢].

ثم بين الله عز وجل مال الفيء وصفته وحكمه، وهو ما أخذ من الكفار من مال من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، وجعل الله عز وجل أمر الفيء خاصًّا للنبي صلى الله عليه وسلم فرده على المسلمين في وجوه البر ومصالحهم روى الثعلبي بسنده إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصةً، وكان ينفق على أهله نفقة سنته، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله)[٣].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٧٢.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ٥/ ٨٨، رقم ٤٠٣٢ ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها ٣/ ١٣٦٥، رقم ١٧٤٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٧٢، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٥٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٦٢.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ٥/ ٨٨، رقم ٤٠٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها، ٣/ ١٣٦٥، رقم ١٧٤٦.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ٢٧٢.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب المحن ومن يترس بترس صاحبه، ٤/ ٣٨، رقم ٢٩٠٤، ومسلم

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[الحشر: ٦].

قال المفسرون: إن بني النضير لما جلوا عن أوطانهم، وتركوا رباعهم وضياعهم، طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخمسها بينهم، كما فعل بغنائم بدر، فأنزل الله تعالى هذه الآية، يبين أنها فيء إذا لم يوجف المسلمون عليه خيلا ولا ركابًا، ولم يقطعوا إليه مسافة، فجعل الله تعالى أموال بني النضير لرسوله خاصة، يفعل فيها ما يشاء، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار شيئا منها، إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة وهم: أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة[(١)].

ثم أخبر الله عز وجل أن حكم فيء بني النضير لا يقتصر على هذه الواقعة، ولكنه عام في كل ما يفتح بهذه الطريقة، ثم بين وجوه صرفها.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[الحشر: ٧].

ثم كشف الله عز وجل عن العلاقة التي تجمع بين المنافقين واليهود، وذلك من خلال تضامنهم، ووحدة هدفهم في القضاء على الإسلام والمسلمين، وهو ما وقع من المنافقين ووعدهم اليهود بمآزرتهم، ثم خلفهم لهذا الوعد، قال الطبري رحمه الله: ذكر أن الذين نافقوا عبد الله بن أبي ابن سلول، ووديعة ومالك ابنا نوفل، وسويد، وداعس، بعثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للحرب أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا لذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة[(٢)].

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١-١٢].

في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب حكم الفيء، ٣/ ١٣٧٦، رقم ١٧٥٧.

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٧٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٨٩.

وفصل الفخر الرازي معنى الأخوة المذكورة وذكر أنها تحتمل وجوها:

أحدها: الأخوة في الكفر، لأن اليهود والمنافقين كانوا مشتركين في عموم الكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام.

ثانيها: الأخوة بسبب المصادقة والموالاة والمعاونة.

ثالثها: الأخوة بسبب ما بينهما من المشاركة في عداوة محمد عليه الصلاة والسلام[1]، والواقع أن التعبير القرآني يجمع كل ذلك[2].

وبين كتاب الله السر في فشل يهود بني النضير وحلفائهم من المنافقين، وهو أنهم يخشون المخلوق أكثر من الخالق لأنهم لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته، ثم أطلع المسلمين على سياسة اليهود القتالية، وأنهم من جبنهم وهلعهم لا يجرؤون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة، فهم يقاتلون إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، وما يدور من تحالفات بين اليهود والمنافقين إنما هو تحالف مصالح وأغراض إن اتفقت حينًا اختلفت أخرى.

قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٣-١٤].

وقد ضرب الله لهم المثل بما حل بيهود بني قينقاع وحاق بهم للاعتبار والعظة.

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١٥].

وشبه الله تعالى موقف المنافقين مع اليهود ووعودهم بنصرتهم، وأنهم لما جد بهم الحصار وأيقنوا بالقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للتهلكة، مثلهم بالشيطان، حينما طلب من الإنسان أن يكفر فلما كفر تبرأ منه.

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

رابعًا: علاقة قصة غزوة بني النضير بموضوع سورة الحشر:

تقص آيات سورة الحشر واقعة يهود بني النضير، وقد ورد فيها أغلب آيات السورة، حتى أطلق عليها سورة بني النضير كما تقدم، وقد ذكرت الآيات أهم أركان الغزوة بما ينفع المسلمين في تعاملهم مع أعدائهم من اليهود، وهي:

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٠٩.
(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن كثير ٣/ ١٤٦.

❁ الاكتفاء بالأسباب دون التوكل علي المسبب لا يكفي في تحقيق النصر، فقد اعتمد اليهود على قوتهم المادية وعلى لن يهزموا أمام قوة المسلمين، لكنهم تناسوا أن الحق سبحانه معهم وهو ناصر عباده المؤمنين.

ثم بين سبحانه وتعالى حكم الفيء، وكيفية تقسيمه.

❁ علاقة اليهود بالمنافقين علاقة أخوة ظاهرية، بدلالة أنهم بعدما وعدوا اليهود بمآزرتهم ونصرهم، خذلوهم وأخلفوا وعودهم معهم، فمثلهم كمثل الشيطان حينما وعد الإنسان إن هو كفر أن يحقق له ما يطلبه ويتمناه، فلما كفر الإنسان تركه الشيطان وتبرأ منه، وهكذا شأن المنافقين مع اليهود.

ثم كشف الحق سبحانه وتعالى عن سياسة اليهود القتالية، وأنهم جبناء فهم أحرص الناس على الحياة، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

وفي ذلك تثبيت للمؤمنين وتحريضهم على قتالهم.

نتائج الغزوة:

١. هزيمة اليهود وانتصار المسلمين.

٢. تأكيد اليهود لمعنى الغدر والخيانة ونقض العهود.

٣. كشف علاقة المنافقين مع اليهود، وذلك من خلال تواطؤ عبد الله بن أبي ابن سلول ومن تبعه من المنافقين مع اليهود.

٤. نكث المنافقين للعهود، وخلفهم للوعد، فبعد أن وعد عبد الله بن أبي ابن سلول اليهود بنصرتهم ومعاضدتهم، أسلمهم ونكث في وعده.

٥. إجلاء يهود بني النضير من المدينة المنورة.

٦. إسلام رجلين من بني النضير، هما: يامين بن عمير بن كعب، وأبو سعد بن وهب، فأحرز النبي صلى الله عليه وسلم أموالهما لهما ولم يقسمها[1].

٧. تشريع حكم الفيء في الإسلام.

٨. تكشف طبيعة اليهود التي تتسم بالأذى والفساد، وذلك من خلال تخريبهم لبيوتهم بأيديهم وهم خارجون منها لئلا ينتفع بها من بعدهم من المسلمين.

٩. غنائم المسلمين من الغزوة، وقدرت بخمسين درعًا، وخمسين بيضةً[2]، وثلاثمائة وأربعين سيفًا، وقد

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٥٩، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ابن حبان ١/ ٢٣٤ - ٢٣٧.

(٢) البيضة: الخوذة.



جعلها الله عز وجل خالصةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يخمسها، ولم يسهم منها لأحد، ولكنه قسمها بين المهاجرين والأنصار، بعد أن استبقى قسمًا خصصت غلته للكراع[1] والسلاح.

١٠. هذا بخلاف ما حمله اليهود معهم، حيث حملوا أمتعتهم على ستمائة بعير، ومعهم كميات كبيرة من الذهب والفضة حتى إن سلام بن أبي الحقيق وحده حمل جلد ثور مملوءًا ذهبًا وفضة، بخلاف ما تركوه من النخيل، مما يؤكد ثراء بني النضير وغناهم، وأنهم لم يرعوا تلك النعم التي أنعم الله بها عليهم[2].

١١. لؤم اليهود ومكرهم، فبالرغم من عفو النبي صلى الله عليه وسلم عن قتلهم، فقد خرجوا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن من خلفهم، حتى لا يشمت بهم المسلمون، فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات الشام[3][4].

١٢. اغتناء المهاجرين وإعفافهم، حيث صارت لهم أموال من بني النضير، وردهم ما أشركهم فيه إخوانهم من الأنصار من الأموال[5].

١٣. إيثار الأنصار إخوانهم المهاجرين بالفيء، حيث قبلوا قسمة النبي صلى الله عليه وسلم للفيء على المهاجرين ولم يمتعضوا أو يتضجروا[6].

انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ١٧٢.

(١) الكراع: اسم لجميع الخيل.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ١٦٥.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٤٢٣، السيرة الحلبية، أبو الفرج الحلبي ٢/ ٥٦٦، الروض الأنف، السهيلي ٦/ ١٦٨.

(٣) أذرعات: بلد في أطراف الشام، يجاور أرض البلقاء وعمان.
انظر: معجم البلدان، الحموي ١/ ١٣٠.

(٤) انظر: التفسير الحديث، دروزة ٧/ ٣٠٦.

(٥) عيون الأثر، ابن سيده ٢/ ٧٣.

(٦) أخرج القصة مختصرة البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب العين الجارية في المنام، ٩/ ٣٨، رقم ٧٠١٨.
وأخرجها مطولة الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ٢/ ٤٩٣، رقم ٣٦٩٦.

غزوة بني قريظة

لم يعتبر يهود بني قريظة[1] وهم الطائفة الثالثة والأخيرة من طوائف اليهود الذين سكنوا المدينة، بما حاق بأسلافهم من بني قينقاع والنضير حينما نقضوا العهد، وحنثوا فيه، فالغدر دأب أصيل لا ينفك عنهم والمكر والخداع طبع لا يفارقهم.

قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

ولذا وصفهم الخالق سبحانه وتعالى بأخس الصفات، وهي شر ما دب على الأرض.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٦].

نزلت هذه الآيات في بني قريظة[2].

قال الطبري: ﴿الَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ يا محمد، يقول: أخذت عهودهم ومواثيقهم أن لا يحاربوك، ولا يظاهروا عليك محاربًا لك، كقريظة ونظرائهم ممن كان بينك وبينهم عهد وعقد[3].

وقد كانت غزوة بني قريظة آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود في المدينة، إذ تطهرت المدينة عقبها من رجسهم وأحقادهم، وأمن المسلمون بعدها على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، بعد القضاء على الخطر الذي كان يهددهم فيها.

أولًا: زمان الغزوة ومكانها:

أما الزمان: فمن المعلوم أن غزوة بني قريظة كانت عقب غزوة الخندق، فبعد انتهاء النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق توجه مباشرة صوب بني قريظة، ولقربهما جمعهما بعض المفسرين في وقت واحد فقال: غزوة الأحزاب أو الخندق وبني قريظة[4].

وقد ذهب الجمهور من أهل التفسير والسير والمغازي إلى أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوال من السنة الخامسة[5].

قال ابن كثير: والصحيح قول الجمهور أن أحدًا في شوال سنة ثلاث، وأن الخندق

---

(١) قريظة: بضم القاف، وفتح الراء، وسكون التحتية، وبالظاء المعجمة، قال السمعاني: اسم رجل نزل أولاده قلعة حصينة بقرب المدينة، فنسبت إليهم، وقريظة والنضير أخوان من أولاد هارون.
انظر: الأنساب، السمعاني ١٠/ ٣٧٩.
وقيل: إن بني قريظة كانوا يزعمون أنهم من ذرية شعيب نبي الله، قال الحافظ ابن حجر: وهو محتمل.
انظر: فتح الباري ٧/ ٤٠٨.
(٢) التفسير الوسيط ٣/ ١٦٣٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١.
(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ٢٥٥.
(٥) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ٦٥، شذرات الذهب، ابن العماد ١/ ١٢٢.

في شوال سنة خمس من الهجرة والله أعلم[1].

وذهب بعض العلماء إلى أنها كانت في السنة الرابعة منهم: الإمام مالك بن أنس[2]، وموسى ابن عقبة[3]، وابن قتيبة[4]، والبخاري[5]، وابن حزم[6].

وقد حاول البيهقي رحمه الله الجمع بين القولين فقال بعد أن أورد الأقوال في ذلك: «لا اختلاف بينهم في الحقيقة، وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل يوم بدر لسنة ونصف من مقدمه المدينة في شهر رمضان.

ثم قاتل يوم أحد من السنة القابلة لسنتين ونصف من مقدمه المدينة في شوال.

ثم قاتل يوم الخندق بعد أُحُد بسنتين على رأس أربع سنين ونصف من مقدمه المدينة.

فمن قال: سنة أربع، أراد بعد أربع سنين، وقبل بلوغ الخمس.

ومن قال: سنة خمس، أراد بعد الدخول في السنة الخامسة وقبل انقضائها. والله أعلم»[7].

قال ابن العماد: وجزم ابن ناصر الدين، أنهما -أي: الخندق وبني قريظة- في الخامسة، وهذا هو الصحيح، لأنه توجه صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة في اليوم الذي انصرف فيه من الأحزاب[8].

وعن عائشة رضي الله عنها: **(أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع يوم الخندق، ووضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار، فقال: وضعت السلاح فوالله ما وضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأين؟ قال: ها هنا، وأومأ إلي بني قريظة، قالت: فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم)**[9].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: **(قال النبي صلى الله عليه وسلم لنا لما رجع من الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)**[10].

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٨٣.
(2) شذرات الذهب، ابن العماد ١/ ١٢٢، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي ١/ ١٣.
(3) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٨٤، فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٣٩٣.
(4) المعارف ص ٧٠.
(5) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٣٩٣.
(6) جوامع السيرة ص١٤٧.
(7) دلائل النبوة ٣/ ٣٩٥.
(8) انظر: شذرات الذهب، ابن العماد ١/ ١٢٢، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي ١/ ١٣.
(9) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٧٣، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٢٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٠٠.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الغسل بعد الحرب والغبار، ٤/ ٢١، رقم ٢٨١٣.
(10) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبًا وإيماءً، ٢/ ١٥، رقم ٩٤٦.

وأما المكان: فقد وقعت الغزوة في منازلهم، وكانت تقع في الجنوب الشرقي للمدينة شرقي قباء، حيث يمر وادي مهزور والتي تبعد حوالي ٥ كم عن المسجد النبوي في منطقة لا تزال معروفة قرب سد بطحان[١].

ثانيًا: أسباب الغزوة:

كانت بنو قريظة تمثل خطرًا وشوكة في ظهر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فهم من ساكني المدينة، وهم أعلم بها من غيرهم ممن لم يسكنها، وحصونهم خلف المسلمين، وفي أقرب وقت يستطيعون محاربة المسلمين وقتالهم، ورغم العهد الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنهم لم يراعوه، وسرعان ما نقضوه.

فعقب انتهاء النبي صلى الله عليه وسلم من أمر بني النضير توجه كعب بن الأشرف إلى كفار مكة، يستقويهم على قتال النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وجعل يمدح دينهم، وهو عبادة الأوثان، ففضحه الله تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١][٢].

ولم يكتف اليهود بذلك، بل غدروا في أشد الأوقات وأحلك الظروف، حينما تحالفوا مع قريش وغطفان وتآمروا معهم على قتال المسلمين.

ومن ذلك ما رواه ابن كثير: أن نفرًا من اليهود، منهم كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وحيي بن أخطب النضريون، وهوذة بن قيس وأبو عمار من بني وائل، وهم كلهم يهود، خرجوا في نفرٍ من بني النضير ونفرٍ من بني وائل، فأتوا مكة، فدعوا قريشًا إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعدوهم من أنفسهم بعون من انتدب إلى ذلك، فأجابهم أهل مكة إلى ذلك، ثم خرج اليهود المذكورون إلى غطفان فدعوهم إلى مثل ذلك فأجابوهم.

فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري على فزارة، والحارث بن عوف المري على بني مرة ومسعود بن رخيلة على أشجع قاصدين المدينة لقتال النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين[٣].

ولما وصلت الجموع قرب المدينة وسلط الله عليهم جنوده من الريح والبرد الشديد، انتكسوا على أعقابهم وفرق الله

---

(١) انظر: معجم البلدان، الحموي ١/ ٤٤٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٦٨، تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٩٧٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٨٤.

تعالى جموعهم وألقى الرعب في قلوبهم، وعادت قريش وغطفان مهزومين دون تحقيق ما أتوا من أجله، فلم يلبث النبي صلى الله عليه وسلم من عودته من الخندق حتى أمره الله أن يتوجه لهؤلاء الأوغاد ليقضي فيهم بحكمه تعالى، قال مقاتل بن سليمان: «حين هزم المشركين عن الخندق بالريح والملائكة أتى جبريل عليه السلام على فرس، فقال: **سر إلى بني قريظة فإن الله عز وجل داقهم لك دق البيض على الصفا**»[1].

كانت هذه هي الأسباب التي دفعت النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين إلى قتالهم.

ثالثًا: حديث القرآن عن الغزوة:

تحدث القرآن الكريم عن أهم وقائع غزوة بني قريظة، وخصت سورة الأحزاب بذكرها، قال ابن كثير رحمه الله: غزوة الخندق هي: غزوة الأحزاب، وقد أنزل الله تعالى فيها صدر سورة الأحزاب[2].

فقال تعالى مخبرًا عن نعمه وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم، قريش وغطفان والذين بلغ عددهم عشرة آلاف، حينما تألبوا عليهم، ونزل المشركون شرق المدينة قريبًا من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي المدينة قريبًا منهم، ومن فوقهم يهود بني قريظة وكان عددهم نحوًا من ثمانمائة مقاتل، وكان عدد المسلمين إذ ذاك ثلاثة آلاف، هنالك ارتعدت فرائص المؤمنين ودب الخوف في قلوبهم.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

وقد ظهرت هذه النعمة حينما قورنت بالواقع الذي عاشه النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام.

روى الطبري بسنده عن محمد بن كعب القرظي، قال: (قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، لحملناه على أعناقنا، قال حذيفة: يا ابن أخي، والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق، وصلى رسول الله هويا من الليل، ثم التفت

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٤٨٥.
(٢) السيرة النبوية، ابن كثير ٣/ ١٧٨.

إلينا فقال: (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم إن يرجع أدخله الله الجنة).

فما قام أحد، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل، ثم التفت إلينا فقال مثله، فما قام منا رجل، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل، ثم التفت إلينا فقال: (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع، يشترط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة).

فما قام رجل من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد؛ فلما لم يقم أحد، دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: (يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر، ولا تحدثن شيئًا حتى تأتينا).

قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء؛ فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه، فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان؛ ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك الكراع والخف، واختلفت بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما يطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل.

ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي أن لا تحدث شيئًا حتى تأتيني، لو شئت لقتلته بسهم.

قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه؛ فلما رآني أدخلني بين رجليه، وطرح علي طرف المرط، ثم ركع وسجد وإني لفيه؛ فلما سلم أخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم)[1].

وعن مجاهد في قوله: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ قال: الأحزاب: عيينة بن بدر، وأبو سفيان، وقريظة[2].

ثم صورت الآيات المشهد، ومواقع الأحزاب.

قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾

[الأحزاب: ١٠-١١].

قال يزيد بن رومان قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢١٥.
(٢) تفسير مجاهد ص ٥٤٧.

﴿فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ فالذين جاءوهم من فوقهم: قريظة، والذين جاءوهم من أسفل منهم: قريش وغطفان[1].

وفي هذا الوقت العصيب ظهر إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين، حيث شك المنافقون في وعد الله، قال قتادة: قال أناس من المنافقين: قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا هاهنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا[2].

وانسحب بعضهم من المعركة بحجة أن بيوتهم عورة يخافون عليها السرقة وما هي بعورة، فهم يريدون الفرار من الزحف، ولو دخل الكفار عليهم من كل جهة من جهات المدينة ثم سئلوا الكفر لكفروا سريعًا وما ترددوا، وسيسألهم الله تعالى عن عهدهم الذي نقضوه مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقد عينهم عبد الله بن عباس رضي الله عنه بأنهم بنو حارثة[3].

كما أخبر القرآن أن فرارهم لن ينجيهم من الموت إذا حل بهم، وأنه لا عاصم لهم من أمر الله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٢-١٧].

ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه بالمعوقين غيرهم ممن شهد الحرب، والمثبطين لعزائمهم بقولهم هلم إلى الإقامة في الظلال والثمار، وهم مع ذلك بخلاء بالمودة والشفقة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم يجزعون ويفزعون كالذي اقترب أجله، فإذا ذهب الخوف، ارتفعت أصواتهم لطلب الغنيمة، أما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق، وهم بذلك قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير.

قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢١٨، تفسير السمعاني ٤/ ٢٦٣، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٥٧٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٢٣، تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣١٢٠.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥١.

﴿ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨-٢٠].

قال الطبري: يحسب هؤلاء المنافقون الأحزاب، وهم قريش وغطفان، لم ينصرفوا، وإن كانوا قد انصرفوا جبنا وهلعا منهم[(١)].

فيظنون أنهم قريبون منهم وأن لهم عودة، فإذا عاد الأحزاب ودوا لو أنهم ليسوا معكم في المدينة بل في البادية يسألون عن أخباركم، ولو كانوا بين أظهركم ما قاتلوا معكم إلا قليلًا لجبنهم وذلتهم وقلة يقينهم بالله تعالى، ثم علمهم الله تعالى أن عليهم الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

أي: هلا اقتديتم وتأسيتم بشمائله صلى الله عليه وسلم.

ثم أخبر الله تعالى عن حال المؤمنين الصادقين حينما نزل بهم البلاء، ورأوا الأحزاب، فما زادهم ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا وتصديقًا بوعد الله تعالى، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

أي: انقيادًا لأوامره وطاعةً لرسوله صلى الله عليه وسلم.

قال الطبري: ولما عاين المؤمنون بالله ورسوله جماعات الكفار قالوا تسليمًا منهم لأمر الله، وإيقانا منهم بأن ذلك إنجاز وعده لهم، الذي وعدهم[(٢)].

ثم عدد الله صفات المؤمنين في مقابلة المنافقين الذين نقضوا العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم، وأن المؤمنين ثبتوا على العهد والميثاق ولم ينكثوا أو يتراجعوا أو يبدلوا.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٣-٢٤].

وورد في سبب نزول هذه الآية ما قاله أنس بن مالك رضي الله عنه: نرى هذه الآيات نزلت في أنس بن النضر رضي الله

(١) جامع البيان ٢٠/ ٢٣٤.

(٢) المصدر السابق ٢٠/ ٢٣٦.

عنه[1].

وأورد الطبري سبب نزولها في أنس بن النضر، فروى بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (غاب أنس بن النضر عن قتال يوم بدر، فقال: غبت عن قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين، لئن أشهدني الله قتالا ليرين الله ما أصنع؛ فلما كان يوم أحد، انكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون، وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين، فمشى بسيفه، فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أي سعد، إني لأجد ريح الجنة دون أحد، فقال سعد: يا رسول الله، فما استطعت أن أصنع ما صنع، قال أنس بن مالك: فوجدناه بين القتلى، به بضع وثمانون جراحة، بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، فما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه، قال أنس: فكنا نتحدث أن هذه الآية نزلت فيه، وفي أصحابه)[2].

ثم أخبر تعالى أنه رد كيد الكافرين بدون قتال، بأن أرسل عليهم الريح والجنود الإلهية.

(1) أسباب النزول الواحدي صـ ٣٦٧.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فمنهم من قضى نحبه)، ٦/ ١١٦، رقم ٤٧٨٣.

(2) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٤٠.
والحديث أخرجه أحمد في مسنده ٢٠/ ٣١٨، رقم ١٣٠١٥، بإسناد صحيح.

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ به وبرسوله من قريش وغطفان، بكربهم وغمهم، بفوتهم ما أملوا من الظفر، وخيبتهم مما كانوا طمعوا فيه من الغلبة، لم يصيبوا من المسلمين مالا ولا إسارا ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بجنود من الملائكة والريح التي بعثها عليهم[3].

وبعث الله تعالى جندًا من الملائكة لتثبيت المؤمنين، قال أنس رضي الله عنه: (كأني أنظر إلي الغبار ساطعًا في زقاق بني غنم، موكب جبريل صلوات الله عليه حين سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة)[4].

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم عليهم فقال: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[5].

(3) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٤٢.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، ٥/ ١١٢، رقم ٤١١٨.

(5) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٠.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، ٤/ ٤٤، رقم

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

قال الطبري: وأنزل الله الذين أعانوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وعنى بذلك بني قريظة[(١)]، وقذف في قلوبهم الرعب والخوف، فريقًا تقتلون وتأسرون فريقًا، إشارة إلى حكم سعد بن معاذ فيهم من قتل الرجال وسبي النساء والذرية، ثم أخبر سبحانه عن فضله على المؤمنين بما نالوه من الغنائم نتيجة صبرهم وثباتهم على وعد الله، فقال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

أي: جعلها ملكًا لكم من قتلكم لهم، والمراد بالأرض التي لم يطؤوها: خيبر أو مكة أو أرض فارس والروم.

قال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مرادًا[(٢)].

وقد حث القرآن الكريم أثناء الغزوة على نبذ الخيانة والبعد عنها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

قال بعض المفسرين: نزلت في أبي لبابة، في الذي كان من أمره وأمر بنى قريظة، قال الزهري: نزلت في أبي لبابة، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار إلى حلقه: إنه الذبح، قال الزهري: فقال أبو لبابة: لا والله، لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت[(٣)]. وذلك لأنه أفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهم.

رابعًا: علاقة قصة غزوة بني قريظة بموضوع سورة الأحزاب:

تناولت سورة الأحزاب عدة موضوعات، من أهمها غزوة الأحزاب التي سميت السورة بها، وغزوة بني قريظة كانت تابعة لغزوة الأحزاب، لأنها كانت عقبها مباشرة بدون فصل بينهما، كما أنهما مشتركتان في الأسباب، وقد عرضت الآيات جانبًا هامًّا من جوانب هذه الغزوة، فذكرت نعم الله على المؤمنين في صرفه أعداءهم منهزمين بدون قتال، وفى كشفه للطائفة المخادعة ممن نطقوا بالشهادتين ظاهرًا دون العمل بها، وهم المنافقون، حتى يحذرهم المؤمنون ولا يركنوا إليهم، كما كشفت الآيات عن ثبات المؤمنين مهما

٢٩٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو، ٣/ ١٣٦٣، رقم ١٧٤٢.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٤٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٤٣- ٣٥٥.

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ١٠٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٥٣.

تعرضوا للشدائد والمحن، فإن ذلك لا يثني عزيمتهم ولا يضعف من عقيدتهم، وقد كافأهم الله عز وجل نتيجة صبرهم، فرد أعداءهم خائبين لم ينالوا خيرا، ونصرهم على الفئة الخائنة الباغية، فأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وأمنهم في موطنهم بالقضاء على آخر معاقل اليهود في المدينة.

خامسًا: نتائج الغزوة:

١. هزيمة اليهود وانتصار المسلمين عليهم.

٢. تأكيد هوية اليهود، وتثبيت صورتهم في أذهان المسلمين، في غدرهم ونقضهم العهد.

٣. مشروعية جواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عادل أهل للحكم: وذلك في تولية النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ رضي الله عنه الحكم على بني قريظة، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سعد فأتى على حمارٍ، فلما دنا من المسجد قال للأنصار: **(قوموا إلى سيدكم، أو خيركم)** فقال: **(هؤلاء نزلوا على حكمك)** فقال: تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم، قال: **(قضيت بحكم الله)** وربما قال: **(بحكم الملك)**[(١)].

٤. مشروعية قتل المرأة إذا اشتركت في القتال، أو تعرضت لسب النبي صلى الله عليه وسلم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: **(لم يقتل من نسائهم -تعني: بني قريظة- إلا امرأة واحدة، إنها لعندي تحدث، تضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالهم بالسيوف، إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة؟ قالت: أنا، قلت: وما شأنك؟ قالت: حدث أحدثته، قالت: فانطلق بها فضربت عنقها، فما أنسى عجبًا منها أنها تضحك ظهرًا وبطنًا وقد علمت أنها تقتل)**[(٢)]. قال الواقدي: كانت قد قتلت خلاد بن سويد، رمت عليه رحى، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها وضربت عنقها بخلاد بن سويد[(٣)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٤٦. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب، ٥/ ١١٢، رقم ٤١٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم، ٣/ ١٣٨٩، رقم ١٧٦٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٤٩. والحديث أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء، ٣/ ٥٤، رقم ٢٦٧١.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٢٨، معالم

وقال الخطابي رحمه الله: يقال: إنها كانت شتمت النبي صلى الله عليه وسلم وهو الحدث الذي أحدثته وفي ذلك دلالة على وجوب قتل من فعل ذلك[1].

٥. مشروعية النهي عن قتل الأطفال في الحرب، فعن عطية القرظي، قال: كنت من سبي بني قريظة، فكانوا ينظرون، فمن أنبت الشعر قتل، ومن لم ينبت لم يقتل، فكنت فيمن لم ينبت[2].

٦. مشروعية الجمع بين الصلوات للضرورة، حيث أخر النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العصر، إلى ما بعد الغروب، بسبب الأحزاب، قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس)**[3]. وهذا يدل على جواز الجمع جمع تأخير.

٧. تقسيم الغنائم، وكانت غنائم بني قريظة كثيرة بالنسبة لما سبقها، وخصوصًا في الأموال المنقولة، ولذلك كان التوزيع فيها تطبيقًا للنص القرآني ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]. قال ابن إسحاق رحمه الله: قَسَمَ أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأَعْلَمَ في ذلك سُهْمَانَ الخيلِ وسُهْمَانَ الرجال، وأخرج منها الخمس -أي: خمس الله ورسوله وذي القربى-، وكان من بعد الخمس في أربعة الأخماس، فكان للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان، ولفارسه سهم، وللراجل -من ليس له فرس- سهم، وكانت الخيل يوم بني قريظة ستا وثلاثين، وكان أول فيء وقع فيه السهمان، وأخرج منهما الخمس، فعلى سنتها وما مضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت المقاسم، ومضت السنة في المغازي[4].

التنزيل، البغوي ٣/ ٦٣٠.

(١) معالم السنن ٢/ ٢٨١.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٦٨، لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٤٢.
والحديث أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب في الغلام يصيب الحد، ٤/ ١٤١، رقم ٤٤٠٤، والنسائي في سننه، كتاب الطلاق، باب متى يقع طلاق الصبي ٦/ ١٥٥، رقم ٣٤٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، ٤/ ٤٣، رقم ٢٩٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي: صلاة العصر، ١/ ٤٣٦، رقم ٦٢٧.

(٤) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٢٩، معالم

٨. وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه، حيث توفي عقب حكمه في بني قريظة مباشرة نتيجة جرح أصيب به، وقد ظهر من إكرام الله تعالى له ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، وذلك لحكمه في بني قريظة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إن الملائكة كانت تحمله)[1].

٩. خلو المدينة تمامًا من الوجود اليهودي، الذي كان عنصرًا خطرًا، لديه القدرة على المؤامرة والكيد والمكر.

١٠. القضاء على أمل قريش في وجود حليف لها داخل المدينة، فبعد غزوة بني قريظة انتهت محاولاتها للنيل من المسلمين، أو الاعتداء عليهم.

غزوة يهود خيبر

سميت خيبر بهذا الاسم نسبة إلى رجل من العماليق نزلها، وهو خيبر بن قانية بن مهلايل، وقال الحموي: أما لفظ خيبر فهو بلسان اليهود: الحصن[2].

وكان فتح خيبر بمنزلة وعد من الله عز وجل لعباده المؤمنين، فبعد عودتهم من الحديبية وبيعتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، وهي: بيعة الرضوان، دون أن يحققوا مرادهم وهو زيارة البيت الحرام، أو أن يجنوا غنائم، أراد الله تعالى أن يجازيهم بامتثالهم أمر الله تعالى وأمر رسوله، وما لاقوه من عناء وشدة، وكان الجزاء وافيًا حيث وفى الله تعالى لهم طاعتهم تلك وامتثالهم وصبرهم بجزائين: معنوي ومادي.

أما المعنوي: فهو إسباغ الرضى الإلهي عليهم، وإنزال السكينة والطمأنينة على قلوبهم، بسبب ما عمله في نفوسهم من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة.

وأما الجزاء المادي: فهو فتح خيبر، وغنائمها وأموالها.

وكان يهود خيبر من أقوى الطوائف

(١) انظر: التفسير المظهري ٧/ ٣٢٩.
التنزيل، البغوي ٣/ ٦٣١.
والحديث أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب سعد بن معاذ، ٦/ ١٧٣، رقم ٣٨٤٩.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ١٠٥١، رقم ٣٣٤٧.

(٢) انظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، البكري ٢/ ٥٢٣، معجم البلدان، الحموي ٢/ ٤٠٩، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، البغدادي ١/ ٤٩٤، الروض الأنف، السهيلي ٧/ ٨٦.

اليهودية في بلاد الحجاز وأكثرهم عددًا وعدة وأمنعهم حصونًا[1]، وهم على عادة اليهود، استحكم بهم المكر، وغرهم المال والسلاح الذي بأيديهم.

وحوت حصون خيبر عشرة آلاف مقاتل، كانوا يخرجون كل يوم صفوفًا يستعرضون قوتهم، ويسخرون من قوة المسلمين وهم يرددون: «محمد يغزونا، هيهات! هيهات!»[2].

أولًا: زمان الغزوة ومكانها:

أما الزمان: فاختلف في تحديد وقتها علي أقوال:

- جاء في تفسير ابن المنذر عن ابن إسحاق قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بقية المحرم سنة سبع، فأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها في صفر[3]. وذكر الحافظ ابن حجر أقوالًا أخرى وهي:
- قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: كان فتح خيبر سنة ست.
- قال الحافظ: نقل الحاكم عن الواقدي، وكذا ذكره ابن سعد أنها كانت في جمادى الأولى، قال الحافظ: فالذي رأيته في مغازي الواقدي: إنها كانت في صفر.
- وقيل: كانت في ربيع الأول.
- وأغرب من ذلك ما رواه ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (خرجنا إلى خيبر لثمان عشرة من رمضان) الحديث[4]. قال الحافظ ابن حجر: وإسناده حسن، إلا أنه خطأ، ولعلها كانت إلى حنين فتصحفت، وتوجيهه بأن غزوة حنين كانت ناشئة عن غزوة الفتح، وغزوة الفتح خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها في رمضان جزمًا.
- أنها كانت سنة خمس، قال الحافظ ابن حجر: وهو وهم، ولعله انتقال من الخندق إلى خيبر، وأجاب بعضهم بأنه أسقط سنة المقدم، أي: وقطع النظر عن سنة الغزوة[5].

والذي يظهر: أنها كانت في السنة السابعة، وهذا ما رجحه الجمهور، قال ابن القيم رحمه الله: الجمهور على أنها في السابعة[6].

وعلق الحافظ ابن حجر على ما سبق من أقوال فقال: وهذه الأقوال متقاربة، والراجح

---

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٣٢٨.
(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٦٣٤.
(٣) تفسير ابن المنذر ١/ ٢٤١. وانظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٧٧.
(٤) انظر: مصنف ابن أبي شيبة، ٧/ ٣٩٤، رقم ٣٦٨٨٠.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٤٦٤.
(٦) زاد المعاد ٣/ ٢٨١.

منها ما ذكره ابن إسحاق، ويمكن الجمع بأن من أطلق سنة ست بناه على أن ابتداء السنة من شهر الهجرة الحقيقي وهو ربيع الأول وهو ابن حزم، ولذا جزم أن خيبر سنة ست لكن الجمهور على أن التاريخ وقع من المحرم[(١)(٢)].

وأما المكان: فوقعت الغزوة في خيبر وهي: مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، تبعد عن المدينة حوالي ١٦٥ كيلو متر شمالًا على طريق الشام[(٣)].

وكان أهلها يسكنون في حصون، وكانت حصونهم ثلاثة مجاميع، تمتد من الجنوب إلى الشمال، يتخللها النخيل والزروع والمنازل المتفرقة، وهذه المجاميع هي: النطاة، والشق، والكتيبة.

أما النطاة: فكانت ثلاثة حصون: ناعم، والصعب، وقلة.

وأما الشق: فكانت حصنين، أبي، والبريء.

وأما الكتيبة: فكانت ثلاثة حصون، القموص، الوطيح، والسلالم[(٤)].

ثانيًا: أسباب الغزوة:

لما اطمأن النبي صلى الله عليه وسلم من خطر اليهود في المدينة بالقضاء على آخر معقل لهم وهم بنو قريظة، والذين كانوا يشكلون تهديدًا محققًا، وأمن جانب قريش بعقد الهدنة معهم ومع حلفائهم تباعًا في الحديبية، أراد أن يقضي على الخطر المحدق به والذي يهدد أمنه واستقراره من جهة الشمال، وهو تجمع اليهود في خيبر.

حيث استقر بعض زعماء بني النضير وأتباعهم في خيبر بعد أن أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة وتزعموا يهود المنطقة، وساقوهم إلى عداء المسلمين، كما أنهم هم من ذهبوا وحرضوا قريشا وقبائل العرب من أسد وغطفان وغيرها على التحزب والزحف على المدينة لاستئصال شأفة الإسلام، كما حرضوا زعماء بني قريظة على الغدر والنكث مما نتج عنه وقعة الأحزاب ثم وقعة بني قريظة.

وقد استمروا على عدائهم بعد ذلك وظلوا يحرضون قبائل العرب ويغرونهم بغزو المدينة، مما حدا بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السير إليهم، للقضاء على هذا الخطر الذي يهدد أمن المسلمين

(١) فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٤٦٤.
(٢) انظر: مغازي الواقدي ٢/ ٦٣٤، السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٣٢٨، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ابن حبان ١/ ٣٠٠، جوامع السيرة، ابن حزم ص١٦٧.
(٣) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، البكري ٢/ ٥٢١، معجم البلدان، الحموي ٢/ ٤٠٩، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، السمهودي ٤/ ٧٤.
(٤) التفسير المظهري ٩/ ٢٦.

واستقرارهم[1].

ثالثًا: حديث القرآن عن الغزوة:

جاء الحديث عن غزوة خيبر في القرآن ضمن الحديث عن صلح الحديبية، فبعد أن انتهى النبي صلى الله عليه وسلم من أمر مشركي مكة بالهدنة في الحديبية، وكان قد تخلف عنه أناس أرادوا الخروج لمجرد الغنيمة، فلما علموا بخروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيبر وبها غنائم كثيرة، طلبوا منه أن يخرجوا معه، لكن النبي صلى الله عليه وسلم رفض أن يخرجوا معه لأنهم تخلفوا عن الحديبية بدون عذر، وكان خروجهم لطلب الغنائم لا لنصرة دين الله.

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الفتح: ١٥].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: سيقول يا محمد المخلفون في أهليهم عن صحبتك إذا سرت معتمرا تريد بيت الله الحرام، إذا انطلقت أنت ومن صحبك في سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك وعليهم من الغنيمة ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ وذلك ما كان الله وعد أهل الحديبية من غنائم خيبر ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر، فنشهد معكم قتال أهلها ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ يقول: يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد أهل الحديبية، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم، ووعدهم ذلك عوضًا من غنائم أهل مكة إذا انصرفوا عنهم على صلح، ولم يصيبوا منهم شيئًا[2].

وذلك أنهم لما منعوا من دخول مكة لأداء العمرة، بايعهم النبي صلى الله عليه وسلم على القتال، ثم صالحهم أهل مكة بما عرف بصلح الحديبية، فلم يظفروا بشيء من الغنائم التي ترقبوها عقب البيعة.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن مكافأته لمن صحب النبي وبايعه وامتثل أمره ممن شهد الحديبية.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

قال الطبري: وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب ما قاله مجاهد، وهو أن الذي أثابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب، المغانم الكثيرة من مغانم خيبر، وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية

(١) انظر: التفسير الحديث، دروزة ٨/ ٦٠٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢١٥.

غنيمة، ولم يفتحوا فتحًا أقرب من بيعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها[1].

وقوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٩].

قال الطبري: هي سائر المغانم التي غَنَّمَهُمُوها اللهُ بعد خيبر، كغنائم هوازن، وغطفان، وفارس، والروم[2].

ثم وصف الله تعالى الغنائم بأنها كثيرة، ومن مزيد فضله أنه كف أيدي اليهود عنهم، كما قال قتادة[3].

قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠].

قال مجاهد: هي جميع الغنائم إلى اليوم، والمعجلة هي: فتح خيبر[4].

وفي هذه الغزوة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بأم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب، فتكلم بعض الناس على زواجه صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «نزلت في الذين طعنوا على النبي صلى الله عليه وسلم حين اتخذ صفية بنت حيي بن أخطب»[5].

رابعًا: علاقة قصة غزوة يهود خيبر بموضوع سورة الفتح:

سميت سورة الفتح بأهم ما تناولته من موضوعات وهو صلح الحديبية الذي عده الصحابة: الفتح الحقيقي، لا فتح مكة كما يتبادر إلى الأذهان، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية)[6].

وقد جاء ما يتعلق بغزوة خيبر من الآيات في صورة الوفاء بالوعد الذي وعده الله عباده المؤمنين من مكافأتهم بغنائم كثيرة، نتيجة طاعتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ومبايعتهم له، فحقق الله تعالى لهم وعده، ووفى أجرهم.

خامسًا: أهم نتائج الغزوة:

١. هزيمة اليهود وانتصار المسلمين.

٢. أحدث فتح خيبر دويًا هائلًا في

(١) المصدر السابق ٢٢/ ٢٣٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ٢٢/ ٢٣١.
(٤) تفسير العز بن عبد السلام ٣/ ٢٠٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٣٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٧٩.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، ٥/ ١٢٢، رقم ٤١٥٠.

الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، فقد أصيبت قريش بالإحباط إذ فقدت حليفًا طالما تآمر معها ضد المسلمين.

٣. إسراع كثيرٍ من القبائل الموالية لقريش إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم، مما ساعد على فتح مكة بعد ذلك، وفتح الباب واسعًا أمام نشر الإسلام في أرجاء الجزيرة بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم، إلى جانب ما تحقق لهم من خير وتعزيز لوضعهم الاقتصادي.

٤. القتلى من الجانبين، بلغت حصيلة من قتل من اليهود في هذه الغزوة ثلاثة وتسعين، واستشهد من المسلمين نحو خمسة عشر رجلًا[(١)].

٥. مصالحة يهود خيبر، فبعد أن أيقن اليهود بالهلاك، واستولى اليأس عليهم، نتيجة تهاوي حصونهم واحدًا تلو الآخر، طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم الصلح على أن يحقن دماءهم، فقبل الرؤوف الرحيم وصارت أرضهم لله ولرسوله وللمسلمين، فلما أراد النبي إجلاءهم سألوه أن يقرهم على أن يعملوا في الأرض ولهم نصف ما تخرجه الأرض، فقال لهم: (نقركم على ذلك ما شئنا)[(٢)].

٦. محاولة قتله صلى الله عليه وسلم، حيث تعرض النبي صلى الله عليه وسلم لمحاولة اغتيال رغم عفوه وصفحه عنهم، وذلك على يد امرأة تدعى زينب بنت الحارث، وكانت أهدت إلى النبي صلى الله عليه وسلم شاة مشوية مسمومة[(٣)].

٧. زواجه صلى الله عليه وسلم بالسيدة صفية، وهي أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب، كان أبوها

(١) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة ٢/ ٤١٧.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٣٤، لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٦٣.
والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه، ٤/ ٩٥، رقم ٣١٥٢.

(٣) وحديثها أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب الشاة التي سمت للنبي صلى الله عليه وسلم بخيبر، ٥/ ١٤٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة، فأهدت له يهودية شاة مصلية سمتها، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأكل القوم فقال: **(ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة)** فمات بشر بن البراء بن معرور الأنصاري، فأرسل إلى اليهودية، **(ما حملك على الذي صنعت؟)** قالت: إن كنت نبيًّا لم يضرك الذي صنعت، وإن كنت ملكًا أرحت الناس منك، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلت، ثم قال في وجعه الذي مات فيه: **(ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت بخيبر، فهذا أوان قطعت أبهري)**.

سيدًا من سادات بني النضير، انتقل إلى خيبر لما أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن المدينة وكان من ذرية هارون بن عمران[1][2]. وكان لزواجه صلى الله عليه وسلم منها حكمة بالغة، فقد كانت رضي الله عنها بنت سيد يهود خيبر، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم إعزازها وتكريمها وصيانتها من أن تفترش لرجل لا يعرف لها شرفها ونسبها في قومها، كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبي واليهود عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام، والانضواء تحت لوائه، والحد من مكرهم وسعيهم بالفساد، فدل ذلك على حسن أدبه وحنكته السياسية صلى الله عليه وسلم[3].

٨. غنائم خيبر، فقد كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم غنيمة، من حيث الأراضي والنخيل والثياب والأطعمة وغير ذلك، ويدل على كثرتها قول السيدة عائشة رضي الله عنها: (لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر)[4].

(١) انظر: حاشيه الشهاب علي أنوار التنزيل، البيضاوي ٨/ ٧٩، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة ٢/ ٣٨٣.

(٢) حديث زواجه صلى الله عليه وسلم بصفية، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٥/ ١٣٥، رقم ٤٢١١، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدمنا خيبر فلما فتح الله عليه الحصن، ذكر له جمال صفية بنت حيي بن أخطب، وقد قتل زوجها، وكانت عروسًا، فاصطفاها النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه، فخرج بها حتى بلغنا سد الصهباء حلت، فبنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صنع حيسًا في نطع صغير، ثم قال لي: (آذن من حولك) فكانت تلك وليمته على صفية، ثم خرجنا إلي المدينة، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته، وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب .

(٣) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة ٢/ ٣٨٥.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٣٤. والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٥/ ١٤٠، رقم ٤٢٤٢.

الدروس المستفادة

١ . اليهود أهل غدر وخيانة.

أظهرت غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود حقيقةً ثابتةً، وهي: أن اليهود على مر التاريخ والعصور، وفي عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا مصدر خطر داهم على الإسلام والمسلمين، فهم قوم خيانة وغدر ونقض للعهود والمواثيق، مهما عوملوا بالحسنى، وذلك سر لعنة الله التي حاقت بهم.

قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

وقال أيضًا: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: ١٥٥].

فلا يوثق في وعدهم، ولا أمان لهم.

٢ . الأخذ بالأسباب.

إن الأخذ بالأسباب قدر الاستطاعة والإمكان واستفراغ الجهد، هو سبيل النصر.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فبالرغم من قوة اليهود العسكرية والاقتصادية وامتلاكهم الأسباب المادية التي تدفعهم إلى النصر، حتى اعتقدوا أنه لا يستطيع أحد أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها وقوتها، في مقابل قلة عتاد المسلمين وعدتهم، لكن حينما أخذ المسلمون بأسباب النصر التي أمروا بها، وفَّى الله تعالى لهم وعده وحقق النصر لهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٣ . تربية الأفراد والأمم.

الثقة بوعد الله عز وجل، وأن النصر من عند الله، وربط الأحداث بفاعلها الحقيقي وهو رب العزة سبحانه، وعدم الاكتفاء بالأسباب المادية، دون اللجوء إلى المسبب سبحانه وتعالى.

قال عز من قائل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

٤ . اجتماع أعداء الإسلام على أهل

الإسلام.

فتلك عادة ماضية في كل زمان ومكان، فلا تنقطع عداوتهم، وفي ذلك حكمة بالغة في الرجوع إلى الله، وصدق التوكل عليه، والإنابة والذل وإظهار الحاجة، وبذل الغالي لهذا الدين.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

إلا أن الله عز وجل حامي دينه، وناصر عباده المؤمنين.

قال ابن القيم رحمه الله: «فمن ظن بأنه لا ينصر رسوله، ولا يتم أمره، ولا يؤيده ويؤيد حزبه، ويعليهم ويظفرهم بأعدائه، ويظهرهم عليهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يديل الشرك على التوحيد والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظن بالله ظن السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به، العادلين به، فمن ظن به ذلك فما عرفه، ولا عرف أسماءه، ولا عرف صفاته وكماله»[1].

وعلى مر العصور وتقلب الدهور قول الصادق: (بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر، والتمكين في الأرض)[2].

لكن الأمر مشروط بشروطه، ومقيد بقيوده: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

٥. نصر الله عز وجل لعباده المؤمنين.

فيمدهم بجيش من عنده ولا يضيعهم، كما أنزل عليهم الملائكة يوم بدر، وأرسل الريح في غزوة الأحزاب، وهذا تحقيق لوعده سبحانه حيث قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحج: ٣٨].

٦. جواز قتال من نقض العهد.

ويبوب الإمام النووي به في صحيح الإمام مسلم، فالصلح والمعاهدة والاستئمان بين المسلمين وغيرهم، كل ذلك ينبغي احترامه على المسلمين ما لم ينقض الآخرون العهد أو الصلح أو الأمان، وحينئذٍ يجوز للمسلمين قتالهم إن رأوا المصلحة في ذلك[3].

٧. جواز هدم حصون الكفار وديارهم في الحرب.

(١) زاد المعاد ٣/ ٢٠٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٥/ ١٤٦، رقم ٢١٢٢٢.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٢/ ٩٢.

إذا دعت الضرورة إلى ذلك، كأن يستتر العدو بها ويتخذها وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين، فإنه لا مناص من قطع الأشجار، وهدم البناء، على أنه ضرورة من ضرورات القتال[(١)].

٨. استطلاع أخبار العدو قبل بدء قتالهم.

فإنه من إعداد العدة واتخاذ ما يلزم، كما وقع للزبير بن العوام في غزوة بني قريظة[(٢)].

٩. معاملة المنافقين معاملة المسلمين.

حيث لم يتعرض النبي صلى الله عليه وسلم لرأس النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول، كما مر في غزوة بني قينقاع، وعامله مع ذلك على أنه مسلم، فلم يخفر ذمته، ولم يعامله معاملة المشرك أو المرتد، وأجابه إلى ما أصر وألح عليه وذلك يدل على أن المنافق إنما يعامل في الدنيا من قبل المسلمين على أنه مسلم، وإن كان نفاقه مقطوعًا به.

وهذا لا ينافي أن يكون المسلمون في حذر دائم من المنافقين، وأن يكونوا في يقظة تامة أمام تصرفاتهم، فذلك من الواجبات البديهية على المسلمين في كل ظرف ووقت.

١٠. الولاء والبراء.

والولاء يعني: مناصرة الله ورسوله والمؤمنين، وإعانتهم والسكنى معهم، والبراء أن يقطع المؤمن صلته بالكفار، ولا يحبهم، ولا يناصرهم، ولا يقيم في أوطانهم إلا لضرورة، والولاء والبراء بذلك يقتضي تحريم التعاون مع الكفار ضد المسلمين، سواء بالنصرة أو المساعدة أو بأي شيء يتقوون به على قتال المسلمين.

قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(١) خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ٢/ ٦٦٤.
(٢) التفسير المظهري ٧/ ٢٩٥.
وحديثه: عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: كنت يوم الأحزاب، جعلت أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثا، فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلف؟ قال: أو هل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم) فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه فقال: (فداك أبي وأمي).
أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب مناقب الزبير بن العوام، ٥/ ٢١، رقم ٣٧٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما، ٤/ ١٨٧٩، رقم ٢٤١٦.

[المجادلة: ٢٢].

كما أن عقيدة الولاء والبراء تحرم على المسلمين أيضًا أن يخذلوا إخوانهم المستضعفين، أو أن يتركوهم يقاتلون وحدهم، دون مناصرتهم وتقديم العون لهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾[الأنفال:٧٢].

١١. المنح تخرج من رحم المحن.

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الظرف القاسي، والصحابة في حصار وجوع، وخوف شديد، إلا أن الله تعالى فرج كربهم، وكتب لهم النصر، وانبثق نور الإسلام ليخرج من هذا الضيق ليجوب أنحاء العالم، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

١٢. أن المؤمن لا تزيده الكروب والشدائد إلا إيمانًا ويقينًا.

بخلاف الذين في قلوبهم مرض، وهذا ما أظهرته غزوة بني قريظة.

١٣. الإخلاص في الجهاد.

لا بد تجريد النية عند الخروج في سبيل الله للجهاد أو غيره، وتقديم طلب رضا الله تعالى ورسوله على ما سواهما من أعراض الدنيا، واجتناب ما فعله من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديبية، لطلبهم مجرد الغنائم.

١٤. حروب النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن للاعتداء والنهب أو التوسع.

بل كانت فقط من أجل نشر عقيدة سامية تنير الدنيا، والقضاء على كل خبيث يؤذي الناس ويهدد حياتهم.

١٥. غزوات الرسول هي أحسن وأرفع الخطط التي يمكن التمثل بها على عصور القتال المتطور.

من حيث اختيار مكان المواجهة ودقته والتهيئة العامة لصفوف الجيش والشعب قبل بداية الحرب.

ففي غزوات الرسول تبلورت النظرية الحربية الإسلامية، والتي تعتبر مقومات النصر وليدة إرادة وصبر وثبات أمام الشدائد والحرب النفسية والدعائية التي يشنها العدو، كذلك الالتحام المباشر لأنه يرهب العدو، ويجعله في حالة ارتباك وعدم توازن كما حدث في فتح خيبر.

١٦. لابد للحق من قوة تحميه وتدافع عنه.

وإذا لم يجد الباطل قوة توقفه، استشرى ضرره وشاع خطره، وظن الناس أنه الحق وأن ما عداه باطل، وهذا لا ينافي مبدأ

الرحمة الذي شرعه الإسلام، فالرحمة لها موضعها، والشدة كذلك.

وفي الختام: تمر السنون والأعوام وتظل غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود خاصةً نبراسًا وهاديًا يضيء لنا الطريق في تعاملنا مع اليهود، وأخذ الحذر منهم مهما أعطوا من المواثيق وإبرام العهود.

موضوعات ذات صلة

غزوة أحد، غزوة الأحزاب، غزوة بدر، غزوة تبوك





عناصر الموضوع

المجلد الخامس والعشرون

التعريف بغزوة أحد

أولًا: تسميتها وزمانها ومكانها:

سميت غزوة أحد بهذا الاسم؛ لوقوعها عند جبل أحد، وأُحُدٌ -بضم أوله وثانيه معًا-: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أحد، وهو علمٌ مرتجل لهذا الجبل وهو جبل أحمر، وبينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليها(١).

قيل: إنما «سمي أحدًا؛ لتوحده وانقطاعه عن جبل آخر هناك، أو لِمَا وقع من أهله من نصرة التوحيد، ولا أحسن من اسم مشتق من الأحدية، وقد سمى الله تعالى هذا الجبل بهذا الاسم تقدمة لما أراده سبحانه وتعالى من مشاكلة اسمه لمعناه؛ إذ أهله -وهم الأنصار- نصروا التوحيد والمبعوث بدين التوحيد، عنده استقر حيا وميتا، وكان من عادته صلى الله عليه وسلم أن يستعمل الوتر ويحبه في شأنه إشعارا للأحدية، فقد وافق اسم هذا الجبل لأغراضه -صلى الله عليه وسلم- ومقاصده في الأسماء، فقد بدل كثيرا من الأسماء؛ استقباحا لها من أسماء البقاع وأسماء الناس؛ لمنافاتها للتوحيد، فاسم هذا الجبل من أوفق الأسماء له، ومع أنه مشتق من الأَحَدِيَّة فحركات حروفه الرفع، وذلك يشعر بارتفاع دين الأحد وعُلُوِّه، فتعلق الحب من النبي -صلى الله عليه وسلم- به اسمًا ومسمى»(٢).

وقد وقعت هذه الغزوة يوم السبت للنصف من شوال في السنة الثالثة للهجرة(٣).

ثانيًا: حكمة ورودها في سورة آل عمران:

ليس في القرآن الكريم ذكر غزوة أحد صراحة، ولكن ورد ذكرها ضمنًا، في سورة آل عمران، فقد نزلت ثمان وخمسون آية من سورة آل عمران، تتحدث عن هذه الغزوة، ابتدأت بذكر أول مرحلة من مراحل الإعداد للمعركة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١].

وانتهت بالتعليق الجامع على نتائج المعركة، والحِكَم التي أرادها الله منها فقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل

(١) انظر: معجم البلدان، الحموي، ١/ ١٠٩.
(٢) سبل الهدى والرشاد، الصالحي، ٤/ ٢٤٣.
(٣) مغازي الواقدي، ١/ ١٩٩.

عمران: ١٧٩].

لقد وصفت هذه الآيات المعركة وصفًا دقيقًا، وكان فيها تربية للجماعة المسلمة، ودروس لهم في كل زمان ومكان.

روى أبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم عن المسور بن مخرمة قال: قلت لعبد الرحمن ابن عوف: يا خال، أخبرني عن قصتكم يوم أحد، قال: اقرأ بعد العشرين ومائة من آل عمران تجد قصتنا، أي من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١][1].

وذكر الطاهر ابن عاشور سبب ورود آيات غزوة أحد في هذه السورة فقال: «ومناسبة ذكر هذه الوقعة عقب ما تقدم أنها من أوضح مظاهر كيد المخالفين في الدين؛ المنافقين، ولمَّا كان شأنُ المنافقين من اليهود وأهل يثرب واحدًا ودخيلتهما سواء، وكانوا يعملون على ما تدبره اليهود، جمع الله مكائد الفريقين بذكر غزوة أحد، وكان نزول هذه السورة عقب غزوة أحد»[2].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن المسلمين كانوا يعانون من التكافل بين اليهود والمنافقين، فاليهود يخططون والمنافقون ينفذون، ولذلك كان من منهج القرآن أن يجمع بينهم في التحذير منهم.

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] أتبعه بما يَدُلُّهم على سنة الله تعالى فيهم في باب النصرة والمعونة ودفع مضار العدو إذا هم صبروا واتقوا، وخلاف ذلك فيهم إذا لم يصبروا فقال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٢١] يعني: أنهم يوم أحد كانوا كثيرين للقتال، فلما خالفوا أمر الرسول انهزموا، ويوم بدر كانوا قليلين غير مستعدين للقتال، فلما أطاعوا أمر الرسول غلبوا واستولوا على خصومهم»[3].

فالرازي يرى أنَّ المناسبة هي بيان سبب الهزيمة، وأنها نتيجة حتمية عند التخلي عن الصبر والتقوى.

ويقول أبو حيان عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٢١].

إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ [آل عمران: ١٥٤].

(١) سبل الهدى والرشاد، الصالحي ٤/ ٢٣١ .
(٢) التحرير والتنوير ٤/ ٦٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٧٨-١٧٩.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما نهاهم عن اتخاذ بطانةٍ من الكفار ووعدهم أنهم إن صبروا واتقوا فـ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾. ذكرهم بحالة اتفق فيها بَعْضُ طَواعيةً، واتباعٌ لبعض المنافقين، وهو ما جرى يوم أُحُدٍ لعبد الله بن أُبي بن سلول حين انخذل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتبعه في الانخذال ثلاثمائة رجل من المنافقين وغيرهم من المؤمنين[1].

فيرى أبو حيان أن ذكر هذه الآيات هنا هي للتذكير بما قام به بعض المؤمنين من اتباع المنافقين يوم أحد، وفي ذلك اقتراف لما حذر منه الله سبحانه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [عمران: ١١٨].

والظاهر أن جميع ما ذكر يصلح أن يكون مناسبا لورود آيات غزوة أحد في سورة آل عمران، لكن قول ابن عاشور هو الأرجح -والله أعلم- وذلك؛ لأن الآيات السابقة لقصة أُحُدٍ جاء فيها التحذير الشديد من اليهود، ثم جاءت آيات غزوة أحد وتحدثت عما حصل من المنافقين بقيادة عبد الله بن أُبي بن سلول، ويكون بذكر قصة هذه الغزوة في سورة آل عمران قد اكتمل الحلف بين اليهود والمنافقين.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن نزول سورة آل عمران كان بعد سورة الأنفال[2]، والمتأمل لموضوع السورتين يجد أن كُلًّا منهما جاء فيه الحديث المفصل عن غزوتي بدر وأحد، وكان من ضمن مفاهيم السورتين: مفهوم أسباب النصر وأسباب الهزيمة، ومفهوم النفاق، ومفهوم النعمة والظفر، والابتلاء والتمحيص.

فاكتمل بذلك المشهد بما ورد في سورة آل عمران من ذكر غزوة أحد.

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٣/ ٣٢٦.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٣١٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٤٤.



أسباب الغزوة

عندما نتحدث عن غزوة أُحُد نجد أن أسباب هذه الغزوة عبارة عن تراكمات كثيرة وسلسلة من الأحداث التي امتدت لفترة طويلة بدأت منذ زمن، فبعد بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- بدأت قريش في العمل المستمر في الصد عن دين الله تعالى، ومنع الناس من الدخول في الإسلام، والقضاء على المسلمين وعلى دولتهم الإسلامية.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

«فغرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وجمع الجيوش لذلك، وإنفاق أموالهم عليها، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ويوم أحد ويوم الأحزاب؛ فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش ثم أخبر الله سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز، فقال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾، أي: سيقع منهم هذا الإنفاق ثم تكون عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حسرة عليهم، وكأن ذات الأموال تنقلب حسرة وتصير ندما، ثم آخر الأمر يغلبون، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾، أي: استمروا على الكفر؛ لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من أسلم وحسن إسلامه»[(١)].

فكان من أهم أسباب غزوة أحد هو الصد عن سبيل الله، واتباع طريق الحق، ومنع الناس من الدخول في الإسلام، ومحاربة النبي صلى الله عليه وسلم والقضاء على الدعوة الإسلامية.

لا سيما وقد حصل للمشركين في غزوة بدر هزيمة كبيرة، وقتل الأشراف من قريش، وقد ذهبت سيادة قريش بعد غزوة بدر، وكانت العرب تُقَيِّمُ للانتصار في الحرب قيمته، وتعتبر الهزيمة مذلة، وتبذل قصارى جهدها في غسلها عنها، فلا بد لقريش من رد اعتبارها والحفاظ على زعامتها مهما كلفها الأمر من جهود ومال وتضحيات.

فلما رجع أبو سفيان بعيرهم فأوقفها بدار الندوة، وكذلك كانوا يصنعون فلم يحركها ولا فرقها، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهزوا منها جيشا لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وحويطب بن عبد العزى، وصفوان بن أمية في رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة من قريش، فقالوا: إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣٥٠.

فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا، فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك[(١)].

ومن أسباب خروج قريش في هذه الغزوة: حركة السرايا التي يقوم بها المسلمون التي أثرت على تجارة قريش، وفرضت عليهم حصارا قويا، وكانت تجارة قريش قائمة على رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، ويشير إلى هذا قول صفوان بن أُميَّة: إن محمدًا وأصحابه قد عوروا علينا متاجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل، قد وادعهم، ودخل عامتهم معه؟ فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في ديارنا هذه، ما لنا بها بقاء، وإنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى الحبشة[(٢)].

وبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- زيد بن حارثة -رضي الله عنه- إلى القردة، وكان من حديثها أن قريشًا كانت قد أخفت طريقها التي تسلك إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق، وخرج منهم تجار، فيهم أبو سفيان بن حرب معه فضة كثيرة، واستأجروا من بني بكر بن وائل رجلًا يقال له: فُرَاتُ بن حَيَّان يدلهم على الطريق، ويعث النبي -صلى الله عليه وسلم- زيد بن حارثة -رضي الله عنه- فلقيهم على ذلك الماء، فأصاب تلك العير وما فيها، وأعجزه الرجال فقدم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك في مستهل جمادى الأولى على رأس ثمانية وعشرين شهرا من الهجرة[(٣)]، أي: بعد ستة أشهر من غزوة بدر الكبرى.

فهذه السرية كانت خسارة فادحة لقريش قصمت فقار اقتصادها، وزودها من الحزن والهم ما لا يقادر قدره، وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين، وبذل قصارى جهدها وطاقتها ومحاولة إحكام خطتها في سبيل حشد جيش كبير تقضي به على المسلمين ودعوتهم، وللأخذ بثأر قتلاها يوم بدر، ومحاولة لرد اعتبارها، والحد من قوة المسلمين وسراياهم التي تحكم الحصار من حولهم.

(١) انظر: مغازي الواقدي ١/ ٢٠١- ٢٠٢، سبل الهدى والرشاد، الصالحي ٤/ ١٨٢ .
(٢) مغازي الواقدي ١/ ١٩٧.
(٣) البداية والنهاية، ابن كثير ٤/ ٦.

الإعداد للغزوة

أولًا: إعداد المشركين:

بعد هزيمة بدر اتخذت قريش صورًا عملية مباشرة، فقد نشطوا في الإعداد لقتال النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه، وسعوا جادين إلى تكثير جنودهم بالتأثير على العشائر، وكان من أهم إعداداتهم: أن بدأت قريش عقب غزوة بدر بجمع الأموال الطائلة، وبذلوا جهدهم في إزالة هذا العار الذي نزل بهم.

فلما رجع أبو سفيان بعيرهم أوقفها بدار الندوة، فلم يحركها ولا فرقها، فطابت أنفس أشراف قريش أن يجهزوا منها جيشًا لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وحويطب بن عبد العزى، وصفوان بن أمية في رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة من قريش، فقالوا: إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منها، فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك.

فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦][1].

يقول الطبري رحمه الله: «إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم، فيعطونها أمثالهم من المشركين؛ ليتقووا بها على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به؛ ليصدوا المؤمنين بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله، فسينفقون أموالهم في ذلك، ثم تكون نفقتهم تلك عليهم حسرة، يقول: تصير ندامة عليهم؛ لأن أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله، وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله؛ لأن الله معلي كلمته، وجاعل كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا به وبرسوله إلى جهنم، فيعذبون فيها.

فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك! أما الحي، فحرب ماله وذهب باطلا في غير درك نفع، ورجع مغلوبًا مقهورًا محروبًا مسلوبًا. وأما الهالك، فقتل وسلب، وعجل به إلى نار الله يخلد فيها، نعوذ بالله من غضبه. وكان الذي تولى النفقة التي ذكرها الله في هذه الآية فيما ذكر، أبا سفيان»[2].

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٦٠.
(٢) جامع البيان ١٣/ ٥٢٩.

وقالوا: يا أبا سفيان، انظر هذه العير التي قدمت بها فاحتبسها، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش، وهم طيبو الأنفس، يجهزون بهذه العير جيشًا إلى محمد، وقد ترى من قتل من آبائنا، وأبنائنا، وعشائرنا. قال أبو سفيان: وقد طابت أنفس قريش بذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي، فأنا والله الموتور الثائر، قد قتل ابني حنظلة ببدر وأشراف قومي. فلم تزل العير موقوفة حتى تجهزوا للخروج إلى أحد، فباعوها وصارت ذهبا عينا، فوقف عند أبي سفيان.

ويقال: «إنما قالوا: يا أبا سفيان، بع العير ثم اعزل أرباحها. وكانت العير ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار، وكانوا يربحون في تجارتهم»[1].

وقال مقاتل والكلبي: نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلا أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ونبيه ومنبه ابنا حجاج وأبو البخترى بن هشام والنضر بن الحارث وحكيم بن حزام وأبي بن خلف وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب، وكلهم من قريش، وكان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزائر.

وقال سعيد بن جبير وابن أبزى: نزلت في أبي سفيان بن حرب، استأجر يوم «أحد» ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبي صلى الله عليه وسلم سوى من استجاب له من العرب.

وقال الحكم بن عتيبة: أنفق أبو سفيان على المشركين يوم «أحد» أربعين أوقية من الذهب، فنزلت فيه هذه الآية[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «وعلى كل تقدير، فهي عامة. وإن كان سبب نزولها خاصا، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم؛ ليصدوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم»[3].

وعبأت جيشها المكون من ثلاثة آلاف مقاتل مصطحبين معهم النساء والعبيد، ومن تبعها من القبائل العربية المجاورة، فخرجت قريش بحدها وحديدها وأحابيشها ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة[4].

ولما استكملت قريش قواها في يوم السبت لسبع خلون من شوال من السنة الثالثة من الهجرة[5]، وخرجوا بالظعن؛ لئلا يفروا، فخرج أبو سفيان، وهو قائد الناس بهند بنت عتبة بن ربيعة، وخرج صفوان

(١) مغازي الواقدي ١/ ١٩٩-٢٠٠ .

(٢) أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣.

(٤) السير والمغازي، محمد بن إسحاق ص ٣٢٣.

(٥) دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٣٩٧.

بن أمية بن خلف ببرزة بنت مسعود الثقفية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة[(١)].

وكان لهؤلاء النسوة دور بارز خلال المعركة، فكن ينشدن الشعر، ويحمسن الرجال، ويخوفنهم من عار الهزيمة وذل الانكسار، الأمر الذي ظهر أثره في سير القتال يوم أحد.

ودعا جُبيرَ بن مُطعِم غلامًا له حبشيًّا يقال له: وحشي، يقذف بحربة له قذف الحبشة قلَّما يُخطئ لها، فقال: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزةَ عَمَّ محمد بعمي طعيمة بن عدي، فأنت عتيق[(٢)].

وقد أخذ أبو سفيان يحرض رجاله كذلك على الثبات والقتال بوسائل ماكرة، فقال لأصحاب اللواء من بني عبد الدار: يا بني عبد الدار، إنكم قد وُلِّيتُم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه، فهموا به وتواعدوه، وقالوا: نحن نُسَلِّمُ إليك لواءنا، ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع!

وذلك الذي أراده أبو سفيان[(٣)].

وأدى اصطحاب النسوة إلى بعث روح الحماس في جيش قريش، فقد كن يُوَلْوِلْن ويُذَكِّرْنَ بقتلى بدر ويَدُرْنَ على المقاتلين محرضات حتى لا يضعفوا.

فقد قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال، ويحرضنهم على القتال، فقالت هند فيما تقول[(٤)]:

وَيْهًا بني عبد الدار
وَيْهًا حُمَاةَ الأدبار
ضَرْبًا بكل بتار

وتقول:

إن تُقْبِلوا نعانق ... ونفرش النمارق
أو تُدْبِروا نفارق ... فراق غير وامق

و«قبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين، فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم: خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم، فلا حاجة لنا إلى قتالكم! ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذي لا تقوم له الجبال، فقد رد عليه الأنصار ردا عنيفا، وأسمعوه ما يكره»[(٥)].

واقتربت ساعة الصفر، وتدانت الفئتان،

(١) السير والمغازي، محمد بن إسحاق ص ٣٢٣.
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ٦١ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٦٧ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٦٧- ٦٨ .
(٥) الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري ص ٢٣٣.

فقامت قريش بمحاولة أخرى؛ لنفس الغرض، فقد خرج إليهم عميل خائن يُسمَّى أبا عامر الفاسق، واسمه عبد عمرو بن صيفي، وكان يسمى الراهب، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم: الفاسق، وكان رأس الأوس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام شرق به، وجاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة، فخرج من المدينة، وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه ومالوا معه، فكان أول من خرج إلى المسلمين في الأحابيش وعبدان أهل مكة، فنادى قومه وتعرف عليهم، وقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر فقالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق. فقال: لقد أصاب قومي بعدي شَرٌّ وقاتلهم قتالًا شديدًا ورماهم بالحجارة[(١)].

وهكذا فشلت قريش في محاولتها الثانية؛ للتفريق بين صفوف أهل الإيمان، مما جعلهم يزدادون خوفًا من المسلمين، ويمتلئون هيبة من لقائهم.

وكان عدد المشركين يوم أحد ثلاثة آلاف مقاتل، وأقبلوا وقد صفوا صفوفهم، واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل. ولهم مجنبتان مائتا فرس، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية -ويقال: عمرو بن العاص- وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكانوا مائة رام. ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة[(٢)].

ثانيًا: إعداد المؤمنين:

لما تأهبت قريش لقتال المسلمين وأعدت العدة للمواجهة، أرسل العباس عَمُّ النبي صلى الله عليه وسلم رسالة مع رجل من بني غفار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بما عزم عليه، فَقَدِمَ عليه الرجل وهو في قباء، فقرأه عليه أُبَيُّ بن كعب، فطلب النبي صلى الله عليه وسلم من أُبَيٍّ أن يكتم الخبر. وقال له: (لا تُطلع عليه أحدًا).

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس. فقال: والله إني لأرجو أن يكون في ذلك خير[(٣)].

وقدم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر، وقد فارقوا قريشا من ذي طوى، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم الخبر وانصرفوا[(٤)].

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنسًا ومؤنسًا ابني فضالة ليلة الخميس

(١) السير والمغازي، محمد بن إسحاق، ص ٣٢٧.

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٢٠، دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٢٢٠.

(٣) مغازي الواقدي ١/ ٢٠٤.

(٤) إمتاع الأسماع، المقريزي ١/ ١٣٢.

عينين، فاعترضا لقريش بالعقيق، وعادا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبراه ويعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الحباب بن المنذر بن الجموح فنظر إليهم وعاد، وقد حرز عددهم وما معهم، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا تذكروا من شأنهم حرفا، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول)[(١)].

وامتثالًا لمبدأ الشورى الذي أمر الله تعالى به في كتابه، في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩] شاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في الخروج لملاقاة العدو أو البقاء في المدينة، وكان رأيه صلى الله عليه وسلم ألا يخرج من المدينة، ووافقه عبد الله بن أُبَيٍّ والأكابر من الصحابة مهاجرهم وأنصارهم. وقال صلى الله عليه وسلم: (امكثوا في المدينة، واجعلوا النساء والذراري في الآطام فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة، فنحن أعلم بها منهم، ونرميهم من فوق الصياصي والآطام) وكان هذا هو الرأي وبخاصة أن الصحابة قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية حتى صارت كالحصن. وقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدرًا وطلبوا الشهادة وأحبوا لقاء العدو: اخرج بنا إلى عدونا.

وقال حمزة، وسعد بن عبادة والنعمان ابن مالك بن ثعلبة، في طائفة من الأنصار: إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليهم جُبْنًا عن لقائهم، فيكون هذا جرأة منهم علينا، وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم، ونحن اليوم بشر كثير، قد كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به، فساقه الله إلينا في ساحتنا[(٢)].

وقال حمزة: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعامًا حتى أجالدهم بسيفي خارجًا من المدينة.

وتكلم مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، وإياس بن أوس بن عتيك ورأوا الخروج للقتال.

فلما رأى صلى الله عليه وسلم ذلك، وأشار الكثيرون بالخروج من المدينة، ولم ينزل وحي محدد في هذا الأمر صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة بالناس فوعظهم، وأمرهم بالجد والجهاد، وأخبرهم أن النصر لهم ما صبروا، ففرح الناس بالخروج من المدينة لقتال عدوهم، وكره صلى الله عليه وسلم ذلك المخرج إلا أنه وافقهم ونزل على رأيهم ما دام لم ينزل فيه وحي من الله تعالى[(٣)].

«وظلت المدينة في حالة استنفار عام لا

(١) إمتاع الأسماع، المقريزي، ١/ ١٣٢ .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢١٠ .

(٣) إمتاع الأسماع، المقريزي، ١/ ١٣٤ .

يفارق رجالها السلاح حتى وَهُم في الصلاة، استعدادًا للطوارئ.

وقامت مفرزة من الأنصار فيهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة بحراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح.

وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها؛ خوفًا من أن يُؤخذوا على غِرَّة.

وقامت دوريات من المسلمين؛ لاكتشاف تحركات العدو تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين»[1].

ثم لبس النبي صلى الله عليه وسلم لأمته وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة، ثم خرج عليهم وقد ندم الناس، وقالوا: استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن لنا ذلك. فلما خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: يا رسول الله: استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل)، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألف من أصحابه[2].

ثم قسم النبي صلى الله عليه وسلم جيشه إلى ثلاث كتائب:

١. كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير.
٢. كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير.
٣. كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر.

وكان الجيش متألفا من ألف مقاتل، فيهم مائة دارع وخمسون فارسا، وقيل: لم يكن من الفرسان أحد، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة، وأذن بالرحيل، فتحرك الجيش نحو الشمال، وخرج السعدان أمام النبي صلى الله عليه وسلم يعدوان دارعين[3].

وحرض أصحابه على القتال، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه، حتى جرد سيفًا، وقال: (من يأخذ هذا السيف؟) فأخذه قوم فجعلوا ينظرون إليه، فقال: (من يأخذه بحقه؟) فأحجم القوم، فقال أبو دجانة سِمَاك: أنا آخذه بحقه، فأخذه ففلق هام المشركين[4].

(١) الرحيق المختوم، المباركفوري، ص ٢٢٦ .
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٦٣ .
(٣) الرحيق المختوم، المباركفوري، ص ٢٢٨ .
(٤) السير والمغازي، ابن إسحاق، ص ٣٢٦، وأخرجه أحمد ١٩/ ٢٦٥، رقم ١٢٢٣٥ .

مشاهد من غزوة أحد

أولًا: موقف المنافقين في الغزوة:

كانت غزوة أحد فرصة للمنافقين ليمكروا بأهل الإيمان، لا سيما والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأخذ برأي راسهم عبد الله بن أبي، فاتخذها عَدُوُّ الله ذريعة لفعلته، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين شاور أصحابه في الخروج من المدينة للقاء عدوهم أو البقاء فيها ومقاتلتهم داخلها، وكان رأي ابنِ أُبَيٍّ هو البقاء في المدينة موافقًا في ذلك رأي النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم نزل عند رأي الأغلبية، ولو كان ابن أُبَيٍّ مؤمنًا لتابع النبي صلى الله عليه وسلم كما تابعه أصحابه وشعروا بالندم؛ أنهم أكرهوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه كان له هو وأصحابه موقفان:

الأول: رجوعه إلى المدينة مع أصحابه بعد أن خرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد بلغ مكانا يقال له الشوط، رجع بثلث الجيش وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة، يقول: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم، عند ما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه[(١)].

وبالرغم من خطورة الموقف وحاجة المسلمين لهذا العدد؛ لقلة جيش المسلمين، وكثرة جيش قريش إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم تركهم وشأنهم ولم يعرهم أي اهتمام، واكتفى بفضح أمرهم أمام الناس.

وقد بين الله تعالى حال المنافقين ودورهم في هذه الغزوة فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٧ - ١٦٨].

يقول الطبري: «يعني تعالى ذكره بذلك عبد الله بن أُبي بن سلول المنافق وأصحابه، الذين رجعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه، حين سار نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين بأحد لقتالهم، فقال لهم المسلمون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا، أو ادفعوا عنا العدو

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ٤/ ١٠.

بتكثيركم سوادنا! فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم، ولكنا معكم عليهم، ولكن لا نرى أنه يكون بينكم وبين القوم قتالٌ! فأبدوا من نفاق أنفسهم ما كانوا يكتمونه، وأبدوا بألسنتهم بقولهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ غير ما كانوا يكتمونه ويخفونه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل الإيمان به»[(١)].

ثم بين الله حال إيمانهم بقوله: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ «يعني أنهم قبل ذلك اليوم كانوا يتظاهرون بالإيمان وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا، تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر»[(٢)].

فهم غير صادقين في احتجاجهم بأنهم يرجعون؛ لأنهم لا يعلمون أن هناك قتالًا سيكون بين المسلمين والمشركين. فلم يكن هذا هو السبب في حقيقة الأمر، وإنما هم: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فقد كان في قلوبهم النفاق، الذي لا يجعلها خالصة للعقيدة، وإنما يجعل أشخاصهم واعتباراتها فوق العقيدة واعتباراتها[(٣)].

ولما حصل من ما حصل من جراحات وشهداء في صفوف أهل الإيمان، أخذ المنافقون يبرئون أنفسهم من أن يكونوا سببا فيما أصاب المسلمين من آلام، وأن الذين تسببوا في ذلك هم غيرهم، قال تعالى مبينا حال هذه الطائفة: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ومعنى ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: حدثتهم أنفسهم بما يدخل عليهم الهم، وذلك بعدم رضاهم بقدر الله، وبشدة تلهفهم على ما أصابهم وتحسرهم على ما فاتهم مما يظنونه منجيا لهم لو عملوه أي: من الندم على ما فات، وإذ كانوا كذلك كانت نفوسهم في اضطراب وتحرق يمنعهم من الاطمئنان ومن المنام، وهذا كقوله الآتي: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾[آل عمران: ١٥٦][(٤)].

«وهؤلاء لم تكتمل في نفوسهم حقيقة الإيمان، ومن هؤلاء كانت تلك الطائفة الأخرى التي يتحدث عنها القرآن في هذا الموضع، طائفة الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم، فهم في قلق وفي أرجحة،

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٧٨.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٣٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥١٥.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ١٣٤.

يحسون أنهم مضيعون في أمر غير واضح في تصورهم، ويرون أنهم دفعوا إلى المعركة دفعًا ولا إرادة لهم فيها، وهم مع ذلك يتعرضون للبلاء المرير، ويؤدون الثمن فادحًا من القتل والقرح والألم وهم لا يعرفون الله على حقيقته، فهم يظنون بالله غير الحق، كما تظن الجاهلية. ومن الظن غير الحق بالله: أن يتصوروا أنه سبحانه مضيعهم في هذه المعركة، التي ليس لهم من أمرها شيء، وإنما دفعوا إليها دفعًا؛ ليموتوا ويجرحوا، والله لا ينصرهم ولا ينقذهم إنما يدعهم فريسة لأعدائهم»[(١)].

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾

الاستفهام؛ للإنكار بمعنى: النفي، وهم يريدون بهذا القول تبرئة أنفسهم من أن يكونوا سببا فيما أصاب المسلمين من آلام يوم أحد، وأن الذين تسببوا في ذلك هم غيرهم، فأساؤوا الظن بربهم وبدينه وبنبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله. وذلك أن عبد الله بن أبي لما استشاره النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الخروج لقتال المشركين في أحد أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج لقتال المشركين بناء على إلحاح بعض الصحابة فلما أخبر ابن أُبَيٍّ بمن قتل من الخزرج قال: هل لنا من الأمر من شيء؟ يعني: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل قوله حين أشار عليه بعدم الخروج من المدينة[(٢)].

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد على هؤلاء المنافقين الظانين بالله ظن الجاهلية بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، أي: ليس لكم ولا لعدوكم منه شيء، فالنصر بيده والظفر منه[(٣)].

وبين الله حال المنافقين أنهم: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ أي: يخفون في أنفسهم ما لا يستطيعون إظهاره أمامك.

وفي الذي أخفوه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

الثاني: أنه إسرارهم الكفر، والشك في أمر الله.

الثالث: الندم على حضورهم مع المسلمين بأحد[(٤)].

فهم يريدون تبرئة أنفسهم مما نزل بالمسلمين من ابتلاء في غزوة أحد، وأنهم لو كان لهم رأي مطاع لبقوا في المدينة ولم يخرجوا منها لقتال المشركين.

وأن التبعة في كل ما جرى في هذه

---

(١) في ظلال القرآن، ١/ ٤٩٦ .

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٩/ ٣٩٥، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٦١٦.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٤٩.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٣٨.

الغزوة يتحملها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، الذين كانوا هم السبب وألحوا عليه في الخروج لقتال المشركين، خارج المدينة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لو كانوا على الحق لانتصروا.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: لو كنتم قاعدين في بيوتكم لم يكن بد من خروج من كتب عليه القتل إلى هذه المصارع التي صرعوا فيها، فإن قضاء الله لا يرد[1].

وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يختبركم بما جرى عليكم، وليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر[2].

وهكذا افتضح المنافقون في هذه الغزوة، فإنهم قبل أحد لم يفتضحوا، ولم ينكشف نفاقهم بهذه الصورة من قبل، ولو بقي هؤلاء في صف المسلمين، لكانت النكبة بهم أعظم، والمصاب أشد، ولكن أراد الله برحمته تخليص صفوف المؤمنين من هؤلاء قبل المعركة الذين قد يكون بقاؤهم داخل جيش المسلمين عامل من عوامل تحطيمه؛ إذ لا يبعد أن يميلوا على المسلمين ساعة احتدام المعركة، ويعلنوا انضمامهم لجيش المشركين، فمن فضل الله تعالى ورحمته بأوليائه أن كشف نوايا أهل النفاق وهم في منتصف الطريق، فكان رجعوهم بمثابة التصفية للجيش الإسلامي، وتطهيره من عناصر الخذلان والنفاق؛ ليلقى المسلمون عدوهم وهم وحدة متماسكة كالبنيان المرصوص.

ثانيًا: موقف الطائفتين اللتين همتا بالفشل:

في أثناء سير الجيش الإسلامي انسحب زعيم المنافقين عبد الله بن أُبي بن سلول بثلث الجيش، فأثر ذلك في نفسية بعض المسلمين، وراود قلوبهم الفشل والضعف، وبين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

قال الطبري رحمه الله: «ولا خلاف بين أهل التأويل أنه عنى بالطائفتين: بنو سلمة وبنو حارثة، ولا خلاف بين أهل السير والمعرفة بمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن الذي ذكر الله من أمرهما إنما كان يوم أحد»[3].

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٤٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٤٦.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ١٦١.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: (فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ بنو سلمة وبنو حارثة، وما نحب أنها لم تنزل؛ لقول الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾)[1].

قال ابن حجر رحمه الله: «قوله: نزلت هذه الآية فينا، أي: في قومه بني سلمة، وهم من الخزرج، وفي أقاربهم بني حارثة، وهم من الأوس، قوله: وما أحب أنها لم تنزل، والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، أي: إن الآية وإن كان في ظاهرها غض منهم لكن في آخرها غاية الشرف لهم»[2].

وكان همهما الذي هما به من الفشل، الانصراف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حين انصرف عنهم عبد الله بن أُبي بن سلول بمن معه؛ جبنًا منهم، من غير شك منهم في الإسلام ولا نفاق، فعصمهم الله مما هموا به من ذلك، ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجهه الذي مضى له، وتركوا عبد الله بن أُبي بن سلول والمنافقين معه، فأثنى الله عز وجل عليهما بثبوتهما على الحق، وأخبر أنه وليهما وناصرهما على أعدائهما من الكفار، ومعنى قوله: ﴿أَن تَفْشَلَا﴾، أي: هما أن يضعفا ويجبنا عن لقاء عدوهما[3].

فتولى الله أمرهما، وحفظهما مما كانا قد هما به، وهو الانصراف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين يوم أحد، وأن ذلك الهم لم يخرجهما من ولاية الله لهما.

قال الزمخشري: «والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس، وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية»[4].

قال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما هما بهذه المعصية العظيمة وهي: الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما من الإيمان كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة: ٢٥٧][5].

وهذه الآية تربية لأهل الإيمان، فقد بينت لهم أن الله مطلع على أعمالهم أثناء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)، ٦/ ٣٨، رقم ٤٥٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل الأنصار رضي الله تعالى عنهم ٤/ ١٩٤٨، رقم ٢٥٠٥ .
(٢) فتح الباري، ابن حجر ٧/ ٣٥٧.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٧/ ١٦٨ .
(٤) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٠٩- ٤١٠ .
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٥ .

خروجهم إلى غزوة أحد، كما أرشدهم سبحانه إلى التوكل عليه، فدخول أرض المعركة ليس بالأمر الهين، بل يحتاج إلى صبر ومصابرة، وقوة وعزيمة وتوكل على الله سبحانه.

ثالثًا: موقف المؤمنين في الغزوة:

بين الله سبحانه ما حدث للمؤمنين في غزوة أحد، وذكر انتصارهم على عدوهم في بداية المعركة، ثم ذكر إصابتهم بالجراحات بسبب فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم لرسولهم صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

أي: «ولقد وفى الله لكم، أيها المؤمنون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بما وعدكم من النصر على عدوكم بأحد، حين ﴿تَحُسُّونَهُم﴾، يعني: حين تقتلونهم»[(١)].

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾، فإنه يعني: بحكمي وقضائي لكم بذلك، وتسليطي إياكم عليهم[(٢)].

قال محمد بن كعب القرظي: «لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ الآية إلى قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ يعني: الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد»[(٣)].

ولما تحول الموقف في المعركة فر الكثير من المسلمين من ميدان القتال، وانتحى بعضهم جانبا فجلس دون قتال، في حين آثر آخرون الموت بعد أن شاع خبر مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، منهم أنس بن النضر رضي الله عنه، قال: (اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، -يعني المشركين- ثم تقدم)، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: (يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد)، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٨٧ .

(٢) المصدر السابق ٧/ ٢٨٨ .

(٣) أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص ١٢٦ .

إلا أخته ببنانه قال أنس: (كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] إلى آخر الآية)(١).

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى الالتفاف حوله، وقد سجل القرآن الكريم ذلك في قوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

والإصعاد: السير في مستوٍ من الأرض وبطون الأودية والشعاب. والصعود: الارتفاع على الجبال والسطوح والسلاليم والدرج(٢).

عن السدي قال: لما شد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم، دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس: (إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله!) فذكر الله صعودهم على الجبل، ثم ذكر دعاء نبي الله صلى الله عليه وسلم إياهم، فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾(٣).

قال سيد سابق رحمه الله: «والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية في ألفاظ قلائل فهم مصعدون في الجبل هربًا، في اضطراب ورعب ودهش، لا يلتفت أحد منهم إلى أحد! ولا يجيب أحد منهم داعي أحدا! والرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم؛ ليطمئنهم على حياته بعد ما صاح صائح: إن محمدًا قد قتل، فزلزل ذلك قلوبهم وأقدامهم إنه مشهد كامل في ألفاظ قلائل»(٤).

وقوله: ﴿فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ الضمير المستتر في قوله: ﴿فَأَثَـٰبَكُمْ﴾ ضمير اسم الجلالة، وهذا هو الموافق لقوله بعده: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال القرطبي رحمه الله: «الغم في اللغة: التغطية. غممت الشيء غطيته. ويوم غم وليلة غمة إذا كانا مظلمين. ومنه غم الهلال: إذا لم ير، وغمني الأمر يغمني. قال مجاهد وقتادة وغيرهما: الغم الأول القتل والجراح، والغم الثاني: الإرجاف بقتل النبي صلى الله عليه وسلم، إذ صاح به الشيطان. وقيل: الغم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)، ٤/ ١٩، رقم ٢٨٠٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٣٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٠١ .
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٤٩٥ .

الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثاني: ما أصابهم من القتل والهزيمة. وقيل: الغم الأول الهزيمة، والثاني: إشراف أبي سفيان وخالد عليهم في الجبل، فلما نظر إليهم المسلمون غمهم ذلك، وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا ما نالهم، فعند ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم لا يعلن علينا). والباء في ﴿بِغَمٍّ﴾ بمعنى: على. وقيل: هي على بابها، والمعنى أنهم غموا النبي صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم إياه، فأثابهم بذلك غمهم بمن أصيب منهم»[1].

وقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[آل عمران: ١٥٣].

تعليل لقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ [البقرة: ٥٢][2].

وخلص بعض المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، فلما رهقوه، قال: (من يردهم عنا وله الجنة؟)، فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضًا، فقال: (من يردهم عنا وله الجنة؟)، فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة[3].

ثم قاتل عنه طلحة بن عبيد الله، فعن قيس، قال: (رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد)[4].

وقاتل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يناوله السهام، ويقول: (ارم فداك أبي وأمي)[5].

ودافع أبو طلحة الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان راميا، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يشرف على القتال، فيقول له أبو طلحة: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك[6].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول للرجل معه جعبة السهام: (انثرها لأبي

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٤٠ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٤١.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد ٣/ ١٤١٥، رقم ١٧٨٩ .
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)، ٥/ ٩٧، رقم ٤٠٦٣ .
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)، ٥/ ٩٧، رقم ٤٠٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ٤/ ١٨٧٦، رقم ٢٤١١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب مناقب أبي طلحة رضي الله عنه ٥/ ٣٧، رقم ٣٨١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال ٣/ ١٤٤٣، رقم ١٨١١ .

طلحة)[١].

وقد خرجت بعض النسوة مع جيش المسلمين إلى أحد، منهن أم سَلِيط، فقد ثبت عنها أنها كانت تحمل قرب الماء لسقاية المسلمين[٢].

وكانت حمنة بنت جحش الأسدية تسقي العطشى وتداوي الجرحى، عن معاوية بن عبيد الله بن أبي أحمد بن جحش، قال: (رأيت بعيني حمنة بنت جحش يوم أحد تسقي العطشى، وتداوي الجرحى)[٣].

وصح أن عائشة رضي الله عنها وأم سليم قامتا بسقي الجرحى بعد تراجع المسلمين، عن أنس رضي الله عنه، قال: (لما كان يوم أحد، انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما تنقزان القرب، وقال غيره: تنقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم)[٤].

وبهذا الثبات العظيم من النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه استطاعوا السيطرة على الموقف الحربي تجاه تفوق نسبي للمشركين، فصدوا الهجمات، وأعيدت المعنويات، فيئس المشركون من القضاء على المسلمين، ثم انسحبوا من ساحة المعركة.

فالثبات في ميدان المعركة هو أحد صور الثبات التي يربي الإسلام المسلمين عليها، وذلك أنها صفة تدل على قوة العزيمة والإرادة واليقين بالحق، ولذا عد الفرار من الزحف من كبائر الذنوب.

رابعًا: مشهد النعاس:

امتن الله على عباده المؤمنين يوم أحد بآيات عظيمة، كانت معينة لهم على الثبات، ومقوية لهم في محنتهم، رغم قلتهم وكثرة عدوهم، ولما اشتد على المؤمنين الكرب وعظم خوفهم، ونالهم من التعب ما نالهم، وغشيهم من الكرب ما غشيهم؛ ألقى الله تعالى عليهم النعاس وهو أول النوم[٥]**؛ لينسيهم غمهم، ويزيل تعبهم، ويجدد نشاطهم، فكان ذلك كرامة من الله تعالى**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)، ٥/ ٩٧، رقم ٤٠٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال ٣/ ١٤٤٣، رقم ١٨١١ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب حمل النساء القرب إلى الناس في الغزو ٤/ ٣٣، رقم ٢٨٨١.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٤/ ٢١٦، رقم ٥٤٩، قال الهيثمي: إسناده حسن. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩/ ٢٦٢ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال ٤/ ٣٣، رقم ٢٨٨٠ .

(٥) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦١٣.

لهم، وسكينة عليهم: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ومن شأن النعاس أن يزيل عن الإنسان بعض المتاعب، وصاحبه لا يغيب، ولو كان نومًا ثقيلًا لهاجمهم الكفار.

يقول ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى ممتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلئمو السلاح في حال همهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال تعالى في سورة الأنفال، في قصة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]»[(١)].

وهذا النعاس «ظاهرة عجيبة تشي برحمة الله التي تحف بعباده المؤمنين، فالنعاس حين يلم بالمجهدين المرهقين المفزعين، ولو لحظة واحدة، يفعل في كيانهم فعل السحر، ويردهم خلقًا جديدًا، ويسكب في قلوبهم الطمأنينة، كما يسكب في كيانهم الراحة. بطريقة مجهولة الكنه والكيف»[(٢)].

يقول الفخر الرازي: «واعلم أن ذلك النعاس فيه فوائد:

أحدها: أنه وقع على كافة المؤمنين لا على الحد المعتاد، فكان ذلك معجزة ظاهرة للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن المؤمنين متى شاهدوا تلك المعجزة الجديدة ازدادوا إيمانا مع إيمانهم، ومتى صاروا كذلك ازداد جدهم في محاربة العدو ووثوقهم بأن الله منجز وعده.

وثانيها: أن الأرق والسهر يوجبان الضعف والكلال، والنوم يفيد عود القوة والنشاط واشتداد القوة والقدرة.

وثالثها: أن الكفار لما اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله النوم على عين من بقي منهم؛ لئلا يشاهدوا قتل أعزتهم، فيشتد الخوف والجبن في قلوبهم.

ورابعها: أن الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتلهم، فبقاؤهم في النوم مع السلامة في مثل تلك المعركة من أدل الدلائل على أن حفظ الله وعصمته معهم، وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ويورثهم مزيد الوثوق بوعد الله تعالى»[(٣)].

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: (لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين اشتد علينا الخوف، وأرسل علينا النوم، فما منا أحد إلا وذقنه في صدره).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٤٤ .
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٥ .
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٩٣-٣٩٤.

وقال أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه: (غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه)[1].

وفي رواية قال أبو طلحة: (رفعت رأسي يوم أحد فجعلت أنظر، وما منهم يومئذ من أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤])[2].

وعن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: (كنت ممن يعتريه النعاس يوم أحد، فلا أنسى أنه أسمع صوت معتب بن قشيرٍ كالحلم)[3].

خامسًا: تنزل الملائكة:

من الآيات التي أيد الله بها عباده المؤمنين يوم أحد: أن الملائكة حضروها، ودافعوا عن النبي صلى الله عليه وسلم كما روى الشيخان من حديث سعد رضي الله عنه قال: (رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بياض، ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام)[4].

وهذا «فيه بيان كرامة النبي صلى الله عليه وسلم على الله تعالى وإكرامه إياه بإنزال الملائكة تقاتل معه. وبيان أن الملائكة تقاتل وأن قتالهم لم يختص بيوم بدر، وهذا هو الصواب، خلافا لمن زعم اختصاصه به فهذا صريح في الرد عليه»[5].

فكانت الملائكة حاضرة في غزوة أحد؛ لحراسة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد وعد الله المؤمنين إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف من الملائكة معلمين بعلامات يعرفونهم بها، فلما عصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترك الرماة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يبرحوا منازلهم رفع الله عنهم مدد الملائكة.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (أمنة نعاسًا)، ٦/ ٣٨، رقم ٤٥٦٢.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة آل عمران ٥/ ٢٢٩، رقم ٣٠٠٧.
(٣) أخرجه الإسماعيلي في مستخرجه، ٣/ ٦٠، رقم ٨٦٤، والبزار في مسنده ٣/ ١٨٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا)،٥/ ٩٦، رقم ٤٠٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في قتال جبريل وميكائيل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ٤/ ١٨٠٢، رقم ٢٣٠٦، واللفظ لمسلم.
(٥) شرح صحيح مسلم، النووي، ١٥/ ٦٦.

﴿رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٣- ١٢٥].

فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا[١].

ومن أعمال الملائكة في أحد: أنهم غسلوا من كان جنبًا من الصحابة رضي الله عنهم، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في شأن حنظلة بن أبي عامر: **(إن صاحبكم تغسله الملائكة، فاسألوا صاحبته)**، فقالت: **(إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب)**، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لذلك غسلته الملائكة)**[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **(أصيب حمزة بن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب وهما جنب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رأيت الملائكة تغسلهما)**[٣].

ومن أعمال الملائكة إظلالها لبعض الصحابة، فقد أظلت عبد الله بن حرام رضي الله عنه، كما روى ابنه جابر رضي الله عنه قال: **(لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، وينهونني عنه وهو لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (تبكين أو لا تبكين، فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه)**[٤].

سادسًا: موقف الرماة:

جعل النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من الرماة، وأمر عليهم عبد الله بن جبير، وأمرهم أن لا يبرحوا أماكنهم حتى وإن ظهر المسلمون.

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما، يحدث قال: جعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرجالة يوم أحد -وكانوا خمسين رجلًا- عبد الله بن جبير، فقال: **(إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)**، فهزموهم، قال: **فأنا والله رأيت النساء يشتددن، قد بدت خلاخلهن وأسوقهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب**

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٤٦ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ٣/ ٢٢٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٢٢، رقم ٦٨١٤.
وصححه الألباني.في إرواء الغليل ٣/ ١٦٧

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٣٩١.
وحسنه الألباني في أحكام الجنائز ١/ ٥٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه ٢/ ٧٢، رقم ١٢٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رضي الله تعالى عنهما ٤/ ١٩١٨، رقم ٢٤٧١ .

عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: والله لنأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم غير اثني عشر رجلا، فأصابوا منا سبعين[(١)].

يقول سبحانه، مبينا حقيقة ما حصل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قال محمد بن كعب القرظي: «لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد، قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ الآية إلى قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد[(٢)].

ومعنى تحسونهم أي: تقتلونهم وتستأصلونهم[(٣)].

والمعنى: ولقد حقق الله تعالى لكم أيها المؤمنون ما وعدكم به من النصر على أعدائكم؛ إذ أيدكم في أول معركة أحد بعونه وتأييده، فصرتم تقتلون المشركين قتلا ذريعا شديدا بإذنه وتيسيره ورعايته.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ١٥٢].

«أي: حتى إذا جبنتم وضعفتم ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، أي: واختلفتم في أمر الله، وعصيتم وخالفتم نبيكم، فتركتم أمره وما عهد إليكم. وإنما يعني بذلك الرماة الذين كان أمرهم صلى الله عليه وسلم بلزوم مركزهم ومقعدهم من فم الشعب بأحد بإزاء خالد بن الوليد ومن كان معه من فرسان المشركين»[(٤)].

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾، أي: من بعد الذي أراكم الله، أيها المؤمنون بمحمد، من النصر والظفر بالمشركين،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه ٤/ ٦٥، رقم ٣٠٣٩.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص ١٢٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٣٣.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٣٥.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ١٢٨.

وذلك هو الهزيمة التي كانوا هزموهم عن نسائهم وأموالهم قبل ترك الرماة مقاعدهم التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقعدهم فيها، وقبل خروج خيل المشركين على المؤمنين من ورائهم[(١)].

قال الفخر الرازي: «ما الفائدة في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾؟

والجواب عنه: أن المقصود منه التنبيه على عظم المعصية؛ لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموا عليها لا جرم سلبهم الله ذلك الإكرام، وأذاقهم وبال أمرهم»[(٢)].

«وألفاظ الآية تقتضي التوبيخ لهم، ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادئ النصر، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر في الثبات لا في الانهزام»[(٣)].

ثم قال سبحانه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «ما كنت أظن أن في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحدًا يحب الدنيا حتى نزلت: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾»[(٤)].

(١) جامع البيان، الطبري، ٧/ ٢٨٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٨٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٣٧.
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده ١/ ٢٨٤، رقم ٤٣٠.

ثم قال: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

يقول ابن عاشور: «وإنما قال: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾؛ ليدل على أن ذلك الصرف بإذن الله وتقديره، كما كان القتل بإذن الله وأن حكمته الابتلاء؛ ليظهر للرسول وللناس من ثبت على الإيمان من غيره، ولأن في الابتلاء أسرارا عظيمة في المحاسبة بين العبد وربه سبحانه وقد أجمل هذا الابتلاء هنا وسيبينه.

وعقب هذا الملام بقوله: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ تسكينًا لخواطرهم، وفي ذلك تلطف معهم على عادة القرآن في تقريع المؤمنين.

وفي تذييله بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تأكيد ما اقتضاه قوله: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ والظاهر أنه عفو لأجل التأويل، فلا يحتاج إلى التوبة، ويجوز أن يكون عفوا بعد ما ظهر منهم من الندم والتوبة»[(٥)].

وقوله: ﴿صَرَفَكُمۡ﴾ يدل على أن ما حدث في أحد لم يكن هزيمة، وإن لم يكن نصرا أيضًا؛ لأن الهزيمة تقتضي أن يولي المسلمون الأدبار، وأن يأسر بعضهم أعداؤهم، ويسبي نساءهم، ويتحكم فيهم،

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤/ ١٣٠.

وما حدث في أحد لم يكن كذلك.

عن عبيد الله بن عتبة، عن ابن عباس، أنه قال: ما نصر النبي صلى الله عليه وسلم في موطن كما نصر يوم أحد قال: فأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله عز وجل إن الله عز وجل يقول في يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

يقول ابن عباس: والحس: القتل، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وإنما عنى بهذا: الرماة، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أقامهم في موضع ثم قال: (احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل، فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا، فلا تشركونا)، فلما غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباحوا عسكر المشركين، انكشف الرماة، فدخلوا في العسكر ينتهبون، وقد التقت صفوف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فهم هكذا، وشبك بين أصابع يديه، والتبسوا فلما أخل الرماة تلك الخلة، التي كانوا فيها، دخل الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فضرب بعضهم بعضا والتبسوا وقتل من المسلمين ناس كثير[(١)].

ونستفيد من هذا الحدث الطريقة المثلى لمعالجة الخطأ وتوجيه المخطئ، فقد ترفق القرآن وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في غزوة أحد، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

على عكس ما نزل في بدر من آيات في شأن أسرى بدر، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨].

فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر، وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٣٦٨، رقم ٢٦٠٩، والحاكم في المستدرك على الصحيحين ٢/ ٣٢٤، رقم ٣١٦٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

المربي الناصح لأمته.

ونستفيد أيضًا من هذا الموقف: أهمية مبدأ الطاعة في الإسلام، بل يعد في غاية الأهمية في الأمور الحربية، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ يؤكد على الرماة أهمية الأمر بالأمر الصريح المباشر بقوله: (احموا ظهورنا)، وألا يقوموا بغير هذا الدور أيا كان مسار المعركة، (وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا).

«ولعل ما ترتب على عصيان الأوامر في هذه الموقعة درس عميق يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة، فالجماعة التي لا يحكمها أمر واحد، أو التي تغلب على أفرادها وطوائفها النزعات الفردية النافرة لا تنجح في صدام، بل لا تشرف نفسها في حرب أو سلام.

والأمم كلها -مؤمنها وكافرها- تعرف هذه الحقيقة، ولذلك قامت الجندية على الطاعة التامة، وعند ما تشتبك أمة في حرب، تجعل أحزابها جبهة واحدة، وأهواءها رغبة واحدة، وتخمد كل تمرد أو شذوذ ينجم في صفوفها، وإحسان الجندية كإحسان القيادة، فكما أن إصدار الأوامر يحتاج إلى حكمة، فإن إنفاذها يحتاج إلى كبح وكبت، ولكن عقبى الطاعة في هذه الشئون تعود على الجماعة بالخير الجزيل»[(١)].

(١) فقه السيرة، محمد الغزالي ص ٢٧١-٢٧٢.

سابعًا: مشهد إشاعة مقتل النبي صلى الله عليه وسلم:

لما للحرب النفسية من أثر عظيم في كسر إرادة الإنسان، فقد مارسها المشركون في أثناء هذه الغزوة، وذلك أن ابن قمئة المجرم، قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه، وهو يظنه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لشبهه به، فانصرف ابن قمئة إلى المشركين، إن محمدًا قد قتل[(٢)].

وصرخ الشيطان عند جبل عينين وقد تصور في صورة جعال بن سراقة رضي الله عنه: «إن محمدًا قد قتل» ثلاث صرخات، ولم يشك فيه أنه حق وكان جعال إلى جنب أبي بردة يقاتل أشد القتال، فقال جماعة من المسلمين لما سمعوا ذلك: إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم، وعلى ما كان عليه نبيكم، حتى تلقوا الله تعالى شهداء؟! وقال جماعة: ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أبي يأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان، يا قوم إن محمدًا قد قتل فارجعوا إلى قومكم، قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، واختلط المسلمون، فصاروا يقتلون على غير شعار، ويضرب بعضهم بعضًا، من العجلة والدهش وما يدري[(٣)].

(٢) دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٢٥٥.
(٣) سبل الهدى والرشاد، الصالحي ٤/ ١٩٦.

وذكر الله سبحانه المؤمنين بما كان منهم عندما أشيع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، فنزلت آيات تقرر هذه الحقيقة الثابتة، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر، وأنه سيموت كما يموت سائر البشر، وليس له صفة تميزه عن غيره من البشر سوى الرسالة التي منحها الله إياه، فقال الله سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤ - ١٤٥].

قال الطبري مبينًا المعنى الإجمالي للآيات: «يعني تعالى ذكره بذلك: وما محمد إلا رسول كبعض رسل الله الذين أرسلهم إلى خلقه، داعيًا إلى الله وإلى طاعته، الذين حين انقضت آجالهم ماتوا وقبضهم الله إليه.

يقول جل ثناؤه: فمحمد صلى الله عليه وسلم إنما هو فيما الله به صانعٌ من قبضه إليه عند انقضاء مدة أجله، كسائر رسله إلى خلقه الذين مضوا قبله، وماتوا عند انقضاء مدة آجالهم.

ثم قال لأصحاب محمد -معاتبهم على ما كان منهم من الهلع والجزع حين قيل لهم بأحد: إن محمدًا قتل، ومقبحًا إليهم انصراف من انصرف منهم عن عدوهم وانهزامه عنهم-: أفئن مات محمد، أيها القوم، لانقضاء مدة أجله، أو قتله عدو ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾، يعني: ارتددتم عن دينكم الذي بعث الله محمدًا بالدعاء إليه ورجعتم عنه كفارًا بالله بعد الإيمان به، وبعد ما قد وضحت لكم صحة ما دعاكم محمد إليه، وحقيقة ما جاءكم به من عند ربه ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، يعني بذلك: ومن يرتدد منكم عن دينه ويرجع كافرًا بعد إيمانه»[(١)].

قال ابن كثير: «لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمدًا قد قتل، ورجع ابن قمئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمدًا. وإنما قد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشجه في رأسه. فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، فحصل ضعف ووهن وتأخر بين المسلمين عن القتال. ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية»[(٢)].

وروى الطبري بسنده في قصة غزوة

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٥١ .
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٢٨ .

أحد: وفشا في الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، فقال بعض أصحاب الصخرة: «ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أبي، فيأخذ لنا أمنةً من أبي سفيان!! يا قوم، إن محمدًا قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم». قال أنس بن النضر: «يا قوم، إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد صلى الله عليه وسلم، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء!» ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل[(١)].

«وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه، فقد رئيس ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم»[(٢)].

ورجعت طائفة من الجيش إلى المدينة يوم أحد لما أشيع مقتل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تحدث الله سبحانه عن هذه الطائفة وأخبر بأنه عفا عنها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

قال ابن الجوزي: ذكر في سبب فرارهم يومئذ أنهم سمعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل، فترخصوا في الفرار، قاله ابن عباس[(٣)].

ومعنى قوله: ﴿اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾، أي: دعاهم إلى الزلة وحملهم عليها[(٤)]، وهذه الآية إعلام من الله تعالى أنه قد غفر لهم انهزام يوم أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم[(٥)].

وهي «في عمومها تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة، فتفقد ثقتها في قوتها، ويضعف بالله ارتباطها، ويختل توازنها وتماسكها، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس، بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها من رضاه! وعندئذ يجد الشيطان طريقه إلى هذه النفس، فيقودها إلى الزلة بعد الزلة، وهي بعيدة عن الحمى الآمن، والركن الركين»[(٦)].

ولما شاع الخبر في معسكر الإيمان

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٥٥ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٥١ .
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٣٣٨ .
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٠٤.
(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/ ١١٥٨.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٧ .

بمقتل النبي صلى الله عليه وسلم، انتهى أنس بن النضر رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل. ووجد بأنس بن النضر يومئذ سبعون ضربة ما عرفته إلا أخته، عرفت بنانه.

وكان أول من عرف بأن الرسول صلى الله عليه وسلم حي هو كعب بن مالك رضي الله عنه، فنادى في المسلمين يبشرهم فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بالسكوت؛ لئلا يفطن له المشركون(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

دليل واضح يبين ضرورة الارتباط بالرسالة والتمسك بالمنهج السليم، والحذر من الارتباط بالأشخاص، قال القرطبي: «فأعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبدا، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل، وإن فقد الرسول بموت أو قتل فهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين، أي: لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمد، والنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء»(٢).

ثامنًا: نهاية الغزوة:

لما يئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، فكفوا عن مقاتلة المسلمين في شعاب أحد، أشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: (لا تجيبوه)، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: (لا تجيبوه)، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أجيبوه) قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا: الله أعلى وأجل) قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أجيبوه) قالوا: ما نقول؟ قال: (قولوا الله مولانا، ولا مولى لكم) قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثلة، لم آمر بها ولم تسؤني(٣).

(١) السير والمغازي، محمد بن إسحاق، ص ٣٣٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب

ثم انسحب المشركون مكتفين بما نالوا من المسلمين، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحابه رضي الله عنهم على رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه محددا لهم الهدف من خروجهم: (اخرج في أثر القوم فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وان ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم) فخرج علي رضي الله عنه في أثرهم، فوجدهم قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة[1].

فلما رجع علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بتوجه قريش إلى مكة، وكانت غزوة أحد يوم السبت للنصف من شهر شوال، فلما كان الغد يوم الأحد السادس عشر من شوال أذن مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدو، فقال: من يذهب في أثرهم، فانتدب منهم سبعون رجلًا، قال صلى الله عليه وسلم: لا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه فأذن له[2].

وكان خروجه إرهابا للعدو، وليظنوا أن الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم، ثم ندب النبي صلى الله عليه وسلم سبعين رجلا فيهم كبار الصحابة رضوان الله عليهم؛ لتعقب جيش المشركين، فاستجابوا لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه مادحا لهم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

ذكر الإمام البخاري رحمه الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية ثم ساق بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها قالت لعروة: (يا ابن أختي كان أبواك منهم -الزبير وأبو بكر- لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا قال: (من يذهب في أثرهم؟) فانتدب منهم سبعون رجلًا قال: كان فيهم أبو بكر والزبير)[3].

وأخرج ابن جرير الطبري بإسناده إلى ابن عباس أن منهم أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا والزبير وسعدًا وطلحة وعبد الرحمن

المغازي، باب غزوة أحد ٥/ ٩٤، رقم ٤٠٤٣ .

(١) السير والمغازي، محمد بن إسحاق، ص ٣٣٤ .

(٢) جوامع السيرة النبوية، ابن حزم الأندلسي ص ١٤٠ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب (الذين استجابوا لله والرسول)، ٥/ ١٠٢، رقم ٤٠٧٧ .

ابن عوف وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبا عبيدة بن الجراح[1].

وذكر القرطبي: «أنه نهض مع النبي صلى الله عليه وسلم ماتنا رجل من المؤمنين»[2].

قال ابن جرير رحمه الله: «وإنما عنى الله تعالى ذكره بذلك: الذين اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد في طلب العدو -أبي سفيان ومن كان معه من مشركي قريش منصرفهم عن أحد- وذلك أن أبا سفيان لما انصرف عن أحد، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثره حتى بلغ حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة؛ ليرى الناس أن به وأصحابه قوةً على عدوهم»[3].

ومر بأبي سفيان ركب من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة؟

قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة، قال: فهل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم هذه غدا زبيبا بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه؛ لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: (حسبنا الله ونعم الوكيل)[4].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وهذا التصرف يبين لنا أن على المسلمين أن ينظروا بعين ثاقبة إلى مخططات أعدائهم؛ ليعرفوا منتهى خططهم، وما الذي يهدفون إليه، بل عليهم أن يقفوا لهم بالمرصاد؛ لصد هجماتهم، مبينين لهم أن لديهم القدرة -بإذن الله- على القضاء على مخططاتهم ومكرهم.

وفي نهاية هذه الغزوة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بدفن الشهداء، وكانوا سبعين شهيدا، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قتل من الأنصار يوم أحد سبعون[5]، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: (أيهم أكثر أخذا للقرآن)، فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد، وقال: (أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة)، وأمر

(١) جامع البيان، الطبري، ٧/ ٤٠٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٧٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٩٩.
(٤) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ١٠٣.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب من قتل من مسلمين يوم أحد ٤/ ١٤٩٧، رقم ٣٨٥٠.

بدفنهم في دمائهم، ولم يغسلوا، ولم يصل عليهم)[(١)].

ولم يؤسر أحد من المسلمين، أما قريش فقد قتل منهم اثنان وعشرون رجلا[(٢)] وأسر منهم أبو عزة الشاعر، فقتل صبرا؛ لأنه أخلف وعده للنبي صلى الله عليه وسلم بأن لا يقاتل ضده عندما من عليه ببدر، وأطلقه فعاد فقاتل بأحد[(٣)].

و«تسمية ما أصاب المسلمين هزيمة ليست تسمية تنطبق على الواقع تمام الانطباق، إنما تكون الهزيمة إذا كان جيش الإيمان قد فر فرارا، والآخر قد تبعه في فراره، حتى داهم المدينة المنورة، وكان ما يكون بعد ذلك.

إنما الذي أنهى القتال هم المهاجمون، وكأنما اكتفوا بأن أصابوا مقتلة من المسلمين، ورضوا بذلك؛ لأنهم لا طاقة لهم فيما وراء ذلك، وقد رأوا السيوف الإسلامية تبرق، وذاقوها مرتين، ولذا تتبعهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم.

وإذا كان ما في أحد لا يسمى هزيمة، فإنه لا يسمى نصرا أيضًا لأحد الفريقين. وقد يسمى جراحا للمسلمين، كما سماها القرآن الكريم؛ إذ سماها قرحًا، وسماها إصابة، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾[آل عمران: ١٤٠]»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد ٢/ ٩١، رقم ١٣٤٣.

(٢) السيرة النبوية، ابن كثير ٣/ ٩٢.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٤٨٥.

(٤) خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، أبو زهرة، ٢/ ٦٢٤.

التوجيهات القرآنية بعد نهاية الغزوة

أولًا: تحريم الغلول:

الغلول هو: السرقة من مال الغنيمة قبل القسمة[1]، وهو محرم إجماعًا، بل هو من الكبائر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره قال: (لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء على رقبته فرس لها حمحمة، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك، وعلى رقبته بعير له رغاء يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، وعلى رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك أو على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد بلغتك)[2].

وفي سورة آل عمران نفى الله تعالى عن نبيه الغلول، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

أي: «ما كان له، فهو ليس من شأنه أصلًا ولا من طبعه ولا من خلقه، فالنفي هنا نفي لإمكان وقوع الفعل، وليس نفيًا لحله أو جوازه، فطبيعة النبي الأمينة العادلة العفيفة لا يتأتى أن يقع منها الغلول ابتداء»[3].

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

أي: «يأت به حاملًا له على ظهره، كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيفضحه بين الخلائق، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول والتنفير منه بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد يطلع عليها أهل المحشر، وهي مجيئه يوم القيامة بما غله حاملًا له قبل أن يحاسب وافيًا من خير وشر، وهذه الآية تعم كل من كسب خيرًا أو شرًا ويدخل تحتها الغال دخولًا أوليًا لكون السياق فيه»[4].

قال ابن الجوزي رحمه الله: في سبب نزول هذه الآية سبعة أقوال:

أحدها: أن قطيفة من المغنم فقدت يوم بدر، فقال ناس: لعل النبي صلى الله عليه وسلم أخذها، فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثاني: أن رجلًا غل من غنائم هوازن يوم حنين، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس.

---

(١) القاموس الفقهي، سعدي، ١/ ٢٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الغلول ٣/ ١١١٨، رقم ٢٩٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول ٣/ ١٤٦١، رقم ١٨٣١.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٤٨١.

(٤) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٥٩٤.

والثالث: أن قومًا من أشراف الناس طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخصهم بشيء من الغنائم، فنزلت هذه الآية، نقل عن ابن عباس أيضًا.

والرابع: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث طلائع، فغنم النبي صلى الله عليه وسلم غنيمة، ولم يقسم للطلائع، فقالوا: قسم الفيء ولم يقسم لنا، فنزلت هذه الآية، قاله الضحاك.

والخامس: أن قومًا غلوا يوم بدر، فنزلت هذه الآية، قاله قتادة.

والسادس: أنها نزلت في الذين تركوا مركزهم يوم أحد طلبًا للغنيمة، وقالوا: «نخاف أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم: من أخذ شيئا، فهو له، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (ألم أعهد إليكم ألا تبرحوا؟! أظننتم أنا نغل؟!)» فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب، ومقاتل.

والسابع: أنها نزلت في غلول الوحي، قاله القرظي، وابن إسحاق[1].

فالسبب السادس يذكر أنها نزلت في أحد، وقد وردت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن غزوة أحد.

يقول محمد رشيد رضا في تفسيره: «نزلت هذه الآية في شأن النبي صلى الله عليه وسلم من سياق الحكم والأحكام المتعلقة بغزوة أحد، لكن أخرج أبو داود والترمذي وحسنه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء، افتقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾[2].

وقد ضعف هذه الرواية بعض المفسرين -وإن حسنها الترمذي-؛ لأن السياق كله في وقعة أحد، ورجحوا عليها ما روي عن الكلبي ومقاتل: «إن هذه الآية نزلت حين ترك الرماة المركز الذي وضعهم فيه النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد؛ طلبا للغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم: من أخذ شيئا من مغنم فهو له، وألا يقسم الغنائم، كما لم يقسمها يوم بدر، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: (ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري؟) فقالوا: تركنا بقية إخواننا وقوفًا، فقال لهم: (بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم)، والصواب أن هذه الآية من متعلقات هذه الوقعة كالآيات التي قبلها وكثير مما يأتي بعدها»[3].

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٤١-٣٤٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحروف والقراءات ٤/ ٣١، رقم ٣٩٧١، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة آل عمران ٥/ ٢٣٠، رقم ٣٠٠٩.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٦٨٢.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٤/ ١٧٦.



ويقول الألوسي: «والمراد تنزيه ساحة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على أبلغ وجه عما ظن به الرماة يوم أحد.

فقد حكى الواحدي عن الكلبي، ومقاتل أن الرماة حين تركوا المركز يومئذ طلبا للغنيمة قالوا: نخشى أن يقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: من أخذ شيئا فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: (ظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم) ولهذا نزلت الآية، أو تنزيهه صلى الله تعالى عليه وسلم عما اتهمه به بعض المنافقين يوم بدر، فقد أخرج أبو داود والترمذي وابن جرير وحسناه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنه قال: نزلت هذه الآية في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذها، والرواية الأولى أوفق بالمقام، وارتباط الآية بما قبلها عليها أتم؛ لأن القصة أحدية»[1].

ثانيًا: فضل الشهادة:

أثنى الله تبارك وتعالى ثناء حسنًا على الشهداء والذين لحقوا بالرفيق الأعلى يوم أحد، وهم مقاتلون في سبيل الله تعالى؛ وفاء منهم بصدق ما عاهدوا الله تعالى عليه وقد جاء الثناء عليهم بالذكر الحسن في آيات من الكتاب العزيز فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

وقد جاء في سبب نزول هذه الآيات أحاديث منها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم، ومشربهم، ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا، أنا أحياء في الجنة نرزق؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم)، قال: فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩] إلى آخر الآية)[2].

وعن مسروق، قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

(١) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٣٢١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة ٣/ ١٥، رقم ٢٥٢٠. وحسنه الألباني في صحيح أبي داود ٧/ ٢٧٩.

قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: (أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا)[1].

وجاء في مصنف ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ لما أصيب حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير يوم أحد قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما أصبنا من الخير كي يزدادوا رغبة، فقال الله: أنا أبلغ عنكم فنزلت: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧١][2].

وعن جابر بن عبد الله، قال: (لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: (يا جابر ما لي أراك منكسرا؟) قلت: يا رسول الله استشهد أبي، وترك عيالا ودينا، قال: (أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟) قال: بلى يا رسول الله. قال: (ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحا. فقال: يا عبدي تمن علي أعطك. قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون) قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩][3].

وهذه الآية تضمنت النهي عن ظن الموت بالشهداء فدلت على أنهم أحياء عند ربهم يرزقون والخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم يقول: ولا تحسبنهم، يا محمد، أمواتًا، لا يحسون شيئًا، ولا يلتذون ولا يتنعمون، فإنهم أحياء عندي، متنعمون في رزقي، فرحون مسرورون بما آتيتهم من كرامتي وفضلي، وحبوتهم به من جزيل ثوابي وعطائي[4].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ٣/ ١٥٠٢، رقم ١٨٨٧.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٤/ ٢١٦، رقم ١٩٤٣٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة آل عمران ٥/ ٢٣٠، رقم ٣٠١٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٣٠٩.

(٤) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٨٤.

وقد جاءت آية في سورة الأحزاب ذكر المفسرون أنها نزلت في بعض شهداء أحد وهي قوله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وجاءت روايات في سبب نزول هذه الآية، منها:

١. نزلت في أنس بن النضر، فعن أنس رضي الله عنه، قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: «يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع»، فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، قال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني: أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني: المشركين-، ثم تقدم»، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: «يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد»، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: «كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] إلى آخر الآية»[(١)].

٢. نزلت في طلحة بن عبيد الله، فعن موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما طلحة، (أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لأعرابي جاهل: سله عمن قضى نحبه من هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته يوقرونه ويهابونه، فسأله الأعرابي فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم إني اطلعت من باب المسجد وعلي ثياب خضر، فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أين السائل عمن قضى نحبه؟) قال الأعرابي: أنا يا رسول الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا ممن قضى نحبه)[(٢)].

٣. نزلت في مصعب بن عمير وأصحابه يوم أحد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له، ثم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)، ٤/ ١٩، رقم ٢٨٠٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة الأحزاب ٥/ ٣٥٠، رقم ٣٢٠٣. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٢٤٧.

قرأ هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه)**(١).

والظاهر أن هذه الآية تصدق على كل من قتل في سبيل الله، بعد أن جاهد بإخلاص وثبات؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والله تعالى أعلم.

ثالثًا: توجيهات عامة للمؤمنين:

بعد غزوة أحد وجه الله عباده المؤمنين إلى توجيهات عديدة، فمن ذلك:

١ . النهي عن التشبه بالمنافقين.

نهى الله عباده المؤمنين عن الاتصاف بصفات الكافرين، ومن ذلك قول الكافرين لإخوانهم في الكفر -إذا هم ضربوا في الأرض لتجارة أو لغزو فمات من مات منهم، أو قتل من قتل بقضاء الله وقدره-: لو كانوا عندنا، أي: ما فارقونا وبقوا في ديارنا، ما ماتوا وما قتلوا، وحسب سنة الله تعالى فإن هذا القول منهم يتولد لهم عنه بإذنه تعالى غم نفسي وحسرات قلبية تمزقهم، وقد تودي بحياتهم، وما درى أولئك الكفرة الجهال أن الله يحيي ويميت، فلا السفر ولا القتال يميتان، ولا القعود في البيت جبنًا وخورًا يحيي.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

يقول الطبري: يعني بذلك -جل ثناؤه-: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وأقروا بما جاء به محمد من عند الله، لا تكونوا كمن كفر بالله وبرسوله، فجحد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وقال لإخوانه من أهل الكفر ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فخرجوا من بلادهم سفرًا في تجارة، أو خرجوا من بلادهم غزاةً فهلكوا فماتوا في سفرهم، أو قتلوا في غزوهم: لو لم يكونوا خرجوا من عندنا، وكانوا أقاموا في بلادهم ما ماتوا وما قتلوا، وقد قيل: إن الذين نهى الله المؤمنين بهذه الآية أن يتشبهوا بهم فيما نهاهم عنه من سوء اليقين بالله، هم عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه(٢).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ٢/ ٢٧١، رقم ٢٩٧٧. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ١١/ ٣٦٥.

(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٣٠.

قال سيد: «وظاهر من مناسبة هذه الآيات في سياق المعركة، أن هذه كانت أقوال المنافقين الذين رجعوا قبل المعركة، والمشركين من أهل المدينة الذين لم يدخلوا في الإسلام ولكن ما تزال بين المسلمين وبينهم علاقات وقرابات.

وأنهم اتخذوا من مقاتل الشهداء في أحد، مادة لإثارة الحسرة في قلوب أهليهم، واستجاشة الأسى على فقدهم في المعركة -نتيجة لخروجهم-، ومما لا شك فيه أن مثل هذه الفتنة والمواجع دامية، مما يترك في الصف المسلم الخلخلة والبلبلة. ومن ثم جاء هذا البيان القرآني؛ لتصحيح القيم والتصورات، ورد هذا الكيد إلى نحور كائديه، والله في تربيته للجماعة المسلمة وفي ظلال غزوة أحد وما نال المسلمين فيها يحذرهم أن يكونوا كالذين كفروا، أولئك الذين تصيبهم الحسرات، كلما مات لهم قريب وهو يضرب في الأرض ابتغاء الرزق أو قتل في ثنايا المعركة وهو يجاهد»[1].

٢. نهي المؤمنين عن إطاعة الكفار.

قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩ - ١٥١].

أي: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله في وعد الله ووعيده وأمره ونهيه إن تطيعوا الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى فيما يأمرونكم به وفيما ينهونكم عنه، فتقبلوا رأيهم في ذلك وتنتصحوهم فيما يزعمون أنهم لكم فيه ناصحون، فيحملونكم على الردة بعد الإيمان، والكفر بالله وآياته وبرسوله بعد الإسلام، فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذي هداكم الله له هالكين، قد خسرتم أنفسكم، وضللتم عن دينكم، وذهبت دنياكم وآخرتكم[2].

وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم قصدهم ردهم إلى الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران.

ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور[3].

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٧٦

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥١.

وحده وليًا وناصرًا من دون كل أحد، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى.

ومن مظاهر الرعب التي ألقاها الله تعالى في قلوب المشركين، أنهم بعد أن انتصروا على المسلمين في غزوة أحد كان في قدرتهم أن يوغلوا في مهاجمتهم وقتالهم، إلا أن الرعب صدهم عن ذلك.

٣. الترغيب في الشهادة في سبيل الله.

رغب الله سبحانه في الشهادة في سبيله، وبين أنها سبب للمغفرة والرحمة، فقال: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٧-١٥٨].

أي: لا تكونوا، أيها المؤمنون، في شك من أن الأمور كلها بيد الله، وأن إليه الإحياء والإماتة، كما شك المنافقون في ذلك، ولكن جاهدوا في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله، على يقين منكم بأنه لا يقتل في حرب ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله وحانت وفاته، ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة، وأخبرهم أن موتًا في سبيل الله وقتلا في الله، خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها ورغيد عيشها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل الله، ويتأخرون عن لقاء العدو[(١)].

٤. الأمر بالأخذ بالشورى.

شاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في البقاء في المدينة والتحصن فيها، أو الخروج لملاقاة المشركين.

وكان رأي النبي صلى الله عليه وسلم البقاء في المدينة، وقال: أنا في جنة حصينة، وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن رجالا من المسلمين ممن كان فاته بدر، قالوا بالخروج لملاقاة العدو.

قال ابن كثير رحمه الله: «وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ولم يتناهوا إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيه، ولو رضوا بالذي أمرهم كان ذلك، ولكن غلب القضاء والقدر، وعامة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدرا، قد علموا الذي سبق لأصحاب بدر من الفضيلة»[(٢)].

قال تعالى آمرًا نبيه صلى الله عليه وسلم بالأخذ بمبدأ الشورى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٣٧.
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ٤/ ١٥.

﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال الطبري: «إن الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه ومكايد حربه، تألفًا منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التي يؤمن عليه معها فتنة الشيطان وتعريفًا منه أمته مأتى الأمور التي تحزبهم من بعده ومطلبها؛ ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته صلى الله عليه وسلم يفعله. فأما النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الله كان يعرفه مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحيه أو إلهامه إياه صواب ذلك. وأما أمته فإنهم إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك، على تصادقٍ وتوخٍ للحق، وإرادة جميعهم للصواب، من غير ميل إلى هوى، ولا حيد عن هدى، فالله مسددهم وموفقهم»(١).

وهذا من أعظم الدروس العملية من النبي صلى الله عليه وسلم، حيث إن رأيه صلى الله عليه وسلم كان البقاء في المدينة وقتال المشركين فيها وفي الطرقات، ومن فوق الدور، لكن لما كان رأي الأغلبية، مخالفا لرأيه صلى الله عليه وسلم وكان الأمر محل اجتهاد، نزل صلى الله عليه وسلم عن رأيه لرأي الأغلبية، وكان ذلك تطبيقا رائعا رفيع المستوى منه صلى الله عليه وسلم لمبدأ الشورى.

٥. تنبيه أهل الإيمان أن النصر بيد الله.

عندما يكتب الله تعالى للمؤمنين النصر، فلن تستطيع قوى الأرض كلها الحيلولة دونه، وحين يكتب الهزيمة، فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمة.

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلو اجتمع عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعدة؛ لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق(٢).

٦. أمر المؤمنين بالصبر اقتداء بأتباع الرسل من قبل.

في نهاية المعركة ذكر الله حال كثير من الأنبياء السابقين الذين قاتل معهم جموع

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٥- ٣٤٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٥٤.

كثيرة من أصحابهم، فما ضعفوا لما نزل بهم من جروح أو قتل؛ لأن ذلك كان في سبيل ربهم، وما عجزوا، ولا خضعوا لعدوهم، بل إنما صبروا على ما أصابهم.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨].

قال ابن كثير: «عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد، وتركوا القتال أو سمعوا الصائح يصيح: إن محمدا قد قتل، فعذلهم الله على فرارهم وتركهم القتال»[(١)].

القيادة النبوية في الغزوة

تجلت القيادة النبوية في غزوة أحد في أمور عدة منها:

١ . جمع المعلومات عن العدو.

حصل النبي صلى الله عليه وسلم في وقت مبكر على المعلومات الكافية عن استعداد قريش لغزو النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين قبل تحركها، فأرسل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه رسالة مستعجلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ضمنها جميع تفاصيل الجيش.

وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجد في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة في ثلاثة أيام، وسلم الرسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسجد قباء.

وقرأ الرسالة على النبي صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب، فأمره بالكتمان، وعاد مسرعا إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار[(٢)].

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم، فدخل فيهم، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: ما رأيت؟ قال: رأيت يا رسول الله عددا ثم حزرتهم ثلاثة آلاف

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣٠.

(٢) الرحيق المختوم، المباركفوري ص ١٨٣.

يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروعا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع[١].

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عينين له: أنسا ومؤنسا ابني فضالة الظفريين، ليلة الخميس لخمس مضت من شوال، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبرهم، وأنهم قد حلوا إبلهم وخيلهم في الزرع الذي بالعريض حتى تركوه ليس به خضراء[٢].

وهذا يدل على اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بجمع معلومات كافية عن العدو، فقد استطاع معرفة قوة جيش عدوه وعدده.

٢. الأخذ بمبدأ الشورى.

كان النبي صلى الله عليه سلم يقول لأصحابه لما علم بخروج قريش لحربه: (أشيروا علي أيها الناس)[٣]، حتى يصل إلى قرار نهائي سليم، ورأي سديد، وهو بذلك يطيب خواطر أصحابه، ويعرف تفكيرهم وعقولهم، ويجعلهم يتحمسون للقتال؛ لأنهم يعرفون أنهم شاركوا في اتخاذ القرار.

٣. أمان المدينة.

في غزوة أحد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم عدة تدابير أمنية لحماية المدينة فمن ذلك: أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى أحد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم[٤].

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، فقال: (اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم) قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة[٥].

ومن هنا يظهر لنا أهمية عناية القائد واهتمامه بسلامة وتأمين نفسه من الداخل، حتى لا يؤتى من حيث لا يحتسب.

٤. اختيار الموقع المناسب.

لما نزل من جبل أحد وصل إلى عدوة الوادي، فعسكر النبي صلى الله عليه وسلم بجيشه مستقبلًا المدينة، وجعل ظهره إلى هضاب جبل أحد، فصار جيش العدو فاصلًا بين المسلمين وبين المدينة، وقد كان لهذا الترتيب فائدةٌ عظيمة، وهي حماية ظهر الجيش[٦].

(١) مغازي الواقدي ١/ ٢٠٧.
(٢) عيون الأثر، ابن سيده ٢/ ١٣ .
(٣) مغازي الواقدي ١/ ٢٠٩ .
(٤) غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم، السيد الجميلي، ص ٦٠.
(٥) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٩٤ .
(٦) الرحيق المختوم، المباركفوري ص ٢٣٠ .

٥. الاستعداد للقتال وترتيب الصفوف وتجهيز الجيش للمعركة.

اختار رسول الله خمسين من الرماة تحت إمرة عبد الله بن جبير وأصدر أوامره إليهم: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم، هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم).

وقال: (الزموا مكانكم لا تبرحوا منه، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل في عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا وارشقوهم بالنبل؛ فإن الخيل لا تقدم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم)[١].

وبذلك يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد سيطر على المرتفعات المجاورة للمعركة.

وبين الله سبحانه كيف كانت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم من بداية الغزوة فقال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١].

أي: تبين لهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم[٢]، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي على رجليه يسوي تلك الصفوف، ويبوئ أصحابه للقتال يقول: تقدم يا فلان! وتأخر يا فلان! حتى إنه ليرى منكب الرجل خارجا فيؤخره، فهو يقومهم كأنما يقوم بهم القداح[٣].

والغدو: الخروج وقت الغداة، وهو أول النهار، وعبر عن الخروج بالغدو الذي هو الخروج غدوة، مع كونه صلى الله عليه وسلم خرج بعد صلاة الجمعة -كما سيأتي-؛ لأنه قد يعبر بالغدو والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناهما، كما يقال: أضحى، وإن لم يكن في وقت الضحى[٤].

وفي هذه الآية أعظم مدح للنبي صلى الله عليه وسلم فهو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة -صلوات الله وسلامه عليه-[٥].

٦. تنظيم الحراسة الليلية واختيار خمسين من أصحابه لحراسة المعسكر.

لما أدرك النبي صلى الله عليه وسلم الليل في المكان الذي استعرض فيه الجيش، بات هناك، واختار خمسين رجلًا لحراسة

---

(١) السيرة الحلبية، علي الحلبي ٢/ ٣٠٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١١٠.
(٣) مغازي الواقدي ١/ ٢٢١.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٣٢.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٤٥.

المعسكر، وجعل قائدهم محمد بن سلمة، وكان هؤلاء يتجولون حول المعسكر، وتولى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي صلى الله عليه وسلم[(١)].

٧. رد الصغار الذين لا يطيقون القتال من بين الجيش.

عندما وصل الجيش إلى مكان يقال له: (الشيخان)، استعرض الجيش ورد الذين لا يطيقون القتال من الصغار، وكان منهم عبدالله بن عمر بن الخطاب، وأسامة بن زيد، وأسيد بن ظهير، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعرابة بن أوس، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن حارثة الأنصاري، وسعد بن حبتة، وأجاز رافع بن خديج، وسمرة بن جندب على صغر سنهما، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهرًا في رماية النبل، وسمرة كان أقوى من رافع؛ لأنهما تصارعا بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فصرع سمرة رافعًا، فأجازه النبي صلى الله عليه وسلم[(٢)].

قال ابن إسحاق: «ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى الجبل»[(٣)].

(١) الرحيق المختوم، المباركفوري ص ٢٢٩ .
(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢١٦، سبل الهدى والرشاد، الصالحي ٤/ ١٨٧ .
(٣) السير والمغازي، محمد بن إسحاق، ص ٣٢٥.

٨. اختيار خمسين من الرماة وجعلهم على جبل الرماة.

انتخب النبي صلى الله عليه وسلم من الجيش خمسين من الرماة الماهرين، وأعطى قيادتهم لعبدالله بن جبير بن النعمان الأنصاري، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي قناة جنوب شرق المعسكر، على بعد حوالي مائة وخمسين مترًا من مقر الجيش الإسلامي، عرف هذا الجبل بعد ذلك بجبل الرماة[(٤)].

أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرماة بعدة وصايا، وذلك تأكيدًا عليهم بألا يغادروا أماكنهم، فقال لقائد الرماة: (انضح عنا الخيل بالنبل، لا يأتوننا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك)[(٥)].

٩. الانسحاب التكتيكي.

لما خالف الرماة أمر رسول الله وطوق جيش المسلمين تجمع حول النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة؛ فيهم أبو بكر وعمر وعلي، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن الصمة، ورهط من المسلمين[(٦)]، فأخذ الرسول صلى

(٤) الرحيق المختوم، المباركفوري، ص ٢٣١.
(٥) السير والمغازي، محمد بن إسحاق ص ٣٢٦، دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٢٢٧ .
(٦) دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٣٥٥ .

الله عليه وسلم بعملية الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، فشق طريقًا بين المشركين المهاجمين لبقية الجيش، حتى ينسحبوا إلى الجبل، ويتخلصوا من عملية التطويق التي حلت بهم، وبهذه الطريقة انسحب الجيش، وفشلت عملية التطويق التي كان يراد منها القضاء على ذلك الجيش(١).

١٠. اتخاذ القرار.

اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم قراره بالخروج لملاقاة عدوه، واتخذ قرارات أخرى في المعركة وبعدها.

ومن ذلك: قتل أسير المشركين، أبا عزة الجمحي، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسره ببدر، ثم من عليه، فقال: يا رسول الله، أقلني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدًا مرتين، اضرب عنقه يا زبير)**. فضرب عنقه. قال ابن هشام: وبلغني عن سعيد بن المسيب أنه قال: قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت، فضرب عنقه)**(٢).

وحين أمر صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى حمراء الأسد في صبيحة اليوم التالي لغزوة أحد أصدر قراره بألا يخرج إلا من شهد معه القتال يوم أحد فاستأذنه جابر بن عبد الله أن يفسح له في الخروج معه، ففسح له في ذلك(٣).

١١. عدم تعنيف أصحابه.

لما استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وخيرهم بين الخروج للقاء العدو والبقاء في المدينة، واختار الغالبية الخروج، لم يعنفهم مع ما حصل لهم من الآلام والجراح، «لقد كان من حق القيادة النبوية أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة، أمام ما أحدثته من انقسام في الصفوف في أحرج الظروف وأمام النتائج المريرة التي انتهت إليها المعركة! ولكن الإسلام كان ينشئ أمة، ويربيها، ويعدها لقيادة البشرية. وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة، أن تربى بالشورى وأن تدرب على حمل التبعة، وأن تخطئ -مهما يكن الخطأ جسيمًا وذا نتائج مريرة-؛ لتعرف كيف تصحح خطأها، وكيف تحتمل تبعات رأيها وتصرفها. فهي لا تتعلم الصواب إلا إذا زاولت الخطأ، والخسائر لا تهم إذا كانت الحصيلة هي إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة»(٤).

١٢. كان النبي صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة لأصحابه في الصبر.

(١) الرحيق المختوم، المباركفوري، ص ٢٤٠ .
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ١٠٤ .
(٣) جوامع السيرة، ابن حزم الأندلسي، ص ١٤٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٠١- ٥٠٢.



فقد أوذي صلى الله عليه وسلم إيذاء شديدا في بدنه حيث سقط في حفرة حفرها أبو عامر الفاسق وشج وجهه الشريف ودخلت حلقتا المغفر في وجنته الشريفة، وأوذي صلى الله عليه وسلم أذًى شديدا، بفقد عمه وأخيه من الرضاعة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ومع هذا كله صبر صلى الله عليه وسلم على كل هذا الأذى.

الدروس المستفادة من غزوة أحد

وصف الله غزوة أحد وصفا دقيقا، وبين سبحانه خفايا النفوس، ودخائل القلوب، وذكر سبحانه دروسا عظيمة يستفيد منها المسلم في سيره إلى ربه -تبارك وتعالى-، فمن تلك الدروس ما يلي:

أولًا: المعصية والتنازع سبب لتخلف النصر عن الأمة، فبسبب معصية الرماة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، واختلافهم حول الغنائم ذهب النصر عن الأمة بعد أن لاحت بوادره.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ونلحظ من خلال أحداث غزوة أحد: أن المسلمين انتصروا في أول الأمر حينما امتثلوا أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم انهزموا لما خالفوا أمره ونزل الرماة من الجبل لجمع الغنائم مع بقية الصحابة رضي الله عنهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾؛ إعلامًا لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادل قادر.

وفي ذكر قدرته هاهنا نكتة لطيفة، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره، ولا تتكلوا على سواه، وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦].

ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تمييزًا ظاهرًا، وكان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما في نفوسهم فسمعه المؤمنون، وسمعوا رد الله عليهم وجوابه لهم فلله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة ونعمة على المؤمنين سابغة، وكم فيها من تحذير وتخويف وإرشاد وتنبيه وتعريف بأسباب الخير والشر، ومآلهما وعاقبتهما![1].

ثانيًا: حب الدنيا والتعلق بها قد يتسلل إلى قلوب أهل الإيمان والصلاح، وربما خفي عليهم ذلك، فقد وصف الله حال المؤمنين لما شاهدوا الغنيمة بقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب، التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما كنت أرى أن أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا، حتى نزل فينا يوم أحد: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾[2].

وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها[3].

ثالثًا: ويتخذ منكم شهداء.

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢١٤-٢١٥.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٧/ ٤١٨، رقم ٤٤١٤، وابن أبي شيبة في المصنف ١/ ٢٨٤، رقم ٤٣٠.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٤.

﴿شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

و«هو تعبير عجيب عن معنى عميق، إن الشهداء لمختارون، يختارهم الله من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه سبحانه، فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد، إنما هو اختيار وانتقاء، وتكريم واختصاص، إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة؛ ليستخلصهم لنفسه سبحانه ويخصهم بقربه»(١).

رابعًا: الجنة غالية عزيزة لا تنال إلا على جسر المتاعب والمشاق والصبر على البلاء، قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

و«صيغة السؤال الاستنكارية يقصد بها إلى التنبيه بشدة إلى خطأ هذا التصور، تصور أنه يكفي الإنسان أن يقولها كلمة باللسان: أسلمت وأنا على استعداد للموت. فيبلغ بهذه الكلمة أن يؤدي تكاليف الإيمان، وأن ينتهي إلى الجنة والرضوان! إنما هي التجربة الواقعية، والامتحان العملي، وإنما هو الجهاد وملاقاة البلاء، ثم الصبر على تكاليف الجهاد، وعلى معاناة البلاء»(٢).

خامسًا: تمحيص المؤمنين وتمييزهم عن المنافقين، ومحق الكافرين باستحقاقهم غضب الله وعقابه، وقد جمع الله ذلك كله في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤١].

وميز الله المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا، فاقتضت حكمة الله عز وجل أنزل على عباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة، وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبوآتهم، وعاد تلويحهم تصريحا، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا، وعرف المؤمنون أن لهم عدوا في نفس دورهم، وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدوا لهم، وتحرزوا منهم.

قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن

(١) المصدر السابق ١/ ٤٨١.
(٢) المصدر السابق ١/ ٤٨٣.

رُسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[آل عمران: ١٧٩](١).

سادسًا: أهمية الأخذ بالأسباب، أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بجميع الأسباب المادية المعينة له على النصر بعد الله سبحانه، وما ذلك إلا ليعلم أمته، فقد دخل صلى الله عليه وسلم بيته ومعه أبو بكر وعمر، فعمماه وألبساه، فتدجج بسلاحه وظاهر بين درعين، وتقلد السيف، ثم خرج على الناس(٢).

فلما خرج قال له الذين ألحوا عليه بالخروج: يا رسول الله، ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما شئت، إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته(٣) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه)(٤).

سابعًا: تذكير المؤمنين بمصير الأمم السابقة التي كذبت بدعوة الله تعالى، وكيف جرت فيهم سنته على حسب عادته، وهي الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وظلمهم وفسوقهم على أمره.

قال سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[آل عمران: ١٣٧].

ثامنًا: تسلية المؤمنين، وتعزيتهم على ما أصابهم من القتل والجراح يوم أحد، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٩].

قال أبو جعفر الطبري: «وهذا من الله تعالى ذكره تعزيةٌ لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما أصابهم من الجراح والقتل بأحد.

أي: ولا تضعفوا بالذي نالكم من عدوكم بأحد، من القتل والقروح عن جهاد عدوكم وحربهم، ولا تأسوا فتجزعوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذ، فإنكم أنتم الأعلون، الظاهرون عليهم، ولكم العقبى في الظفر والنصرة عليهم، إن كنتم مصدقي نبيي محمد صلى الله عليه وسلم فيما يعدكم، وفيما ينبئكم من الخبر عما يئول إليه أمركم وأمرهم(٥).

وقال سبحانه مسليا عباده المؤمنين: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران: ١٤٠].

ومن تسلية الله لعباده المؤمنين في هذه الغزوة قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٩٧.
(٢) عيون الأثر، ابن سيده ١/ ٤١٢.
(٣) اللأمة آلة الحرب من درع وسيف وترس.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ١٤١، رقم ٢٥٨٨، البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٤٥٢. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.
(٥) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٣٤.

مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

قال السعدي رحمه الله: «هذا تسلية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدما، لم تزل سنة الله جارية بذلك، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ﴾ أي: وكم من نبي ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ﴾ أي: جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك. ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا، أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾»[1].

تاسعًا: بيان أن الموت مكتوب على كل أحد وأن الرسول ميت كغيره لا محالة؛ لأن كل نفس ذائقة الموت، ومهمة الرسول تبليغ ما أرسل به، وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائما مع قومه، فلا خلود لأحد في هذه الدنيا.

قال ابن القيم رحمه الله: «وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصا بين يدي موت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فثبتهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد، وهو حي لا يموت، فلو مات محمد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت، وما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ليخلد لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لا بد منه سواء مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بقي، ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه، لما صرخ الشيطان إن محمدا قد قتل، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا، فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارتد من ارتد على عقبيه، وثبت الشاكرون على

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٥١ .

دينهم، فنصرهم الله وأعزهم، وظفرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم»[١].

موضوعات ذات صلة:

غزوة الأحزاب، غزوة بدر، غزوة تبوك، غزوات الرسول مع اليهود

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٠١ .







عناصر الموضوع

المجلد الخامس والعشرون

التعريف بغزوة الأحزاب

أولًا: أسماؤها:

لقد سميت غزوة الأحزاب بذلك الاسم، بسبب اجتماع أحزاب وطوائف من المشركين فيها لمحاربة المسلمين، وعلى رأسهم قريش وغطفان ومعهم اليهود[(١)]، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى اسم الأحزاب في قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وسميت أيضًا بغزوة الخندق؛ لأنه عندما علم المسلمون بقدوم الأحزاب استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه عليه بحفر خندق حول المدينة يحول بينهم وبين الأحزاب ففعلوه بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٢)].

وقد وردت هذه التسمية على ألسنة الصحابة رضي الله عنهم، حيث روي عن عبد الرحمن وهو ابن عبد الله بن دينار، عن أبيه، أن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «أول يوم شهدته يوم الخندق»[(٣)]، وعن أبي إسحاق، قال: سمعت البراء بن عازب يحدث، قال: «لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم، رأيته ينقل من تراب الخندق، حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه»[(٤)].

ثانيًا: حكمة تسمية سورة باسمها:

لما تحزب المشركون من قريش وغطفان وبعض العرب ويهود بني قريظة، واجتمعوا لغزو المسلمين في المدينة، وقد رد الله كيدهم وكفى الله المؤمنين القتال في غزوة الأحزاب، ذكر الله سبحانه وتعالى تفاصيل هذه الغزوة وقصتها في سورة سميت بسورة الأحزاب، ولما كانت غزوة الأحزاب حدًا فاصلًا لمرحلة جديدة، أعلن فيها النبي صلى الله عليه وسلم أنه لن يأتي أحد بعد هذه الغزوة ليغزو المسلمين، بل هم سيقومون بغزو أعدائهم، حيث روي عن سليمان بن صرد، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: (نغزوهم، ولا يغزوننا)[(٥)].

ونصر الله سبحانه وتعالى في الغزوة

---

(١) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤١٣.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤١٠٧، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، ٥/ ١١٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤١٠٦، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، ٥/ ١١٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤١٠٩، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، ٥/ ١١٠.

نبيه صلى الله عليه وسلم والمسلمين وأيدهم بجنوده من الملائكة الكرام والريح والخندق.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

فكانت غزوة الأحزاب معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لذلك سميت سورة باسمها تأييدًا للنبي صلى الله عليه وسلم وتخليدًا لهذه الغزوة، وبيانًا لأحداثها، ولما فيها من دروس وعبر للمؤمنين، وهذا من أعظم مقاصد القرآن الكريم[١].

ثالثًا: زمان الغزوة ومكانها:

فأما زمان الغزوة: فذهب جمهور أهل السير والمغازي على أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة[٢]، وذهب إلى هذا القول ابن سعد، وابن إسحاق، والواقدي، والطبري، وابن كثير[٣]، وغيرهم.

وذهب طائفة من العلماء إلى أنها في السنة الرابعة من الهجرة، منهم الزهري، ومالك بن أنس، وموسى بن عقبة[٤]، وابن حزم، والنووي[٥].

والذي يرجح هو رأي الجمهور، وهو ما رجحه ابن القيم فقال: «وكانت سنة خمسة من الهجرة في شوال على أصح القولين، إذ لا خلاف أن أحدًا كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل، وهو سنة أربع، ثم أخلفوه لأجل جدب تلك السنة، فرجعوا، فلما كانت سنة خمس جاؤوا لحربه، هذا قول أهل السير والمغازي»[٦].

وأما مكان الغزوة: فحدثت غزوة الأحزاب على مشارف المدينة المنورة، وقد حفر المسلمون الخندق على مشارفها وتحصنوا في المدينة للدفاع عنها، وكان حفر الخندق بإشارة من سلمان الفارسي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولما قبل النبي صلى الله عليه وسلم هذه المشورة تم حفر الخندق في السهل الواقع شمال غرب المدينة، وهو الجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام العدو، حيث هذه المنطقة

(١) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين ٦/ ٦٣، ٦٦.

(٢) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٠٨، السيرة النبوية، الصلابي، ٢/ ٢٥٧.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ٥٠، المغازي، الواقدي ٢/ ٤٤٠، تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٥٦٤، السيرة النبوية، ابن كثير ٣/ ١٨١.

(٤) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٤/ ١٠٧.

(٥) انظر: جوامع السيرة، ابن حزم ص١٤٧، شرح صحيح مسلم، ٨/ ١٧٧، فتح الباري، ابن حجر، ٥/ ٢٧٨.

(٦) زاد المعاد، ٣/ ٢٤٠.

هي المنطقة الوحيدة المكشوفة من المناطق المحيطة بالمدينة المنورة؛ إذ أن جهات المدينة الأخرى محاطة بالبساتين الكثيفة والعوارض الطبيعية الأخرى، وذلك يحول دون إمكان إجراء القتال بقوات كبيرة في أطراف المدينة عدا الشمالية منها[(١)].

وقد تجمعت جيوش الأحزاب حول المدينة، وجعل المسلمون ظهورهم إلى جبل سلع استعدادًا للقاء الأعداء والخندق بينهم[(٢)].

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ٢٢٤، السيرة النبوية، أبو حسن الندوي، ١/ ٣٤٧، الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ١/ ٢٢٨.

(٢) انظر: غزوات النبي صلى الله عليه وسلم، السيد الجميلي، ١/ ٧٦، الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ١/ ٢٢٨.

أسباب الغزوة

إن تحركات المسلمين المتواصلة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية، وتحديهم المستمر لقريش، وتهديدهم لطرق تجارتها، قد هيأت الظروف لتحالف المشركين مع اليهود لاجتثاث المسلمين من قاعدتهم المدينة، فإن قريشًا كانت تفكر بحملة عسكرية ضد الوجود الاسلامي، وتود لو أتيحت لها الفرصة للقضاء على النبي صلى الله عليه وسلم والإسلام، وقد أتتهم الفرصة حينما اتصل بهم زعماء يهود بني النضير داعين قريشًا لحرب المسلمين[(٣)].

وكان يهود بني النضير وبني قينقاع الذين أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة مغيظين، خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما أن استقروا بخيبر حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين ويسعون بكل ما في وسعهم للقضاء عليهم، فاتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة لتحريضها على حرب الإسلام، وكونوا لهذا الغرض الخبيث وفدًا يتكون من سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، ونفر من وائل

(٣) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ١/ ٣٢٣.

وتوجهوا إلى قريش. وقد نجح الوفد نجاحًا كبيرًا في مهمته حيث وافقت قريش التي كانت تنتظر الفرصة بعد الحصار الاقتصادي المضروب عليها من المسلمين، ووافقت غطفان طمعًا في خيرات المدينة وفي السلب والنهب، وتابعتهم قبائل أخرى، فتعاقدوا جميعًا، والتقى قصد قوى الشر في القضاء على الإسلام، وقد شهدوا أن الشرك خير من الإسلام، حتى نزلت في حقهم الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١-٥٢][(١)].

وقد بين الطبري في تفسيره أن هذه الآية وصف من الله سبحانه وتعالى للذين أوتوا نصيبًا من الكتاب من اليهود بتعظيمهم غير الله بالعبادة، وتفضيلهم أهل الكفر بالله على أهل الإيمان به، وقولهم أن دين أهل التكذيب لله ولرسوله، أعدل وأصوب من دين أهل التصديق لله ولرسوله. وذكر آراء العلماء في سبب نزول الآية، وخلص إلى القول بأن ذلك خبر من الله سبحانه وتعالى عن جماعة من أهل الكتاب من يهود، وجائز أن يكون حييًا وآخر معه إما كعبًا وإما غيره[(٢)].

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ٢١٤، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن سويلم أبو شهبة، ٢/ ٢٧٥، السيرة النبوية، علي الصلابي، ٢/ ٢٥٨، حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤١٢.

(٢) انظر: جامع البيان، ٨/ ٤٦٨.

بداية الغزوة

أولًا: مجيء الأحزاب وحصارهم المدينة:

لقد تجمعت الأحزاب لحرب المسلمين، فخرجت قريش وغطفان وغيرهم من القبائل، وقد تولى قيادة جموع الأحزاب أبو سفيان، وكان عددهم عشرة آلاف مقاتل، بينما كان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف فقط، وخرجت يهود بني النضير ونقضت بني قريظة العهد، وقد تفاجأت الأحزاب بالخندق، وما كان أمامهم إلا أن يرابطوا أمامه، وأصبحت المدينة واقعة تحت حصار جموع الأحزاب[1].

ولقد تحدث القرآن الكريم عن خروج الأحزاب وحصارهم المسلمين، ووصف الحالة التي أصابت المسلمين من فزع وجزع وخوف في تلك المحنة الرهيبة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[الأحزاب: ٩-١١].

الآيات تشير إلى خروج قوات الأحزاب ومحاصرتهم المدينة، فقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي: جاءتكم جنود الأحزاب من قريش وغطفان وبني النضير وغيرهم، ونكر ﴿جُنُودٌ﴾ لتفيد الكثرة، حيث جاؤوهم إلى المدينة من فوقهم أي: من فوق الوادي من قبل المشرق، ومن أسفل منهم أي: من بطن الوادي من قبل المغرب، فحاصر العدو المسلمين، حتى أصاب المسلمين الخوف والرعب، وتنوعت الظنون، وكثرت الهواجس.

ووصفت الآيات حالهم بتصوير بديع للهول الذي أصابهم، بأن زاغت الأبصار أي: عدلت عن مقرها وشخصت، وزالت القلوب عن أماكنها حتى بلغت الحناجر والحلقوم من شدة الخوف والفزع، فمن المعلوم أن من خاف وجبن تنتفخ رئته فترفع القلب الى الحنجرة، فزلزلوا واضطربت قلوبهم، وبلغوا غاية الضيق والشدة، وهذا ابتلاء واختبار من الله للمسلمين ولإيمانهم، وتمحيص للقوم؛ ليعرف المؤمن من المنافق، وراسخ الإيمان من المتزلزل[2].

---

(١) انظر: الطبقات، ابن سعد، ٢/ ٥١، السيرة النبوية، ابن هشام، ٢/ ٢١٥، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن سويلم أبو شهبة، ٢/ ٢٧٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢١٤، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٤١٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٩٣، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، ٢/ ١٤٧.

يقول سيد قطب في تصوير المشهد: «إنها صورة الهول الذي روع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب، من أعلاها ومن أسفلها. فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج، ومن ثم كان الابتلاء كاملًا والامتحان دقيقًا، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسمًا لا تردد فيه»[(١)].

وعلل الإمام الرازي هذا الابتلاء بقوله: «عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق، والامتحان من الله ليس لاستبانة الأمر له، بل لحكمة أخرى وهي أن الله سبحانه وتعالى عالم بما هم عليه؛ لكنه أراد إظهار الأمر لغيره من الملائكة والأنبياء، كما أن السيد إذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته، وعنده غيره من العبيد وغيرهم، فيأمره بأمر عالمًا بأنه يخالفه، فيبين الأمر عند الغير، فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه، حيث لا يقع لأحد أنها بظلم أو من قلة حلم»[(٢)].

ثانيًا: موقف المؤمنين عند رؤية الأحزاب:

لقد كان موقف المؤمنين مشرفًا، وكان ظنهم بالله قويًّا، حيث بين الله سبحانه وتعالى موقف المؤمنين حين لقاء الأحزاب فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

أي: وحين رأى المؤمنون وعاينوا جموع الأحزاب والكفار قد قدموا لمواجهة المدينة، ومحاربة الإسلام، لم يهنوا، بل قالوا على سبيل التسليم لأمر الله سبحانه وتعالى، والتصديق بوعده ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب[(٣)].

فمن يثبت ويصبر حين الابتلاء ينال نصر الله سبحانه وتعالى، هذا وعد الله للمؤمنين في كل زمان ومكان.

إن الإيمان العميق والتربية النبوية جعلت المؤمنين يصمدون أمام الأخطار، فازدادوا إيمانًا، وأيقنوا أن نصر الله لابد أن يكون،

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٨٣٧.

(٢) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ١٦١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٣٦، التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٢٦٠، حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٨٧.

فاستحقوا شهادة الله لهم بصدق إيمانهم، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾(١).

قال الطبري: «الذي وعدهم بقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فأحسن الله عليهم بذلك من يقينهم، وتسليمهم لأمره الثناء، فقال: وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلا إيمانًا بالله سبحانه وتعالى وتسليمًا لقضائه وأمره، ورزقهم به النصر والظفر على الأعداء»(٢).

وهذا شأن المؤمن دائمًا أن يزداد إيمانًا مع كل آية من آيات الله سبحانه وتعالى، وأن يصدق بما وعد الله عباده المؤمنين، ويسلم لأمره وقضائه.

هكذا بين لنا القرآن موقف المؤمنين حين مواجهة عدوهم، ورسم لنا صورتهم المشرقة في مواجهة الهول والخطر، صورة وضيئة في وسط الظلام، مطمئنة في وسط الزلزال، واثقة بالله، راضية بقضاء الله، مستيقنة من نصر الله، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب، فكانوا نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير، فكانوا قدوة للمؤمنين في كل زمان ومكان، فعلينا ألا نيأس من أنفسنا ومن ضعف أمتنا، بل علينا أن نستمسك بالعروة الوثقى، عروة السماء، ونزيد من إيماننا، لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة، ونتخذ من الزلزال بشيرًا بالنصر، فنثبت ونستقر، ونقوى ونطمئن، ونسير في الطريق، حتى نحقق النصر والعزة والرفعة(٣).

ثالثًا: موقف المنافقين في الغزوة:

لقد بين القرآن الكريم موقف المنافقين في غزوة الأحزاب، حيث كشفت الآيات صفاتهم ومواقفهم المخزية، وما تولد عن نفاقهم من جبن في القلوب وتخاذل في الميدان، وانعدام ثقة بالله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وفرار من الموت لضعف اعتقادهم، وتثبيط الآخرين لترك مواقعهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ

---

(١) انظر: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد بن سويلم أبو شهبة، ٢/ ٢٨٢، حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٨٨.

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن، ٢٠/ ٢٣٦.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٨٤١، ٢٨٤٤.

﴿لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ﴿١٤﴾ ولقد كانوا
عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد
الله مسئولا ﴿١٥﴾ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم
من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا
﴿١٦﴾ قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم
سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله
وليا ولا نصيرا ﴿١٧﴾ ۞ قد يعلم الله المعوقين منكم
والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا
قليلا ﴿١٨﴾ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم
ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من
الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد
أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله
أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ﴿١٩﴾ يحسبون
الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا
لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن
أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا﴾

[الأحزاب: ١٢-٢٠].

تفصل الآيات موقف المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويخفون الكفر، أصحاب القلوب المريضة والمليئة بالشبهات والشهوات، وتبين مقالتهم الشنيعة ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾ أي: ما وعدنا الله إلا باطلًا من القول وخداعًا، ففي هذه المقولة تشكيك في وعد الله، واتهام للنبي بالخداع، وبيان كفرهم بإنكارهم وعد الله الصادق فيما وعدهم من النصر[1].

فالمنافقون لم يكن لهم دافع للقتال لعدم إيمانهم، فمنهم من بدأ يثبط المؤمنين، ويطلب منهم الرجوع إلى المدينة، وقسم آخر يستأذن من الرسول صلى الله عليه وسلم للرجوع إلى المدينة، ويسوق أعذارًا واهية وكاذبة بادعاء أن بيوتهم عورة أي: مكشوفة على الأعداء، وقد نفى القرآن أن يكون كلامهم صحيحًا فقال: ﴿وما هي بعورة﴾ وبين أن هدفهم هو سوق العذر أيًا كان بهدف الفرار من المعركة، وترك المسلمين في أشد الظروف وأحوجها[2].

قال تعالى: ﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا﴾ [الأحزاب: ١٣].

ونستفيد من هذه الآية أن موقف المنافقين كان سلبيًا، بل كانوا مرجفين، فهم بدلًا من المساعدة قاموا بأشد مما قام به الأحزاب، حيث انسحبوا في أحلك الأوقات ناشرين الأراجيف في الجيش الإسلامي بأن لا مقام لهم، وأن بيوتهم مكشوفة، ومعروف أن الأراجيف لها أثر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢١/ ٢٢٢، روح المعاني، الألوسي، ١١/ ١٥٦، حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٥٦.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ٢١/ ١٤١، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٨٣٨، التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة المؤلفين ٦/ ٨٩.

كبير في هزيمة الجيوش، وهي أشد من وقع السيوف؛ وذلك لأنها تهبط الحالة المعنوية للجيش فيصيبه الخور والضعف»[(١)].

وتستمر الآيات في كشف وفضح المنافقين، وبيان صفاتهم، ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤].

«يخبر سبحانه وتعالى عن هؤلاء الذين ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، وقطر من أقطارها، ثم سئلوا الفتنة، وهي الدخول في الكفر، لكفروا سريعًا، وهم لا يحافظون على الإيمان، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع، هكذا فسرها قتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وابن جرير، وهذا ذم لهم في غاية الذم»[(٢)]، وهذا دليل واضح على ضعف الإيمان في نفوسهم، فلا عجب من تراجعهم وتسللهم من المعركة، فهذه سمة المترددين الجبناء الذين اعتادوا على الهرب من مواقف الصمود[(٣)].

هكذا المنافقون سريعو الغدر والارتداد عن الدين، وتركهم للمسلمين بدون تردد، فغدرهم ونقضهم للعهود من صفاتهم المتأصلة، لذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

فهم كانوا قد عاهدوا الله قبل المعركة ألا يهربوا منها، إلا أنهم خانوا العهد، وسيسألهم الله عن ذلك، وقد ذكر الطبري أن المقصود فعل بني حارثة في الخندق بعد أن هربوا يوم أحد، ثم عاهدوا الله ألا يعودوا، وقد عادوا[(٤)].

ثم يقرر القرآن الكريم أن الأجل معلوم عند الله سبحانه وتعالى، لا يستطيع أحد أن يفر أو يهرب منه، ولا أحد يستطيع أن يعصم أحدًا أو يمنعه من وقوع قضاء الله عليه.

قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٦، ١٧].

ففي هذه الآيات أمر من الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمنافقين بأن فرارهم من القتال لن يؤخر آجالهم، ولن يطيل في أعمارهم، ولن ينجيهم من الموت، وإن توهموا أنهم نجوا مؤقتًا فسيأتيهم أجل الله، ولا أحد يستطيع أن يمنع عنهم قدر الله، فقدره لابد آت، فمن الذي يمنعهم من الله إن أراد لهم سوءًا

(١) حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٦٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٩٠.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٩/ ٢٦٩.
(٤) انظر: جامع البيان، ٢٠/ ٢٢٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣٩.

في أنفسهم -أي: شرًا وهزيمة- أو عافية وسلامة ونصرًا؟ لن يجد هؤلاء المنافقون إن أراد الله بهم سوءًا في أنفسهم وأموالهم من يليهم بالكفاية أو ينصرهم من الله فيدفع عنهم ما أراد الله بهم من سوء ذلك، فهذه دعوة لهم ليمتثلوا طاعة المنفرد بالأمور كلها، الذي نفذت مشيئته، ومضى قدره، ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته، وليٌ ولا ناصر[1].

ويقرر الله سبحانه وتعالى أنه عليم بالمرجفين من المنافقين وبأفعالهم وصفاتهم القبيحة، ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الأحزاب: ١٨].

فالحق سبحانه وتعالى يعلم المثبطين للمؤمنين عن القتال في سبيل الله، والقائلين لإخوانهم اتركوا ساحة القتال والتحقوا بنا في المدينة[2].

«قال المفسرون: هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أنهم قالوا لهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحمًا لالتقمهم أبو سفيان وحزبه، فخلوهم وتعالوا إلينا»[3].

وهؤلاء لا يأتون البأس إلا قليلًا أي: لا يشهدون القتال إن شهدوا إلا تعذيرًا ودفعًا عن أنفسهم[4].

فالمنافقون لم يكتفوا بالانسحاب والفرار من المعركة، بل قاموا بالتثبيط والإرجاف في الجيش، والدعوة للتمرد والانسحاب عن الجبهة وترك النبي صلى الله عليه وسلم وحده[5].

وتتابع الآيات بيان صفاتهم القبيحة عند الخوف والأمن، ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[الأحزاب: ١٩].

من صفاتهم أنهم أشحة « والشح: البخل بما في الوسع مما ينفع الغير، وأصله عدم بذل المال، ويستعمل مجازًا في منع المقدور من النصر أو الإعانة، والمعنى: يمنعونكم ما في وسعهم من المال أو المعونة، أي: إذا حضروا البأس منعوا فائدتهم عن المسلمين ما استطاعوا، ومن ذلك شحهم بأنفسهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٢٨، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٤١٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٠.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي، ١٩/ ١١٩٦٨.
(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣١٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٣٠.
(٥) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٨٦.

وكل ما يشح به»[1].

وقد بين القرطبي عدة معانٍ مقصودة من صفة الشح على المؤمنين، ذكرت عند السلف وهي: البخل في حفر الخندق، وفي النفقة في سبيل الله، وبالقتال معهم، وبالنفقة على فقرائهم ومساكينهم، وبالغنائم إذا أصابوا[2].

قال الطبري: «إن الله وصف هؤلاء المنافقين بالجبن والشح، ولم يخصص وصفهم من معاني الشح، بمعنى دون معنى، فهم كما وصفهم الله به: أشحة على المؤمنين بالغنيمة والخير والنفقة في سبيل الله، على أهل مسكنة المسلمين»[3].

والصفة الأخرى للمنافقين التي بينتها الآية السابقة وهي الجبن الشديد عند رؤية الأعداء، ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ فهم من خوفهم الشديد من القتال، وجبنهم الذي خلع قلوبهم، إذا أقبل العدو يصيبهم الهلع، فينظرون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وتدور أعينهم يمينًا وشمالًا، كدوران عين الذي يغشى عليه من سكرات الموت حذرًا وخورًا ولواذًا.

وإذا ما انتهى القتال وذهب الخوف آذوا المؤمنين، وخاصموهم بكلام مستكره، وألسنة سلطة، طعنًا وذمًّا خاطبوهم، بكلام حديد، ودعاوى غير صحيحة[4].

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ «قال قتادة: ومعناه بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة، يقولون: أعطنا أعطنا، فإنا قد شهدنا معكم، فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانًا، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم، قال النحاس: هذا قول حسن؛ لأن بعده: أشحة على الخير»[5].

فهم أشحة على الخير أي: هم بخلاء حريصون على مال الغنائم إذا ظفر المؤمنون، فيشاحون المؤمنين على الغنيمة ويطلبون منها[6].

يقول الزمخشري: «فإذا ذهب الخوف وحيزت الغنائم ووقعت القسمة، نقلوا ذلك الشح عليكم إلى الخير -وهو المال والغنيمة- ونسوا تلك الحالة الأولى،

(1) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٢٩٦.
(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ١٥٣.
(3) جامع البيان، ٢٠/ ٢٣١.

(4) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣١٠، الكشاف، الزمخشري، ٣/ ٥٣٠، روح المعاني، الألوسي، ١١/ ١٦٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٩٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٠، محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٥٧.
(5) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ١٥٤.
(6) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٣٢، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٤١٨، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي، ٢/ ١٤٨.

واجترؤوا عليكم وضربوكم بألسنتهم وقالوا: وفروا قسمتنا فإنا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه»[(١)]، ولأن المنافقين لم يؤمنوا، وأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، أبطل الله أعمالهم وأحبطها، وهذا الأمر سهل هين على الله[(٢)].

ومن صفات المنافقين أنهم من شدة الخوف والجبن يحسبون الأحزاب لم يذهبوا لقتال المؤمنين، ويتمنوا أنه إذا أتى الأحزاب مرة أخرى وحاصروا المدينة أن يكونوا حينها قد خرجوا إلى البادية مع الأعراب وليسوا في المدينة خوفًا من القتل، وحتى لا ينالهم أذى، ويتمنون أن يسمعوا أخباركم بهلاككم، ولو كانوا في المعركة ما قاتلوا معهم إلا قليلًا لا وزن له، أي: تعذيرًا، لأنهم لا يقاتلون حسبة ولا رجاء ثواب.

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠][(٣)].

هذه هي صفات المنافقين، فالمنافق مريض القلب والنفس، يظن بالله ورسوله ظن السوء، ولا يقاتل عن عقيدة، فينتهز أي فرصة للهروب من أي مهمة صعبة، وللتنصل من الواجبات، بل وتثبيط الآخرين، ويتصف بالشح وعدم حب الخير للآخرين، وخيانة العهود[(٤)].

إن هذه الصفات التي ذكرها الله عن المنافقين تنطبق على منافقي كل زمان ومكان «فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان»[(٥)].

فلنتعرف على صفاتهم لنحذر منها ونعرف عدونا، فالآيات الكريمة كشفت صفاتهم لنحذر منهم.

يقول سيد قطب: «وبهذا الخط ينتهي رسم الصورة، صورة ذلك النموذج الذي كان عائشًا في الجماعة الإسلامية الناشئة في المدينة، والذي ما يزال يتكرر في كل جيل وكل قبيل، بنفس الملامح، وذات السمات ينتهي رسم الصورة وقد تركت في النفوس الاحتقار لهذا النموذج، والسخرية منه، والابتعاد عنه، وهوانه على الله وعلى الناس، ذلك كان حال المنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين في الصفوف، وتلك كانت صورتهم الرديئة»[(٦)].

---

(١) الكشاف، ٣/ ٥٣٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٣٤٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٦٠.
(٤) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين ٦/ ٩٢.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٨٣٨.
(٦) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٨٤١.

مشاهد من الغزوة في القرآن

أولًا: وصف عام للغزوة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[الأحزاب: ٩].

في هذه الآية الكريمة وصف عام للغزوة، حيث يذكر الله سبحانه وتعالى فيها المؤمنين بنعمته عليهم، ويمتن عليهم، إذ صرف عنهم أعداءهم، حين جاءت جنود الأحزاب وتجمعت لإبادتهم، والقضاء عليهم، واستئصال شوكتهم، فأرسل الله على الأحزاب ريحًا، وملائكة لم يروها، فزلزلتهم، وألقت الرعب في قلوبهم، وقلعت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وسفت التراب في وجوههم، فكان للملائكة دور كبير في نجدة المسلمين، وكانت الريح أبرز الجنود التي حسمت المعركة[(١)].

عن ابن عباس قال: قال صلى الله عليه وسلم: (نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور)[(٢)].

«وفي هذه الآونة الشديدة وقع ثقل المقاومة على المؤمنين الخلص، الذين كانت قلوبهم عامرة بالإيمان، ونفوسهم في سبيل الدفاع عن الحق أشد من الصخرة صلابة وقوة، ولما وقف المؤمنون الموقف المشهود، ودافعوا دفاع الأبطال، وابتلاهم الله، فوقفوا وصبروا وصابروا أراد ربك أن يصرف عنهم السوء، وأن يتم نعمته عليهم ويكفيهم شر القتال على أحسن صورة وأكمل وضع، فألقى في قلوب المشركين الخوف»[(٣)].

وكان الله مطلعًا على المؤمنين، عليمًا بجميع أعمالهم، من حفر الخندق ومقاساة الشدائد، والاستعداد للقتال، والتحرز من العدو، وهو يجازيهم عليها[(٤)].

يقول سيد قطب في بيان الآية السابقة: «يجمل في الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث، وبدءه ونهايته، قبل تفصيله وعرض مواقفه؛

---

(١) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ٣/ ٨٠، التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٢٦٦، تفسير المراغي، ٢١/ ١٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ١٠٣٥، كتاب الجمعة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (نصرت بالصبا)، ٢/ ٣٣.

قال مصطفى البغا في تعليقه على الحديث: «الصبا هي الريح التي تهب من مشرق الشمس ونصرته بها -صلى الله عليه وسلم- كانت يوم الخندق إذ أرسلها الله تعالى على الأحزاب باردة في ليلة شاتية فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم كان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم.«الدبور» هي الريح التي تهب من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن الكريم.

(٣) التفسير الواضح، حجازي، ٣/ ٨١.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٢٦٦.

لتبرز نعمة الله التي يذكرهم بها، ويطلب إليهم أن يتذكروها وليظهر أن الله الذي يأمر المؤمنين باتباع وحيه، والتوكل عليه وحده، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه، من عدوان الكافرين والمنافقين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[الأحزاب: ٩].

وهكذا يرسم في هذه البداءة المجملة بدء المعركة وختامها، والعناصر الحاسمة فيها مجيء جنود الأعداء، وإرسال ريح الله وجنوده التي لم يرها المؤمنون، ونصر الله المرتبط بعلم الله بهم، وبصره بعملهم»[(١)].

ثانيًا: نهاية الغزوة:

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[الأحزاب: ٢٥].

لقد نصر الله المؤمنين وأعزهم، ورد الكافرين من قريش وغطفان واليهود والأحزاب جميعًا، ردهم خائبين خاسرين بكربهم وغمهم وغيظهم، لم يشفوا صدرًا ولم يحققوا أمرًا، فلم ينالوا ما كانوا يأملونه من الظفر على المؤمنين، أو أي خير من غنيمة أو أسر أو نصر، وكفى الله المؤمنين القتال؛ بأن أرسل على الأحزاب الريح والملائكة، فتفرقت جموعهم، وتشتت شملهم، وأوقع الرعب في نفوس الأحزاب، وثبت قلوب المؤمنين على الحق حتى جاءهم النصر من عند الله العزيز الحكيم، فالفضل بالنصر كله لله، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده[(٢)].

وقد روي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده)[(٣)].

«الله أكبر وأعظم به من نصر، الله أكبر وأعظم بها من معركة، سلاحها الفتاك هو الريح والملائكة والرعب، فمن كان معه الله سخر له ما يشاء، نصر الله المؤمنين بالرغم من إتيان الأعداء من كل الجهات فحاصروا المدينة المنورة حصارًا شديدًا، أتى النصر من الله البصير بأعمال المؤمنين الصادقين في نصرة دينه، وذلك بعد أن اشتد الامتحان وعظم، فزاغت الأبصار واضطربت القلوب

(١) في ظلال القرآن، ٥/ ٢٨٣٦.

(٢) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ٣/ ٨٥، التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٢٧٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٧١٦، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل، ٤/ ٢٠٨٥.

وخافت، وظن المؤمنون أنهم ممتحنون فخافوا من الزلل، وظن المنافقون أن المسلمين سيستأصلون، ولكن خابت ظنون المنافقين ونصر الله عباده المتقين. واختبر المؤمنون اختبارًا عظيمًا، واضطربوا اضطرابًا شديدًا من هول الموقف، وبسبب خيانة المنافقين واليهود وهجوم الكافرين عليهم، إلا أنهم كانوا متيقنين بنصر الله سبحانه وتعالى، فحقق الله لهم وعده، ونصرهم على الأحزاب»[(١)].

إن القرآن الكريم ومن خلال آيات غزوة الأحزاب، يرسخ في القلوب والنفوس الاعتقاد الصحيح، والتصور السليم، بأن النصر كله بيد الله، وأن الله ينصر عباده المؤمنين المخلصين، فالمسلمون اليوم مطالبون بترسيخ هذه المفاهيم الصحيحة، والارتكاز إلى الإيمان الصادق، وأن يستمدوا العون من الله سبحانه وتعالى، وأن يردوا أمرهم كله لله.

وإن من أهم نتائج الغزوة والآثار المترتبة على نصر المؤمنين وفشل الأحزاب، بأن كانت الغزوة بمنزلة حد فاصل لمرحلة جديدة، تمثلت في تغير ميزان القوى لصالح المسلمين، وانتقال الموقف من الدفاع إلى الهجوم، وذلك ما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: **(الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم)**[(٢)].

وهذا يعكس التغير الجذري في سياسة الدولة الإسلامية من اتباع سياسة الدفاع عن المدينة، إلى مرحلة الهجوم والتهديد، وذلك يشير بوضوح إلى أن مناطق الصراع قد انتقلت في أعقاب هذه الغزوة إلى مناطق أخرى مثل مكة وما حولها، وتبوك، وغيرهما بعيدا عن المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية[(٣)].

(١) التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٦/ ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤١١٠، حديث سليمان بن صرد، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب، ٥/ ١١٠.

(٣) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٣٢٨.

القيادة النبوية في الغزوة

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قائد المسلمين في غزوة الأحزاب، خاضها بنفسه، فكان القائد الرباني، والجندي المثالي، والقدوة الكاملة، فهو محل قدوة للمؤمنين دائمًا، في الصبر على الشدائد، والثبات في الحروب، والصدق عند اللقاء، وفي غزوة الأحزاب بذل صلى الله عليه وسلم كل غالٍ لنصرة دين الله، حفر الخندق مع اخوانه، وجاع مثلهم، وصبر وجاهد، فكان الصابر المحتسب، والشاكر الراضي، فاستحق أن يقتدى به في جميع أفعاله وأحواله، لذلك قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢١].

هذه الآية أصل كبير وعظيم في وجوب الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في كل الأمور، في أقواله وأفعاله وأحواله، واتباع سنته[(١)].

فلابد من التأسي به، في صبره ومصابرته، ومجاهدته، ومرابطته، يقول البغوي: «اقتداء حسن، أن تنصروا دين الله، وتؤازروا الرسول، ولا تتخلفوا عنه، وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو، إذ كسرت رباعيته، وجرح وجهه، وقتل عمه، وأوذي بضروب من الأذى فواساكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا أنتم كذلك أيضًا، واستنوا بسنته»[(٢)].

قال بعض المفسرين: إن الخطاب في الآية السابقة عتاب للمنافقين، ودعوة للمتخلفين عن القتال للتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم[(٣)]، وسواء كان الخطاب للمؤمنين أو لغيرهم، يبقى النبي صلى الله عليه وسلم حجة عليهم جميعًا، والقدوة لهم جميعًا بجهاده وجميع أحواله، والذي يقتدي به ويتخذه الأسوة الحسنة هو المؤمن الذي يرجو ثواب الله ويخافه، ويديم ذكره سبحانه وتعالى.

وإن من أهم ما تميز به النبي في المعركة، وكان له الأثر الكبير على المسلمين، ما يأتي:

١ . استشارته لأصحابه وعبقريته.

حيث استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما ينبغي عمله لمواجهة الخطر الداهم، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق شمال المدينة، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا الأخذ برأيه السديد، والأمر بالتنفيذ، «وقد كان حفر الخندق مباغتة تامة للأحزاب، فلم تكن العرب تعرف هذا الأسلوب، كما لم تكن تعرف أسلوب القتال المناسب لاجتياز

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٣١٩.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٦٢٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٣٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ١٥٥.

الخندق والتغلب على المدافعين عنه»[(١)].

فكان حفر الخندق عاملًا أساسيًا من عوامل نصر المسلمين في الغزوة، والقائد العبقري هو الذي يستخدم أسلوبًا جديدًا في القتال.

٢. اتصافه بالقوة والحزم والرشد والجندية.

حيث «قرر الرسول صلى الله عليه وسلم البقاء في المدينة المنورة، وأمر بحفر الخندق، وانتخب منطقة الحفر في السهول الكائنة شمال المدينة، ووزع أعمال الحفر بالتساوي بين أصحابه، وسيطر على العمل، فلا يستطيع أحد ترك واجبه إلا بأمر منه، حتى أنجز أعمال حفر الخندق قبل وصول المشركين الى المدينة المنورة، واشتغل هو بنفسه بالحفر كبقية أصحابه تمامًا، بل استأثر دونهم بالأماكن الصلبة في منطقة حفر الخندق التي لم يستطع أصحابه التغلب عليها، كفلق الصخور القاسية!!

ثم قسم واجبات حراسة الموضع بين أصحابه، بحيث لا يغفل أحد عن شبر من الخندق ليلًا ونهارًا، على الرغم من برودة الطقس؛ وقد كان هو بنفسه لا يترك مقره إلا ليقوم بتفتيش الحراس والمواضع الدفاعية وليحرض المؤمنين على القتال، ويرفع من معنوياتهم، وأمن حرسًا قويًا للذراري الذين تركهم في دور المدينة، وأهم من ذلك كله سيطرته على أصحابه عندما تأزم الموقف حين وصلت الأحزاب الى ضواحي المدينة بقوات متفوقة على المسلمين، وحين نكثت قريظة عهدها، فأصبح الخطر يهدد المسلمين من داخل المدينة وخارجها»[(٢)].

٣. تأييد الله سبحانه وتعالى له بالمعجزات.

فقد حصلت خلال مرحلة حفر الخندق ثلاث معجزات حسية للنبي صلى الله عليه وسلم وهي تكثير الطعام الذي أعده الصحابي جابر بن عبد الله للرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن باركه صلى الله عليه وسلم، وأكل منه ألف صحابي حتى شبعوا وتركوا الكثير، ومن معجزاته إخباره لعمار بن ياسر وهو يعمل معهم بأمر غيبي يتعلق بقتله رضي الله عنه، وقيامه صلى الله عليه وسلم بتفتيت صخرة عظيمة عجز الصحابة عن كسرها، فقد ضربها ثلاث ضربات وفتها، ومع كل ضربة كان صلى الله عليه وسلم يعلن عن تسلمه لمفاتيح أقاليم كل من الشام، وفارس، واليمن، وهي بشارة تنبئ عن اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها في وقت كان المسلمون فيه محصورين في المدينة، يواجهون المشاق

(١) الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ١/ ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٣٧.

والخوف والجوع والبرد القارص[1].

٤ . الدعاء واللجوء إلى الله.

في غمرة الشدائد والمخاوف كان النبي صلى الله عليه وسلم يديم الدعاء خلال الحصار، ولا ينفك هو وأصحابه عن التوجه إلى رب السماء.

ففي حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الأحزاب فقال: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[2].

وفي رواية: (اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم)[3].

ثناء القرآن على المؤمنين في الغزوة

لقد أثنى القرآن الكريم على المؤمنين في غزوة الأحزاب، ومدحهم مدحًا عظيمًا، فهم مؤمنون حقًا، صادقون مع الله، ومع أنفسهم، استحقوا الثناء، فكانوا قدوة للمؤمنين في كل مكان وزمان.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

يرسم لنا القرآن صورة مشرقة لهؤلاء الرجال المؤمنين الصادقين، الذين أوفوا بالعهود، وصبروا على البأساء والضراء، فمنهم من نذر نفسه لله فاستشهد في سبيله كحمزة، ومصعب بن عمير، وأنس بن النضر، وغيرهم من الصحابة الكرام، ومنهم من ينتظر إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

هؤلاء كاملو الإيمان، لم يغيروا عهدهم مع الله ولم يبدلوه كغيرهم من المنافقين الذين ينقضون العهود، والله سيثيب أهل الصدق بصدقهم ووفائهم لله بما عاهدوا، وسيعذب المنافقين بكفرهم ونفاقهم، إن شاء أو يتوب عليهم فيهديهم للإيمان والتوبة.

قال تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٣٢٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤١١٥، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، ٥/ ١١١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٠٢٤، كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، ٤/ ٦٣.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤](١).

والآيات الكريمة السابقة تدل على أن الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه هم من المؤمنين الذين سلموا من النفاق، إذ ليس كل المؤمنين على درجة واحدة في إيمانهم، بل هم درجات في الإيمان، كما أنهم درجات عند الله، ودل على ذلك حرف الجر من للتبعيض، أي: بعض المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ إشارة إلى أنهم أناس قد كملت رجولتهم، وسلمت لهم إنسانيتهم، فكانوا رجالًا حقا، لم ينتقص من إنسانيتهم شيء، فالكفر والشرك والنفاق وضعف الإيمان، كلها أمراض خبيثة تغتال إنسانية الإنسان، وتفقده معنى الرجولة فيه، فالرجل كل الرجل، هو من تحرر عقله من الضلال، وصفت روحه من الكدر، وسلم قلبه من الزيغ، ثم لا عليه بعد هذا ألا يمسك بيده شيئًا من جمال الصورة، أو وفرة المال، أو قوة السلطان.

وفي تنكير ﴿رِجَالٌ﴾ معنى التفخيم، والتعظيم، فمن هؤلاء الرجال من مات، وهو على إيمانه الوثيق بالله، وفي موقف الجهاد في سبيل الله، قد وفى بما نذره لله، وعاهد الله عليه، ومنهم من ينتظر قضاء الله فيه، موتًا، أو استشهادًا في ميدان القتال، فهو على ترقب وانتظار لليوم الذي تتاح له فيه الفرصة للوفاء بنذره وعهده.

ففي قوله: ﴿يَنتَظِرُ﴾ إشارة إلى أن المؤمن الصادق الإيمان، ينتظر لقاء ربه، وهو في شوق إلى هذا اللقاء، يعد له اللحظات، ويستطيل أيام الحياة الدنيا، في طريقه إلى ربه، شأن من ينتظر أمرًا محبوبًا هو على موعد معه.

وفي قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ إشارة إلى أن إيمانهم بالله، ويقينهم بلقائه لم يزايل مكانه من قلوبهم لحظة، ولم ينحرف عن موضعه أيَّ انحراف، فهم على حال واحدة من أمر ربهم، ومن الثقة بما وعدهم الله على يد رسوله، على حين أن كثيرًا ممن كان معهم ممن أسلموا ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، قد بدلوا مواقفهم، وكثرت تحركاتهم بين الإيمان والكفر.

فالمؤمنون الذين لم يبدلوا موقفهم، ولم يحيدوا عن طريقهم الذي استقاموا عليه- هؤلاء لهم من جزاء إيمانهم وإحسانهم، ما هم أهل له، من الإحسان والرضوان والذين بدلوا، ونافقوا، ولم يصدقوا في إيمانهم بالله- هؤلاء إما أن يعذبهم الله، إذا هم مضوا على نفاقهم، ولم تدركهم رحمة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٤١، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٢٩، التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٦/ ٩٨.

الله، فتخرجهم من هذا النفاق، وتعيدهم إلى الإيمان، وإما أن تنالهم رحمة الله، فيتوبوا من قريب، ويدخلوا في المؤمنين الصادقين[(١)].

«وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان، في مقابل صورة النفاق، والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق؛ لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن»[(٢)].

موقف بني قريظة في الغزوة

إن موقف يهود بني قريظة في غزوة الأحزاب موقف غدر وخيانة ونقض للعهود، فقد نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانضموا إلى الأحزاب من المشركين عونًا لهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وكانوا يسكنون العوالي في جنوب شرق المدينة مما يمكنهم من طعن المسلمين من الخلف، وكان لهذا الموقف أثره على المؤمنين بأن اشتد تأزم الوضع عليهم في ظل محاصرة الأحزاب للمدينة، ولكن الله ردهم هم والأحزاب خائبين مهزومين.

وكان نقض بني قريظة لوثيقة العهد التي أبرموها مع الرسول صلى الله عليه وسلم عند حصار قوات الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق، وإصرارهم على خيانة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وتعريضهم أمن وسلامة المسلمين ودولتهم للخطر، سببًا في غزو المسلمين لهم، فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقتالهم بعد انسحاب الأحزاب وانتهاء الحصار والخطر وعودته بالمسلمين من الخندق ووضعهم السلاح، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالتوجه إلى

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١١/ ٦٨٠.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٨٤٤.

ديار بني قريظة ومحاصرتهم[1].

فكان القصاص سريعًا وحاسمًا، روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: (أصيب سعدٌ يوم الخندق، رماه رجلٌ من قريشٍ يقال له ابن العرقة رماه في الأكحل، فضرب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيمةً في المسجد يعوده من قريبٍ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق وضع السلاح، فاغتسل، فأتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه اخرج إليهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأين؟) فأشار إلى بني قريظة، فقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم إلى سعدٍ، قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية والنساء، وتقسم أموالهم)[2].

والله سبحانه وتعالى بين أن بني قريظة الذين ظاهروا الأحزاب وكانوا عونًا لهم على المسلمين، قد أنزلهم من حصونهم الممتنعين فيها، وقذف في قلوبهم الرعب، وبين عاقبة غدرهم بأن سلط عليهم المؤمنين فأبادوهم.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

«أنزل الله سبحانه وتعالى بقدرته وأمره يهود بني قريظة -الذين عاونوا الأحزاب، ونقضوا عهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم- من حصونهم التي كانوا يتحصنون بها، وألقى في قلوبهم الرعب الشديد، حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، الذي حكم فيهم قائلًا: آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتسبى الذراري والنساء، وتقسم الأموال»[3].

يقول الطبري: «عن قتادة، قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ **وهم: بنو قريظة، ظاهروا أبا سفيان وراسلوه، فنكثوا العهد الذي بينهم وبين نبي الله، قال: فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم عند زينب بنت جحش يغسل رأسه، وقد غسلت شقه، إذ أتاه جبرائيل، فقال: عفا الله عنك؛ ما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة، فانهض إلى بني قريظة، فإني قد قطعت أوتارهم، وفتحت أبوابهم، وتركتهم في**

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٣٢٦، أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٢٦٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧٦٩، كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتل من نقض العهد، ٣/ ١٣٨٩.

(٣) حديث القرآن عن غزوات الرسول، محمد بن بكر آل عابد، ٢/ ٤٩٥.

زلزال وبلبال؛ قال: فاستلأم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سلك سكة بني غنم، فاتبعه الناس وقد عصب حاجبه بالتراب؛ قال: فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحاصروهم، وناداهم: (يا إخوان القردة)، فقالوا: يا أبا القاسم، ما كنت فحاشًا، فنزلوا على حكم ابن معاذ، وكان بينهم وبين قومه حلف، فرجوا أن تأخذه فيهم هوادة، وأومأ إليهم أبو لبابة إنه الذبح، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريهم، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فقال قومه وعشيرته: آثرت المهاجرين بالعقار علينا؟ قال: فإنكم كنتم ذوي عقار، وإن المهاجرين كانوا لا عقار لهم. وذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كبر وقال: (قضى فيكم بحكم الله)»[1].

يختم سبحانه وتعالى الآيات التي تتحدث عن غزوة الأحزاب وبني قريظة ببيان النعم الجليلة التي مَنَّ بها على المؤمنين بعد أن نصرهم عليهم، ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾[الأحزاب: ٢٧].

فالله أورث المؤمنين أرض أعدائهم من يهود بني قريظة، كما أورثهم ديارهم ومزارعهم ومساكنهم وأموالهم جزاءً لهم.

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ اختلف المفسرون في تعيين هذه الأرض على أقوال: فقيل: خيبر، وقيل: حنين، وقيل: مكة، وقيل: فارس والروم، وقيل: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة، والراجح القول الذي يشمل جميع الأقوال، أي: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة، وفي هذا بشرى من الله للمؤمنين[2].

(١) جامع البيان، ٢٠/ ٢٤٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ١٦١.

الدروس المستفادة من غزوة الأحزاب

لقد كان لغزوة الأحزاب حكم ودروس كثيرة، نذكر بعضها فيما يأتي:

١. إن النصر الحاسم للمسلمين على المشركين في غزوة الأحزاب، وعلى يهود بني قريظة ناقضي العهد، نعمة عظيمة تستوجب الشكر والحمد لله؛ لأنه نصر بتدبير الله سبحانه وتعالى، بإرسال الريح والملائكة، وقد صدقت فيه عزيمة المؤمنين على خوض المعركة، والدفاع عن مدينتهم عاصمة الإسلام.

٢. إن القائد المثالي هو من يشاور أصحابه وخاصته، فالنبي صلى الله عليه وسلم شاورهم في أمر القتال، وقبل مشورتهم في حفر الخندق، حيث أنزل الشورى منزلتها، ورسخها في حياة الأمة، وإنه بقدر قوة وحزم ورشد وعبقرية القيادة يكون التفوق والنصر.

٣. إن موقف المؤمنين الصادقين دائمًا نقيض موقف المنافقين، فهم مصدقون، واثقون بوعد الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولم تزدهم المحنة والابتلاء والنظر إلى الأحزاب إلا إيمانًا وتسليمًا.

٤. للمنافقين خصال اجتماعية وشخصية قبيحة ومذمومة، فهم بخلاء على المسلمين فيما يحقق المصلحة العامة، بخلاء بأنفسهم وأموالهم، مثبطين مرجفين، جبناء يخافون من لقاء الشجعان، سليطوا اللسان يؤذون غيرهم بالكلام والتفاخر بالكذب والزور، فهم فئة لم يؤمنوا بقلوبهم، وإن كان ظاهرهم الإسلام.

٥. إن تلاحق الشهداء وتواليهم على درب الجهاد في سبيل الله، سواء بالاستشهاد أو بانتظار الأجل، هذا أمارة خير ودليل استدامة الإخلاص جيلًا بعد جيل[(١)].

٦. إن الدعاء سلاح هام في أيدي المسلمين، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان كثير التضرع والدعاء، والأمة اليوم بحاجة للجوء إلى الله والتضرع وحسن التوكل عليه.

٧. إن القتال لا ينقص العمر، وتركه لا يزيد في العمر، فالأجل مكتوب، ولن يمنع حذر من قدر، فترك الجهاد خوفًا من القتل عمل غير صالح، وهو من صفات المنافقين.

٨. إن سوء الظن بالله تعالى وبرسوله كفر ونفاق، وإن على المؤمن أن يكون حسن الظن بالله دائمًا.

٩. إن من الواجب الاقتداء برسول

---

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٢٨٠.

الله صلى الله عليه وسلم في كل أقواله وأفعاله وأحواله، فهو القدوة والحجة.

١٠. إن المؤمنين الصادقين يستحقون ثناء الله عليهم؛ لمواقفهم المشرفة، ووفائهم بالعهود.

١١. التحذير من الغدر والخيانة ونقض العهود وعاقبته، وهي صفات ملاصقة لليهود، وهذا شأنهم على مدى التاريخ، بغدرهم وخيانتهم للأنبياء، ولهذا كان عاقبتهم السوء.

موضوعات ذات صلة:

غزوة أحد، غزوة بدر، غزوة تبوك، غزوات الرسول مع اليهود





عناصر الموضوع

المجلد الخامس والعشرون

التعريف بغزوة بدر

أولًا: اسم الغزوة:

لقد وردت تسمية غزوة بدر بهذا الاسم في القرآن الكريم، استمدادًا من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وسماها ابن عباس رضي الله عنه أيضًا يوم بدر، حيث روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: (اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد) فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥][١].

وسبب تسميتها بغزوة بدر: نسبة إلى بئر بدر بين مكة والمدينة، كان لرجل يسمى بدرًا، وهو المكان الذي تقابل فيه الجيشان، ونصر الله المسلمين على المشركين نصرًا عظيمًا[٢].

ثانيًا: حكمة ورودها في سورة الأنفال:

لما كانت سورة الأنفال تتحدث عن الأنفال وتقسيم الغنائم؛ حيث إن أول آية منها جاءت للحديث عن الأنفال، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ١].

ولما كانت غزوة بدر أول معركة حربية خاض غمارها المسلمون من الصحابة بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد غنموا أول غنيمة كبيرة من المشركين، وقد حصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، واختصموا في شأنها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كانت الإجابة عما ورد من تساؤلات الصحابة حول أنفال بدر في هذه السورة[٣]. يقول الطاهر بن عاشور: «افتتاح السورة بـ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾ مؤذن بأن المسلمين لم يعلموا ماذا يكون في شأن المسمى عندهم الأنفال، وكان ذلك يوم بدر»[٤].

لذلك اشتملت سورة الأنفال على الآيات التي تتحدث عن غزوة بدر، فسماها بعض

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٩٥٣، كتاب المغازي، باب قصة غزوة بدر، ٥ / ٧٣.

(٢) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٢٧٢، التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ٦٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ١/ ١٤٦.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٥، التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٣/ ١٣١.

(٤) التحرير والتنوير، ٩/ ٢٤٨.

الصحابة بسورة بدر، حيث روي عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: قلت لابن عباس رضي الله عنه: سورة الأنفال، قال: «تلك سورة بدر»[1]، وكان من أهم أسباب نزولها هو أحداث غزوة بدر الكبرى، حيث روي عن ابن عباس رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: (من قتل قتيلًا فله كذا وكذا). أما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم، فإنا كنا ردًا لكم، ولو كان فيكم شيءٌ لجئتم إلينا، فأبوا فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١]. قسمت الغنائم بينهم بالسوية»[2].

ثالثًا: زمان الغزوة ومكانها:

لقد دلت الآيات القرآنية أن زمان التقاء الجمعين من المؤمنين والكافرين يوم بدر ومكانه كان بترتيب من الله سبحانه وتعالى، حيث قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[الأنفال: ٤١ - ٤٢].

وفي هذا دلالة واضحة على أن الفئة المؤمنة تسير برعاية الله وتدبيره، فهو سبحانه يتولى أمرها؛ ليقدر لها الخير والرشاد والغلبة والعزة.

أما زمان الغزوة: فلقد بين الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾[الأنفال: ٤٢]. أن المسلمين عندما خرجوا ليأخذوا العير، وخرج الكفار ليمنعوها من المسلمين، التقوا على غير ميعاد ولو تواعدوا لاختلفوا، ولكن الله جمعهم على غير ميعاد؛ ليقضي أمرًا كان مفعولًا؛ لإعزاز دينه وإهلاك أعدائه[3].

وقد اتفق علماء السير على أن غزوة بدر كانت في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، ولكن اختلفوا في اليوم؛ فقيل: بأنها كانت في الثاني عشر. وقيل: في السابع عشر، وجمع

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٣٠٣١، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والانفال والحشر، ٤/ ٢٣٢٢.

(٢) المستدرك على الصحيحين، رقم ٢٨٧٦، ٢/ ٢٤١، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.
وانظر: لباب النقول في معرفة أسباب النزول، السيوطي، ١/ ٤٩.

(٣) انظر: تفسير المراغي، ١٠/ ٧.

العلماء بينهما بأن الثاني عشر ابتداء الخروج، والسابع عشر يوم الواقعة(١).

وأما مكان الغزوة: فحدثت الغزوة بين مكة والمدينة حيث بئر بدر، وهي كانت لرجل يسمى بدرًا، فسمي به الموضع(٢).

وقد بين الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أن من نعمة الله سبحانه وتعالى على المسلمين أن جعلهم بالعدوة الدنيا، أي: بجانب الوادي الأقرب من المدينة، وأن المشركين في جانب الوادي الأبعد عن المدينة، وأن ركب أبي سفيان وأصحابه -وهم عير قريش التي خرج المسلمون لأجلها- كانوا في موضع أسفل منهم جهة ساحل البحر على بعد ثلاثة أميال من بدر، فكان المسلمون بعيدين عن الماء، وكانت الأرض رملية تغوص فيها أقدامهم، بينما كان المشركون قريبين من الماء والأرض كانت صالحة للمشي وكانت العير خلف ظهورهم، ثم تغيرت الموازين بتدبير الله سبحانه وتعالى؛ لتكون الغلبة للمسلمين، حيث أنزل الله سبحانه وتعالى المطر، وهيأ لهم الأسباب، وسبقوا المشركين إلى الماء، وفي هذا دلالة واضحة على أن النصر يتحقق للمسلمين من عند الله؛ ليزدادوا إيمانًا وشكرًا وامتثالًا لأمره(٣).

رابعًا: حكمة تسميتها بالفرقان:

لقد سمى الله سبحانه وتعالى غزوة بدر بيوم الفرقان، حيث قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وسمي بالفرقان؛ لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل، بأن أعلى كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه، ونصر نبيه وحزبه(٤).

ولهذه التسمية أهمية عظيمة في حياة المسلمين، وقد تحدث الأستاذ سيد قطب عن وصف الله سبحانه وتعالى ليوم بدر بأنه يوم الفرقان، وعن حكمة هذه التسمية قال: «كانت غزوة بدر، التي بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده، فرقانًا بين الحق والباطل

(١) انظر: تلخيص الحبير، ابن حجر، ٤/ ٢٤٠.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ٦٦.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣١٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢١، التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨٣٢، التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ١٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٦٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٢٣.



كما يقول المفسرون: إجمالًا وفرقانًا بمعنى: أشمل وأدق وأوسع وأعمق كثيرًا.

كانت فرقانًا بين الحق والباطل فعلًا ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات والأرض، وقامت عليه فطرة الأحياء والأشياء الحق الذي يتمثل في تفرد الله سبحانه وتعالى بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير، وفي عبودية الكون كله سمائه وأرضه، أشيائه وأحيائه، لهذه الألوهية المتفردة، ولهذا السلطان المتوحد، ولهذا التدبير وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك، والباطل الزائف الطارئ الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك، ويغشي على ذلك الحق الأصيل، ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد الله بما تشاء، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء، فهذا الفرقان الكبير الذي تم يوم بدر، حيث فرق بين ذلك الحق الكبير، وهذا الباطل الطاغي، وزيل بينهما فلم يعودا يلتبسان، لقد كانت فرقانًا بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق، على أبعاد وآماد، كانت فرقانًا بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير؛ فرقانًا بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور، وفي الخلق والسلوك، وفي العبادة والعبودية، وبين الشرك في كل صوره التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص، والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات وكانت فرقانًا بين هذا الحق وهذا الباطل في الواقع الظاهر، كذلك فرقانًا بين العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء، وللقيم والأوضاع، والشرائع والقوانين، وللتقاليد والعادات، وبين الرجوع في هذا كله لله الواحد الذي لا إله غيره، ولا متسلط سواه، ولا حاكم دونه، ولا مشرع إلا إياه، فارتفعت الهامات لا تنحني لغير الله، وتساوت الرؤوس فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه، وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة للطغاة.

وكانت فرقانًا بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية: عهد المصابرة والصبر والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع، والإسلام بوصفه تصويرًا جديدا للحياة، ومنهجًا جديدًا للوجود الإنساني، ونظامًا جديدًا للمجتمع، وشكلًا جديدًا للدولة، بوصفه إعلانًا عاما لتحرير الإنسان في الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته، ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهيته»[(١)].

إلى أن قال: وأخيرًا فلقد كانت بدر فرقانًا بين الحق والباطل بمدلول آخر، ذلك المدلول الذي يوحي به قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ

(١) في ظلال القرآن، ٣/ ١٥٢١.

﴿الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧- ٨].

ولقد حق الحق ويطل الباطل بالموقعة، وكان هذا النصر العملي فرقانًا واقعيًّا بين الحق والباطل بهذا الاعتبار الذي أشار إليه قول الله سبحانه وتعالى في معرض بيان إرادته سبحانه من وراء المعركة، ومن وراء إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من بيته بالحق، ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ولقاء الفئة ذات الشوكة، ولقد كان هذا كله فرقانًا بين منهج هذا الدين ذاته، تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم وإنه لفرقان ندرك به اليوم ضرورته، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع في نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين، حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين، وهكذا كان يوم بدر: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميقة، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير(١).

(١) انظر: في ظلال القرآن، ٣/ ١٥٢٣، بتصرف.

أسباب الغزوة

لقد أخرجت قريش المؤمنين من ديارهم، وأخذت أموالهم بعد أن فشلت في إرغامهم على العودة للشرك، وقاسى النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه صنوف الإيذاء في مكة، وصبروا حتى اضطرتهم قريش للهجرة، إلى أن نزل الإذن بالقتال في المدينة.

قال المفسرون: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بألسنتهم وأيديهم، فيجيئون من بين مضروب ومشجوج، ويشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول لهم: (اصبروا فإني لم أومر بقتال)، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب اشتداد أذى قريش لهم، وترك المسلمون أموالهم وأرضهم وديارهم للمشركين في مكة، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ الحج: [٣٩-٤٠][١].

ففي هذه الآيات الكريمة أذن الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعد الهجرة بقتال المشركين، الذين قاتلوهم واعتدوا عليهم، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، فهذا إذن من الله ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم اعتداء المعتدين بعد أن بلغ الأمر أقصاه، وليحققوا لأنفسهم ولغيرهم حرية العقيدة والعبادة في ظل دين الله[٢].

ولما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بقافلة أبي سفيان قادمة من الشام وتحمل الأموال والتجارة، ندب المسلمين إليها، وأمرهم باعتراض القافلة بقصد الحصار الاقتصادي، وتعويض المسلمين ما صادره لهم المشركون في مكة من أموال وعقارات وممتلكات، فعلم المشركون بذلك، وأرسل أبو سفيان نذيرًا إلى أهل مكة؛ ليستنفرهم بعد أن غير وجهة القافلة، فعز على المشركين الحادث، وأحسوا بالخطر على وجودهم، وشعروا بقوة المؤمنين في المدينة، فحشدوا قواهم من قبائل العرب، ولما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه ثم خرج بجنده، وتقابل الجيشان في بدر[٣].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٥٤٠، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٢٥٨، التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ٢٤٥، أسباب النزول، الواحدي، ١/ ٣٠٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٤٢٤، التفسير الواضح، حجازي، ٢/ ٥٨٩.

(٣) انظر: الموسوعة القرآنية، ابراهيم الإبياري، ١/ ١٢٢، التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨٠٧، التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ٦٥، ٩/ ٢٥٤.

وفي ظل هذه الهجمة الشرسة من أعداء الله على الإسلام والمسلمين، فإن المسلمين اليوم مطالبون بأن يدفعوا عن أنفسهم الظلم، ويدافعوا عن دينهم وعقيدتهم، ويستردوا حقوقهم، فإن الحق بحاجة إلى قوة تحميه، يقول سيد قطب: «إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال، والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان، والشر جامح والباطل مسلح، وهو يبطش غير متحرج، ويضرب غير متورع ويملك أن يفتن الناس عن الخير -إن اهتدوا إليه- وعن الحق -إن تفتحت قلوبهم له-، فلابد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم»[1].

الاعداد للغزوة

أولًا: إعداد المؤمنين:

إن معركة بدر لم تكن في حسبان المسلمين، ولم يستعدوا لها من حيث العدد والعتاد ومن الناحية النفسية أيضًا، لكنها فرضت عليهم من الله سبحانه وتعالى؛ ليحق الحق ويبطل الباطل، ولتحقيق العبودية لله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه خرجوا ولم يكن في نيتهم قتال، وإنما كان قصدهم عير قريش[2]، حتى أن القرآن الكريم وصف حال بعض المسلمين وهم خارجون للقاء عدوهم بأنهم كانوا كارهين للخروج؛ لأنهم غير متأهبين للقتال غاية التأهب، فلم يستعدوا للقتال، وإنما خرجوا للقافلة وهم عدد يسير، بخلاف عدد أهل النفير فهم كثير، وهم الجيش الذي جاء من قريش[3].

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ

(١) في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤٢٤.

(٢) انظر: السيرة النبوية، علي الصلابي، ٢/ ٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٣٩٦، نظم الدرر، البقاعي، ٨/ ٢٢٤.

﴿إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥ - ٨].

فلقد كان عدد قوات المسلمين في بدر لا يمثل قدرة الدولة الاسلامية، فكان عدد قوات المسلمين بضعة عشر وثلاثمائة، فيهم فارسان[(١)].

وقد ذكرت بعض المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين[(٢)]، وكان لديهم سبعون بعيرًا يتعاقبون ركوبها[(٣)].

ولما فرض الله سبحانه وتعالى المعركة عليهم، تسابق المسلمون إلى الجنة، وقد أعدوا لها من الإيمان والعبادة والصدق والإخلاص وحسن التوكل، وهذا هو الإعداد الحقيقي الذي يكون به النصر والعزة، فقد جاءت الآيات الكريمة في بداية سورة الأنفال وقبل الحديث عن أحداث غزوة بدر تصف صفات المؤمنين التي بها تصلح أعمالهم بما فيها جهادهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

يقول السعدي: «قدَّم تعالى -أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة- الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها؛ لأن من قام بها استقامت أحواله وصلحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله. فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي، وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به، كذلك أخرج الله رسوله صلى الله عليه وسلم من بيته إلى لقاء المشركين في بدر بالحق الذي يحبه الله سبحانه وتعالى، وقد قدره وقضاه، وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال»[(٤)].

فالإعداد الإيماني وحسن التوكل على الله هو الإعداد الحقيقي الذي به يكون النصر والتأييد الإلهي رغم قلة العدد والعتاد، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

وقد نزلت الآيات بأمر الله سبحانه وتعالى فيها المؤمنين بالتخطيط الجيد وإعداد أنواع

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ٧/ ٢٩٢، جوامع السيرة، ابن حزم الاندلسي، ١/ ٨٥.
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٣/ ٣١٥.
(٣) السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٦١٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ١/ ٣١٥.

القوة المعنوية والمادية المناسبة لكل زمان ومكان؛ لإرهاب عدو الله، وعدو المسلمين من الكفار الذين ظهرت عداوتهم كمشركي مكة في الماضي، ولإرهاب العدو الخفي الموالي لهؤلاء الأعداء، وهذا يشمل اليهود والمنافقين في الماضي، ومن تظهر عداوته بعدئذ[1].

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالمسلمون في هذا العصر مطالبون بإعداد القوة الإيمانية وكذلك المادية بكل أصنافها حسب الاستطاعة، فالإسلام بحاجة لقوة تحمي عقيدته، وتحرر الإنسان، وترد الأعداء.

ثانيًا: إعداد المشركين:

منذ أن استنفر أبو سفيان قريشًا خرجت بكبريائها وخيلائها، حتى بلغت قوة المشركين ألف رجل فيهم عدد كبير من قادة قريش وسادتها ومعهم مائتا فرس، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين[2].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى في معرض النهي عن التشبه بهم، حال الكافرين عند خروجهم من ديارهم لمقاتلة المسلمين، بأنهم خرجوا بأموالهم وعدتهم وعتادهم؛ بطرًا أي: طغيانًا وتكبرًا ورياءً للصد عن سبيل الله بإضلال الناس والحيلولة بينهم وبين الهداية[3].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

يقول القرطبي في بيان ما أعده المشركون يوم بدر، وموضحًا المقصود من هذه الآية: «يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر، لنصرة العير، خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف، فلما وردوا الجحفة بعث خفاف الكناني - وكان صديقًا لأبي جهل - بهدايا إليه مع ابن عم له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسي، مع ما خف من قومي، فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد، حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٥٠.
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٣/ ٢٦٠، نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ١/ ٢٨٧.
وقد ذكر ذلك في حديث عند مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣٦٠، لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣١٧.

العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد، فوردوا بدرًا ولكن جرى ما جرى من هلاكهم»[1].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الكافرين ينفقون أموالهم، ويبذلون عدتهم وعتادهم؛ ليبعدوا الناس عن دين الله، لكن النتيجة تكون بخلاف ما يتوقعون، بأنهم سيغلبون، وسيكون إنفاقهم وإعدادهم حسرة وندامة، وإلى جهنم يحشرون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦].

«فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك! أما الحي فحرم ماله وذهب باطلا في غير درك نفع، ورجع مغلوبًا مقهورًا محزونًا مسلوبًا. وأما الهالك، فقتل وسلب، وعجل به إلى نار الله يخلد فيها، نعوذ بالله من غضبه. وكان الذي تولى النفقة التي ذكرها الله في هذه الآية فيما ذكر، أبا سفيان»[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٢٥.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٥٢٩.

مشاهد من الغزوة

أولًا: خروج المؤمنين للقتال:

لما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم نجاة القافلة، وإصرار زعماء مكة على قتال النبي صلى الله عليه وسلم، واستنفار قوات قريش، استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأمر، فخرج المؤمنون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، رغم أن بعض الصحابة أبدى عدم ارتياحه في البداية للمواجهة الحربية مع قريش، وقد صور القرآن الكريم خروج الفئة المؤمنة لبدر.

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥][3].

وروي في سبب نزول هذه الآية، عن أبي أيوب الأنصاري قال: (قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة ويلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت: (ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا)، فخرجنا فسرنا يومًا أو يومين فقال: (ما ترون فيهم؟)، فقلنا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لنا من طاقة بقتال القوم إنما أخرجنا للعير، فقال

(٣) انظر: موسوعة نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٢٨٨، السيرة النبوية، الصلابي، ٢/ ٦.

المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥][1].

وفي رواية قال المقداد: (لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره)[2].

بعد أن رأى النبي صلى الله عليه وسلم طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماع قادة المهاجرين على التأييد للتقدم، ومبايعة الأنصار له على المضي لما أراد الله، والصدق عند اللقاء[3].

والله قد وعدهم إحدى الطائفتين حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧].

نظم النبي صلى الله عليه وسلم جنده، وعقد اللواء الأبيض، وسلمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلي بن أبي طالب، ومضى إلى بدر[4].

لقد اختار الله للمؤمنين ذات الشوكة، فتقدموا نحو عدوهم بكل ثبات؛ لتحقيق وعد الله سبحانه وتعالى، وقد أمرهم الله سبحانه وتعالى بالثبات حين لقاء العدو والاستعانه به والإكثار من ذكره سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥- ٤٦].

«هذه هي النصائح التي تكفل النصر للمسلم: الثبات عند اللقاء، وذكر الله والالتجاء إليه، وطاعة الله وطاعة رسوله، وكذا قائد الجيش ورئيس الدولة مادام يأمر بما يرضي الله ورسوله، وعدم النزاع والشقاق، والصبر عند الشدائد»[5].

إن في إرادة الله سبحانه وتعالى للمؤمنين طريق ذات الشوكة في بدر لدلالة واضحة للمؤمنين في كل زمان ومكان أن الله لا يقدر لهم إلا الخير، فما عليهم إلا الاستجابة والتسليم لأمر الله، فالله وعدهم

(١) لباب النقول، السيوطي، ١/ ٩٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٩٥٢، كتاب المغازي، باب قصة غزوة بدر، ٥/ ٧٣.
(٣) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٥/ ٦، البداية والنهاية، ابن كثير، ٣/ ٢٦٢.
وانظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب غزوة بدر، ١٧٧٩، ٣/ ١٤٠٣.
(٤) انظر: زاد المعاد، ابن القيم، ٣/ ١٥٤.
(٥) التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨٣٤.

بإحدى الطائفتين العير أو النفير، وكانوا يودون العير، ولكن الله اختار لهم النفير، فكانت العزة والغلبة والتمكين، وقد بين الله ذلك حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

«لقد أراد الله -وله الفضل والمنة- أن تكون ملحمة لا غنيمة، وأن تكون موقعة بين الحق والباطل؛ ليحق الحق ويثبته، ويبطل الباطل ويزهقه. وأراد أن يقطع دابر الكافرين، فيقتل منهم من يقتل، ويؤسر منهم من يؤسر، وتذل كبرياؤهم، وتخضد شوكتهم، وتعلو راية الإسلام، وتعلو معها كلمة الله، ويمكن الله للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج الله وتنطلق به؛ لتقرير ألوهية الله في الأرض، وتحطيم طاغوت الطواغيت، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف -تعالى الله عن الجزاف- وبالجهد والجهاد، وبتكاليف الجهاد ومعاناتها في عالم الواقع وفي ميدان القتال»[(١)].

ثانيًا: استغاثة الرسول صلى الله عليه وسلم بالله سبحانه وتعالى:

بعد أن نظم النبي صلى الله عليه وسلم جيشه وحرض المؤمنين على القتال، لجأ إلى الله سبحانه وتعالى مستغيثًا يدعوه بأن ينصر عباده وجنده، حيث بين سبحانه وتعالى في بيان استغاثة المؤمنين ولجوئهم إليه سبحانه وتعالى في غزوة بدر.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وقد روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلا، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف أو يزيدون فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يده وجعل يهتف بربه: **(اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض)** فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبوبكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٤٨١.

﴿الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾)[1].

وروي أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: (اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد) فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥])[2].

إن في استغاثة النبي صلى الله عليه وسلم بالله في غزوة بدر، والذي بينته الآية الكريمة درسا ربانيًّا نبويًّا للمسلمين المستضعفين، ولكل قائد أو فرد في اللجوء إلى الله وحده، والتجرد من النفس؛ لأن ذل العبد وافتقاره إلى الله هو أول مفتاح من مفاتيح النصر، «فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم بإعلام القرآن أن للنصر في القتال أسبابًا حسية ومعنوية، وأن لله سننًا مطَّردة، وهو مع ذلك يعلم أن لله توفيقًا يمنحه من شاء من خلقه، فينصر به الضعفاء على الأقوياء، والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض به سننه، وأن له فوق ذلك آيات يؤيد بها رسله، فلما عرف من ضعف المؤمنين وقلتهم ما عرف استغاث الله سبحانه وتعالى ودعاه ليؤيدهم بالقوة المعنوية، التي تكون أجدر بالنصر من القوة المادية، وكان كل من علم بدعائه يتأسى به في هذا الدعاء ويستغيث ربه كما استغاث»[3].

ثالثًا: مشهد النعاس:

إن من نعم الله سبحانه وتعالى على المؤمنين في بدر أن أنزل عليهم النعاس والمطر قبل الالتحام.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

حيث ألقى الله سبحانه وتعالى عليهم النوم الخفيف أمنًا وطمأنينة وسكينة، فإن النعاس يذهب الخوف ويجدد النشاط والقوة، «وقيل: إنهم لما خافوا على أنفسهم؛ لكثرة عدوهم وعددهم، وقلة المسلمين وقلة عددهم، وعطشوا عطشًا شديدًا ألقى عليهم النوم؛ حتى حصلت لهم الراحة، وزال عنهم الكلال والعطش، وتمكنوا من قتال عدوهم، وكان ذاك النوم نعمة في حقهم؛ لأنه كان خفيفًا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله إليهم، وقدروا على دفعه عنهم، وقيل في كون هذا النوم كان أمنة من الله سبحانه وتعالى أنه وقع عليهم النعاس دفعة واحدة، فناموا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧٦٣، كتاب الجهاد والسير، باب الامداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٩٥٣، كتاب المغازي، باب قصة غزوة بدر، ٥ / ٧٣.

(٣) تفسير المراغي، ٩/ ١٧٣.

كلهم مع كثرتهم، وحصول النعاس لهذا الجمع العظيم مع وجود الخوف الشديد أمر خارج عن العادة، فلهذا السبب قيل: إن ذلك النعاس كان في حكم المعجزة؛ لأنه أمر خارق للعادة»(1).

ويقول سيد قطب في بيان هذا المشهد العجيب، الذي أنعم به الله على المؤمنين، والذي يدل على كمال قدرته، وعلى تدبيره سبحانه وتعالى ورعايته للفئة المؤمنة الصادقة: «أما قصة النعاس الذي غشي المسلمين قبل المعركة فهي قصة حالة نفسية عجيبة، لا تكون إلا بأمر الله وقدره وتدبيره لقد فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة في مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه، ولم يتخذوا له عدته فإذا النعاس يغشاهم، ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم، والطمأنينة تفيض على قلوبهم»(2).

وقد بينت الآية الكريمة ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11] نعمة أخرى من نعم الله على عباده المؤمنين ببدر، بأن أنزل عليهم المطر ليطهرهم؛ حيث إن المسلمين نزلوا على رمل تسوخ فيه أقدامهم، وقد سبقهم المشركون إلى ماء بدر، وأصبح المسلمون على غير ماء، وبعضهم محدث وبعضهم جنب، وأصابهم العطش، فأنزل الله مطرًا فشربوا منه، واغتسلوا وتوضئوا وسقوا الركاب وملئوا الأسقية، وأطفأ الغبار، ولبد الأرض، فثبت أقدامهم، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم، وعظمت النعمة(3).

رابعًا: تنزل الملائكة:

ثبت بالنصوص القرآنية وبالسنة النبوية إمداد الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالملائكة؛ ليثبتوا المؤمنين ويقووا عزائمهم، ولتحطيم معنوية الكافرين بإلقاء الرعب في قلوبهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12].

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى الملائكة في بدر؛ استجابة لاستغاثة النبي صلى الله عليه وسلم بالله، وتأييدًا للمؤمنين المخلصين، وعونًا وتثبيتًا، وتبشيرًا بالنصر وتكثيرًا للعدد.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ

(1) لباب التأويل، الخازن، 2/ 297.
(2) في ظلال القرآن، 3/ 1484.
(3) انظر: لباب التأويل، الخازن، 2/ 297.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩-١٠].

وكان تنزل الملائكة يردف بعضهم بعضًا ويتبعه، فيتقدم بعضهم ويعقبه الآخر، وهكذا تتابع الملائكة، وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[1]، وكملت الآيات القرآنية بعضها بعضًا، وبينت حدوث هذا الإمداد على مرات، بألف أولًا، ثم بثلاثة آلاف، ثم بخمسة آلاف[2].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢٣ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

إن تأييد الله وإعانته للمؤمنين بتنزيل الملائكة؛ إشعار للمؤمنين بأنهم ليسوا وحدهم، فالله يختص أهل الحق والإيمان بالتأييد بشتى أنواع وأشكال العون، «إنه قوة عظمى وثبات راسخ للمؤمنين، حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر، واجتنبوا موانعه، فإنهم أهل لمدد السماء، وهذا الشعور يعطيهم جرأة في مقابلة الأعداء»[3].

«وإن الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سببًا لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل ما يمكن أن يكون سببًا لنصر المسلمين، من بشارتهم بالنصر ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم؛ من بواعث الأمل في نصرهم، والنشاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم معانون من الله تعالى، و أيضًا بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلي في القتال، ولا شك أن هذا الاشتراك الفعلي في القتال قوى قلوبهم، وثبتهم في القتال، وهذا ما دلت عليه الآية، وصرحت به الأحاديث النبوية»[4].

وقد جاء في صحيح البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: **(هذا جبريل، آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب)**[5].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ٢٦٤.
(٢) انظر: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة، ٢/ ١٤٤.
(٣) السيرة النبوية، علي الصلابي، ٢/ ٣١.
(٤) المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، ٢/ ١٣١.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٩٩٥، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة، ٥/ ٨١.

وسواء قاتلت الملائكة مع المؤمنين أم اقتصرت مهمتهم على التأييد والمعونة والتثبيت؛ خروجًا من الخلاف الذي بين العلماء في ذلك، ولكن «بحسبنا أن نعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها في ذلك اليوم، وهي قلة والأعداء كثرة، وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذي يصفه الله سبحانه وتعالى في كلماته ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين، ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين في ميزان الله، إلا أن الله سبحانه وتعالى لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سببًا ينشئ نتيجة، إنما يرد الأمر كله إليه سبحانه وتعالى؛ تصحيحًا لعقيدة المسلم وتصوره.

فهذه الاستجابة، وهذا المدد، وهذا الإخبار به كل ذلك لم يكن إلا بشرى، ولتطمئن به القلوب، أما النصر فلم يكن إلا من عند الله هذه هي الحقيقة الاعتقادية التي يقررها السياق القرآني هنا، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلًا»[1].

خامسًا: استفتاح المشركين على أنفسهم:

لقد دعا المشركون الله بأن ينصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين، فكان ذلك بمنزلة استفتاح على أنفسهم، فالمسلمون هم الأهدى والأعلى والأكثر دينًا، حيث روي عن عبد الله بن ثعلبة بن أبي صغير قال: كان المستفتح أبا جهل، فإنه قال حين التقى القوم: اللهم أينا كان أقطع للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فاحنه -أي: أهلكه- الغداة. «فكان ذلك استفتاحه فأنزل الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]»[2].

ففي هذه الآية الكريمة يخاطب الله أهل مكة على سبيل التهكم، إن تستفتحوا، أي: إن تستنصروا لأعلى الجندين وأهداهما، وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتم، وتم النصر للأعلى والأهدى،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٤٨٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٣٢٦٤، ٢/ ٣٥٧، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين.
وانظر: لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ١/ ٩٦.

وحدث الهلاك والذلة للأدنى والأضل[1].

وفي بيان قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ يقول الشيخ الشعراوي: «أي: إن كنتم قد استفتحتم وطلبتم الفصل والحكم فقد جاءكم الفتح، وهذا الفتح كان في صالح المؤمنين، و أيضًا في صالح دعاء الكافرين، إنه جاء في الأمرين الاثنين؛ فتح للمؤمنين، وفي صالح دعاء الكفار. فأنتم -أيها الكافرون- قد دعوتم، فإما أن تكونوا قد دعوتم والله أجاب دعاءكم وهو شر عليكم، وهذا دليل على أنكم أغبياء في الدعاء، وما دام الفتح قد جاء، كان الواجب أن ينتهي كل فريق عند الحد الذي وقع، وكان على الكافرين أن يقتنعوا بأنهم انهزموا، وعلى المؤمنين أن يقتنعوا بأنهم انتصروا»[2].

ثم يحذر الله سبحانه وتعالى الكافرين في الآية السابقة، ويخيرهم إن ينتهوا ويسلموا ويتركوا عداوة النبي صلى الله عليه وسلم فهو خير لهم وأجدى، وإن يعودوا إلى محاربته فسينصر الله المؤمنين ويهزم الكافرين، ولن تغني جماعتهم وقوتهم شيئًا ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين بالنصر والتأييد والتوفيق إلى سلوك طرق النجاح والفلاح، والعاقبة دائمًا للمتقين[3].

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ٢٧٨.
(٢) الخواطر، ٨٤٦٢٥.
(٣) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨١٥.

سادسًا: مشهد المعركة ورؤية كلا الفريقين بعضهم بعضًا:

لقد شاء الله سبحانه وتعالى للفئتين - فئة المؤمنين وفئة الكافرين- أن تلتقيا، وأن يندلع بينهم القتال، وقد بدأ بالمبارزات الفردية بين عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة من جيش المشركين، وعلي وحمزة وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم من جيش المسلمين، وقد أنزل الله فيهم: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩][4].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى في منامه ليلة التقاء الجيشين أن المشركين قليلٌ عددهم، وقد أخبر الصحابة برؤيته، كي يرفع معنوياتهم، ويثبت قلوبهم، ويشجعهم للقتال.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

فالله سبحانه وتعالى قدر هذه الرؤيا للنبي صلى الله عليه وسلم حتى يقللهم في

(٤) انظر: صحيح البخاري، ٣٩٦٩، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، ٥/ ٧٥، صحيح مسلم، ٣٠٣٣، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: «هذان خصمان»، ٤/ ٢٣٢٣. وانظر التفسير المنير، الزحيلي، ١٧/ ١٨١.

عينه ويبشر به الصحابة، ولو أراهم حسب الواقع لفشلوا وتنازعوا في أمر القتال، ولكن الله سلم من الفشل والنزاع[(١)].

وكذلك شاء الله عند لقاء الجيشين أن يقلل المشركين في أعين المسلمين فيتجرؤوا ويتشجعوا، ويقلل المسلمين في أعين المشركين فيغتروا، وليعاين المؤمنون ما أخبرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيزدادوا يقينًا وشجاعة على القتال، ويكون النصر والعزة للمسلمين، والهزيمة والذل للكافرين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤][(٢)].

وهذا كله قبل القتال، أما في أثناء القتال فإن المشركين رأوا المسلمين مثلي عددهم؛ ليعمهم الفزع، ويضعف معنوياتهم، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣][(٣)].

وهذا المعنى الأصح فيما ورد من قولين في تفسير الآية، أن الفئة الكافرة رأت الفئة المؤمنة مثلي عدد الكافرة[(٤)].

وقد بين عدد من المفسرين وجه الحكمة واللطف بالمسلمين، برؤيتهم عدد الكافرين قليل، ففي ذلك تثبيت لهم وتنشيط وزيادة جرأة على القتال، ونزع للخوف من قلوبهم، ووجه الحكمة من تقليل المسلمين في أعين المشركين بداية المعركة، أن يغتروا بأنفسهم، وعدم الاستعداد والجد والحذر في مقاتلتهم، بل ومفاجأتهم بالعدد، ورؤيتهم كثر أثناء المعركة يفاجئهم ويبهتهم فيهابون منهم، ويدب الفزع في قلوبهم، فتكسر شوكتهم حين يرون ما ليس في حسابهم، فينهزموا بقدرة الله وإرادته[(٥)].

إن لطف الله بعباده المؤمنين، وإنعامه عليهم بنعمة الرؤية لبعضهم بعضًا في معركة بدر لآية من آيات الله للفئة المؤمنة، صاحبة الإيمان الصادق، الذي به استحقوا رعاية الله ورحمته وكرامته، لينصر دينه، وهذا وعد الله للمؤمنين في كل زمان ومكان، بأن ينصرهم ويهزم عدوهم، «فإن وعد الله

(١) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨٣٢.
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم والسنة، أبو شهبة ٢/ ١٣٦.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ١٩، السيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم والسنة، أبو شهبة ٢/ ١٣٦.
(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي، ٢/ ٩٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ١٣.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٢٢٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٦٩، السيرة النبوية، علي الصلابي، ٢/ ٢٨.

بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله، قائم في كل لحظة، ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة -ولو قل عددها- قائم كذلك في كل لحظة، وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف، وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة، وتثق في ذلك الوعد، وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة، وتصبر حتى يأذن الله، ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة»[(١)].

سابعًا: مشهد تزيين الشيطان للمشركين أعمالهم:

لقد زين إبليس أعمال المشركين بأن وسوس لهم وشجعهم على لقاء المسلمين لما خافوا الخروج.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: ٤٨].

لقد أوهمهم الشيطان أنهم لا يقاتلون بكثرة عددهم، وأزال مخاوفهم من إتيان عدوهم بني بكر في ديارهم أثناء خروجهم، وقال لهم الشيطان: لا غالب لكم اليوم من بني آدم، وغرهم أنه مجيرٌ لهم، ويمنعهم من المسلمين، ولكن لما تزاحفت جنود الله من المؤمنين وجنود الشيطان من المشركين، ونظر بعضهم إلى بعض، نكص الشيطان على عقبيه ورجع مدبرًا هاربًا، وتبرأ منهم وتخلى عنهم، فهو يرى الملائكة الذين بعثهم الله بمدد للمؤمنين، والمشركون لا يرونهم[(٢)].

ففي هذا النص القرآني إثبات أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم، وشجعهم على الخروج بإعلان إجارته لهم ونصرته إياهم، وأنه بعد ذلك لما تراءى الجمعان ورأى أحدهما الآخر خذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم، ولم يوف بعهده معهم، أما الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم، والتي قال لهم بها: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ وهل جاء على صورة رجل؟ فلا نعلم؛ لعدم ورود نص قرآني أو حديث نبوي صحيح يبين ذلك[(٣)].

وهكذا الشيطان دائما يزين للناس أعمالهم ويضلهم، ثم يتخلى عنهم، قال

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٣٧٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٨، التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٣٣، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٦٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٣٢٢.

تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النساء: ١٢٠].

ولكن كيد الشيطان ضعيف، لا يقوى على مقابلة أمر الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الفارق بين جند الشيطان كيف يوسوسون للمشركين ويضللونهم، وبين الملائكة الذين هم جند الرحمن يثبتون المؤمنين ويؤيدونهم ويعدونهم بنصر الله دون خذلان.

ثامنًا: مشهد المنافقين:

لقد قال المنافقون بالمدينة وأصحاب القلوب المريضة المليئة بالشهوات والشبهات والشكوك، ضعفاء الاعتقاد والايمان: إن المسلمين اغتروا بدينهم، وإنهم خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير توهمًا أنهم ينصرون بسبب دينهم.

وقد وضح موقفهم هذا قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٤٩][1].

«إن هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومرض القلوب إنما هم من أهل عسكر الكفار، لما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلة عددهم قالوا مشيرين إلى المسلمين: غر هؤلاء دينهم، أي: اغتروا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، وكنى بالقلوب عن العقائد، والمرض أعم من النفاق؛ إذ يطلق مرض القلب على الكفر»[2].

إن المنافقين وكذلك أصحاب القلوب المريضة وضعيفي الاعتقاد، من أسباب هدم بنيان المسلم بأراجيفهم وخداعهم، وما ينجي العبد منهم هو التوكل على الله، لذلك رد الله عليهم في الآية السابقة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[الأنفال: ٤٩].

«أي: ومن يكل أمره إلى الله ويؤمن إيمان اطمئنان بأنه ناصره ومعينه، وأنه لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء أراده، يكفه ما يهمه وينصره على أعدائه وإن كثر عددهم وعظم استعدادهم؛ لأنه العزيز الغالب على أمره، الحكيم الذي يضع كل أمر في موضعه بمقتضى سننه في نظام العالم، ومن ذلك أن ينصر الحق على الباطل»[3].

«ما أشبه موقف المنافقين بموقف الشيطان، إنه موقف المتخاذل المتفرج، المحرض على الشر، ثم المتخلي عن المؤازرة وقت الشدة والمحنة، أما الشيطان: فيوسوس بالباطل لأعوانه، ثم يحجم عن الشيء الذي زين به، وحبب فيه، وأغرى الناس عليه. فالواجب على العاقل الحذر

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٣١.

(٢) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٥/ ٣٣٢.

(٣) تفسير المراغي، ١٠/ ١٤.

منه، والتفكير في عواقب الأمور، وعدم الانسياق في تيار الأهواء والوساوس الشيطانية، فمن انجرف في سيل الشيطان فإن الله يعاقبه أشد العقاب.

وأما المنافقون -الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر- والذين في قلوبهم مرض فيصطادون عادة في الماء العكر، وينتهزون الفرص، ويوقعون الفتنة، وينتظرون الانحياز للغالب، ويشككون في قوة المؤمنين، ويتهمونهم بالتهور والطيش؛ لقلتهم عددًا وعددًا أمام الكثرة في العدد والعدد. وقد خيب الله الفريقين: الشيطان والمنافقين، فنصر الفئة المؤمنة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة، والله يؤيد بنصره من يشاء؛ لأن من يتوكل على الله، ويفوض أمره إليه، ويثق به، ويلجأ إليه، فإن الله حسبه وناصره ومؤيده»[(١)].

إن نظرة الكافرين والمنافقين دائمًا نظرة مادية لا روحية، فما قاله المنافقون هو تقدير التكافؤ في أنظار الناس وفي موازين القوى العسكرية، ولكنه في ميزان الله مختلف قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

المقياس الحقيقي هو الإيمان والتوكل على الله.

يقول سيد قطب: «والمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة فهم يرون ظواهر الأمور، دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة، والثقة في الله، والتوكل عليه، إن الواقع المادي الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنة وعند القلوب الخاوية من الإيمان، ولكن الذي يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادي الظاهر فالقلوب الخاوية تراه ولا ترى شيئًا وراءه، والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من «الواقع» الحقيقي!

الواقع الذي يشمل جميع القوى، ويوازن بينها موازنة صحيحة ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا تحسب حسابه!

وهذا ما يرجح الكفة، ويقرر النتيجة، ويفصل في القضية في نهاية المطاف في كل زمان وفي كل مكان إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن، ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الإيمان إنها في حس المؤمن وميزانه صفقة رابحة دائمًا، فهي مؤدية إلى إحدى الحسنيين: النصر والغلب، أو الشهادة والجنة.

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٣٥.

ثم إن حساب القوى في نفسه يختلف فهناك الله وهذا ما لا يدخل في حساب المنافقين والذين في قلوبهم مرض! والعصبة المسلمة في كل مكان وفي كل زمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة، وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه، وأن ترى بنور الله وهداه، وألا تتعاظمها قوى الطاغوت الظاهرة، وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله، وأن تلقي بالها دائمًا إلى تعليم الله سبحانه وتعالى للمؤمنين: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾»[1].

تاسعًا: مشهد الأسرى والغنائم:

لقد نزلت الآيات معاتبةً للمسلمين في شأن الأسرى والغنائم.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[الأنفال: ٦٧ - ٧٠].

حيث استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في أمر الأسرى، فأشار عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتلهم ضمانا لقوة الدولة الإسلامية، حيث إنهم يشكلون عامل تحد وخطورة، ولأنهم أئمة الكفر وصناديد مكة، وأشار أبو بكر الصديق رضي الله عنه بأخذ الفدية منهم؛ إذ كان يرى أن في ذلك قوة للمسلمين على الكفار، وكان يأمل أن يهديهم الله تعالى للإسلام.

وقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأي أبي بكر، وقد تباين فداء الأسرى، فمن كان ذا مال أخذ فداؤه، وتتناقص الأموال المأخوذة منهم بعد ذلك تبعًا لكفاءتهم المالية، وقد حفظت لنا المصادر نماذج منها، فمن ذلك أنه استوفى من العباس بن عبد المطلب مائة أوقية من الذهب فداء عنه، ومن عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية، واستوفى من آخرين أربعين أوقية لكل منهم[2].

«لقد كانت معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للأسرى تحفها الرحمة، والعدل، والحزم، والأهداف الدعوية، ولذلك تعددت أساليبه، وتنوعت طرق تعامله صلى الله عليه وسلم، فهناك من قتله، وبعضهم قبل فيهم الفداء، والبعض الآخر من عليهم،

(١) في ظلال القرآن، ١١/ ١٥٣٢، باختصار.

(٢) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٢٩٢.

وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المن عليهم»[1].

وقد بين حديث ابن عباس ما دار في شأن الأسرى: قال ابن عباسٍ: (فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكرٍ، وعمر: **(ما ترون في هؤلاء الأسارى؟)** فقال أبو بكرٍ: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فديةً فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ما ترى يا ابن الخطاب؟)** قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكرٍ، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيلٍ فيضرب عنقه، وتمكني من فلانٍ نسيبًا لعمر، فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكرٍ، ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكرٍ قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيءٍ تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة)** -شجرةٍ قريبةٍ من نبي الله صلى الله عليه وسلم- وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. **إلى قوله:** ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]. فأحل الله الغنيمة لهم)[2].

لقد نزل القرآن الكريم موافقًا لرأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شأن الأسرى، ومعاتبًا للمسلمين في شأن الأسرى والغنائم، فهذه الآيات عتاب من الله سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أنه ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أسرى قبل الإثخان، أي: القتل والتخويف الشديد.

وما كان ينبغي للصحابة رضي الله عنهم أن يأخذوا الغنائم ويتنافسوا عليها وهي من عرض الدنيا قبل أن يعلموا حكم الله فيها، والله دائما يريد للمؤمنين الغلبة والعزة في الدنيا، ويريد لهم الآخرة بالأجر والثواب والجنة.

فالآيتان الكريمتان: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ

(١) السيرة النبوية، الصلابي، ٢/ ٤٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧٦٣، كتاب الجهاد، باب الامداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، ٣/ ١٣٨٣.

﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨].

تبين أن الحكم المؤقت في غزوة بدر بالنسبة للأسرى كان قتلهم، بما يتناسب مع واقع الدولة الإسلامية آنذاك، وهذه قاعدة هامة في بناء الدولة، فحينما تكون ناشئة وفي مرحلة التكوين والإعداد، ينبغي ألا تظهر بمظهر اللين، حتى ترهب من قبل أعدائها[(١)].

«فإنه ليس من سنة الأنبياء، ولا مما ينبغي لأحد منهم أن يكون له أسرى يفاديهم أو يمن عليهم إلا بعد أن يكون له الغلب والسلطان على أعدائه وأعداء الله الكافرين؛ لئلا يفضي أخذه فداء الأسرى إلى ضعف المؤمنين وقوة أعدائهم وجرأتهم عليهم، وما فعله المؤمنون من مفاداة أسرى بدر بالمال كان ذنبًا سببه إرادة جمهورهم عرض الحياة الدنيا قبل الإثخان الذي تقتضيه الحكمة بإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، ولولا كتاب من الله سبق من عدم عقابهم على ذنب أخذ الفداء -قبل إذنه سبحانه وتعالى وعلى خلاف سنته- لمسهم عذاب عظيم في أخذهم ذلك»[(٢)]. فالله قضى وقدر وسبق إثباته في اللوح المحفوظ لأهل بدر أنه قد أحل لهم الغنائم والفداء، ورفع عنهم العذاب فلا يعاقب المخطئ على اجتهاده[(٣)].

وحكم الأسرى الذي استقرت عليه الشريعة أنه مفوض للإمام أن يختار الحكم الذي فيه المصلحة، إما بقتلهم أو إطلاق سراحهم، أو أخذ الفدية منهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

«ولأن كل خصلة من هذه الخصال قد تكون أصلح في بعض الأسرى، فإن منهم من له قوة ونكاية في المسلمين، وبقاؤه ضرر عليهم، فقتله أصلح، ومنهم الضعيف الذي له مال كثير، ففداؤه أصلح، ومنهم حسن الرأي في المسلمين، يرجى إسلامه بالمن عليه، أو معونته للمسلمين بتخليص أسراهم، والدفع عنهم، فالمن عليه أصلح»[(٤)].

---

(١) انظر: السيرة النبوية، الصلابي، ٢/ ٤٩، دراسات في السيرة، عدد من علماء الجامعة الاسلامية غزة، ص٢٩٩.
وانظر: التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨٥٤، التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٧٤.

(٢) تفسير المراغي، ١٠/ ٣٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٦٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤/ ٣٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢٦.

(٤) المغني، ابن قدامة المقدسي، ٩/ ٢٢١.

وبعد أن عاتب الله سبحانه وتعالى المسلمين على أخذ الفداء والغنيمة؛ لأنهم بفعلهم هذا يريدون عرض الدنيا؛ إذ ليس فيه مصلحة للدين.

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

أباح لهم الفداء وجعله من جملة الغنائم المباحة التي أبيحت لهم في مطلع السورة، فالمعنى أي: أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم من الفدية، حال كونه حلالًا لكم، طيبًا بنفسه لا حرمة فيه، أو كلوه أكلًا حلالًا لا شبهة فيه، والفائدة إزاحة ما وقع في نفوسهم من أكل الفداء بسبب تلك المعاتبة، أو حرمة الغنائم على الأولين من الأمم السابقة، ففي هذه الآية بيان للطف الله سبحانه وتعالى بهذه الأمة بأن أحل لها الغنائم[(١)].

وبعد أن أخذ النبي صلى الله عليه وسلم الفداء من الأسرى، وشق عليهم أخذ أموالهم منهم، أنزل الله هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠]؛ لبيان الهدف من الأسر، وهو الاستمالة لهم، والترغيب لهم في الإسلام، وتهديدًا وإنذارًا لهم إذا بقوا على الكفر، ففي هذه الآية يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لمن وقع في أيديهم من الأسرى الذين أخذ منهم الفداء: إن يعلم الله في قلوبكم الآن أو في المستقبل إيمانًا وإخلاصًا وحسن نية وعزمًا على طاعة الله ورسوله، والتوبة عن الكفر، وعن جميع المعاصي، ومنها العزم على نصرة الرسول والتوبة عن محاربته، يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم من الفداء، ويغفر لكم ما كان منكم من الشرك والسيئات، والله غفور لمن تاب عن المعاصي، رحيم بالمؤمنين، فهو يمدهم بعنايته وتوفيقه وإسعاده[(٢)].

إن هدف إسلامنا العظيم بأخذ الأسرى إنما ليلمس في قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح، وليوقظ في فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقي والتأثر والاستجابة للهدى، ولترغيبهم بالإسلام لا ليستذلهم انتقامًا، ولا ليسخرهم استغلالًا كما كانت تتجه فتوحات الرومان وغيرهم[(٣)].

عاشرًا: نهاية الغزوة:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢٦، التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٧٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٧٤، تفسير المراغي، ١٠/ ٣٨.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٥٥٣.

لقد انتهت غزوة بدر بنصر كبير للمؤمنين، أعز الله فيه الإسلام والمسلمين، وأذل فيه الكفر والكافرين، فكانت غزوة بدر من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام، وكان لها أثر كبير في إعلاء شأن الإسلام، وانتصار العقيدة، كما كانت أصداء انتصار المسلمين شديدة على أعداء الإسلام من يهود ومشركين.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

لقد أظهر المسلمون في المعركة بطولات فائقة، حيث كانوا يقاتلون وهم يؤملون إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، وعرفت الدنيا أن القوى الروحية لا تقهرها القوى المادية، وأن النفس البشرية إذا امتلأت بالإيمان وحب الشهادة تضاءلت أمامها شم الجبال الراسيات، والله هو القوي القاهر يمد عباده المؤمنين بنصر من عنده إذا صدقوا الإيمان، وأخلصوا له في الجهاد، وانتصروا على شهواتهم وأنفسهم، واتقوا الله حق تقواه نعم لقد انجلت المعركة عن نصر حاسم للمسلمين، وهزيمة منكرة للمشركين، فقتل سبعون من صناديدهم، وأسر سبعون[1]، ومن بقي سارع إلى الهرب، وقد قدم المسلمون يومئذ أربعة عشر شهيدًا: [2] منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار[3].

وإن من نتائج غزوة بدر أن قويت شوكة المسلمين، وأصبحوا مرهوبين في المدينة وما جاورها، وتعززت مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة، وارتفع نجم الإسلام فيها، ولم يعد المتشككون في المدينة يتجرؤون على إظهار كفرهم وعداوتهم للإسلام، وكذلك ازدادت ثقة المسلمين بالله سبحانه وتعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، واشتد ساعدهم، ودخل عدد كبير من مشركي قريش في الإسلام، وإلى جانب ذلك كسب المسلمون من المعركة مهارات عسكرية، وأساليب جديدة في الحرب، وانتعش حال المسلمين المادي والاقتصادي بما أفاء الله عليهم من غنائم.

أما قريش فكانت خسارتها فادحة، فإضافة إلى مقتل أبي جهل وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وغيرهم من زعماء الكفر،

(١) انظر: حديث عمر بن الخطاب الذي أخرجه مسلم في صحيحه، ١٧٦٣، كتاب الجهاد والسير، باب الامداد بالملائكة، ٣/ ١٣٨٣.
(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٧٠٦.
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، أبو شهبة، ٢/ ١٤٢.

وأسر عدد كبير منهم، فقد كانت المعركة خسارة معنوية عليهم، أما اليهود فقد هالهم أن ينتصر المسلمون في المعركة، وأن تقوى شوكتهم، فأخذوا يدبرون المكائد وينقضون العهود[1].

«أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة، وأن تصبح دولة، وأن يصبح لها قوة وسلطان، وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها، فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها! وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة، وليس بالمال والخيل والزاد إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد. وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية، لا عن مجرد تصور واعتقاد قلبي، ذلك؛ لتتزود العصبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله، ولتوقن كل عصبة مسلمة أنها تملك في كل زمان وفي كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها، مهما تكن هي من القلة، ويكن عدوها من الكثرة، ومهما تكن هي من ضعف العدة المادية، ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد وما كانت هذه الحقيقة لتستقر في القلوب كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة الطغيان»[2].

التوجيهات القرآنية بعد نهاية الغزوة

أولًا: إصلاح ذات البين:

إن من التوجيهات القرآنية العظيمة بغزوة بدر، أن من أسباب النصر تآلف القلوب وترابطها وتراحمها، فقوة الترابط هي القوة الثانية بعد قوة الإيمان.

لقد بينت الآيات القرآنية أن إصلاح ذات البين، ووحدة الكلمة على منهج الله سبحانه وتعالى أعظم عند الله من الدنيا والغنائم والأموال والمتاع، لذلك لما اختلف الصحابة وتنافسوا وتخاصموا في شأن الغنائم نزعها الله من أيديهم وجعلها لله ورسوله يحكمان فيها، وأنزل الله الآية الكريمة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

ومعنى الآية، أي: وإذا كان أمر الغنائم لله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فاتقوا الله سبحانه وتعالى في أقوالكم وأفعالكم، واجتنبوا ما كنتم فيه من التنازع والاختلاف فيها، الموجب لسخط الله وغضبه، والموقع في الفرقة والعداوة الضارة بكم حال الحرب وغيرها، فلا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا وأصلحوا ذات بينكم، حتى تتأكد الرابطة الإسلامية بين

---

(١) انظر: السيرة النبوية، علي الصلابي، ١/ ٥٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٤٨١.

بعضكم، وتشيع المحبة والمودة والوفاق والوئام بين صفوفكم، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بترابطكم، فلتجتمع كلمتكم، وليشتد أمركم، وليقو أزركم فتقدروا على إقامة الدين وقمع المفسدين(١).

إن إصلاح ذات البين وتوحيد الصف ورفع الخصومة من أولى مقومات النصر، والتفرق من أسباب الهزيمة، لذلك أمر الله المسلمين بالطاعة، ونهاهم عن التنازع قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال: ٤٦].

أي: أطيعوا الله في كل ما أمر به ونهى، وكذا رسوله الكريم، وإياكم والنزاع فإنه مدعاة للفرقة وأساس الهزيمة، وإنما أهلك من كان قبلكم اختلافهم وكثرة اعتراضهم، فالنزاع أداة الهلاك، ومعول الهدم والشقاء، به تذهب الدولة، وتفنى القوة، وعليكم بالصبر، فهو سلاح المؤمن الذي لا يفل(٢).

لذلك عندما استجاب المسلمون لأمر الله سبحانه وتعالى، وأصلحوا بينهم، وكانوا يدا واحدة بلا عصبية قبلية جاهلية، أو تفرقة بين لون أو جنسية أو عشيرة، ولا تنافس على عرض دنيا زائل، بل كانوا صفًا واحدًا لهدف واحد، هو نصرة الدين والعقيدة، ورفع راية الحق، وقد ألف الله بينهم، وجعلهم أمة واحدة، متعاونة ومتناصرة، فكان التأييد الرباني.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٢-٦٣].

هذا دليل واضح على أن من أهم أسباب النصر هو التآلف واتحاد الكلمة، فالله جمعهم وألف بين قلوبهم، وقد كانوا في الجاهلية أصحاب حروب وفتن وعداوات وعصبيات وحب للانتقام وإثارة الحروب لأتفه الأسباب، ومع أنك لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله القوى القادر الحكيم العليم ألف بين قلوبهم، وجمعهم على صراط سوي، وأزال كل تلك الخلافات بنور الإيمان(٣).

ثانيًا: تقسيم الغنائم:

اختلف الصحابة في شأن الغنائم، وتنافسوا عليها، ولم يكن حكمها قد نزل حتى ذلك الوقت، حتى نزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٣٨٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٠، التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ٢٤٥، نظم الدرر، البقاعي، ٨/ ٢١٩.
(٢) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٨٣٤.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٥٧.

﴿قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

فأصبحت الغنائم لله ولرسوله، ثم بين الله سبحانه وتعالى إحلال الغنائم (وهي: المال المأخوذ من الكفار في المعركة)، وبين كيف توزع الغنائم.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

فكانت هذه الآية تفصيلًا للغنيمة التي أجمل حكمها في بدء السورة، والتي اختص الله هذه الأمة بإحلالها، فبينت الآية أنها تقسم أخماسا، حيث يجعل الخمس لمن ذكرتهم الآية، والأربعة الأخماس الباقية للغانمين الذين شهدوا المعركة، بدليل بيان هذا الخمس والسكوت عن الباقي، وبدليل قوله سبحانه وتعالى: ﴿غَنِمْتُم﴾ حيث بين القرطبي أن إضافة الغنيمة للغانمين، ثم تعيين الخمس لمن سمى في كتابه، والسكوت عن الأربعة الأخماس، دل على أنها ملك للغانمين[1].

أما الخمس الذي عينته الآية فأكثر المفسرين والفقهاء أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ فهو على سبيل التبرك؛ لأن الدنيا والآخرة كلها لله، فيكون الخمس الباقي للخمسة أصناف التي ذكرت في الآية[2] وهي: سهم الرسول صلى الله عليه وسلم يضعه حيث شاء، وسهم ذوي القربى أي: قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسهم اليتامى وهم أطفال المسلمين الذي هلك آباؤهم، والمساكين وهم أهل الحاجة من المسلمين، وابن السبيل وهو: المجتاز سفرا قد انقطع به[3].

أما التوجيه الدائم بعد ذلك، فهو ما تضمنه شطر الآية الأخير: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ أن للإيمان أمارات تدل عليه، والله سبحانه وتعالى يعلق الاعتراف لأهل بدر بأنهم آمنوا بالله، وبما أنزله على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان على قبولهم لما شرع الله لهم في أمر الغنائم في صدر الآية، فيجعل هذا شرطًا لاعتبارهم عنده قد آمنوا بالله، وبما أنزله على عبده من القرآن، كما يجعله مقتضى لإعلانهم الإيمان، فدين الله واضح جازم، لا تميع فيه ولا غلو، بأن الإيمان ليس بالتمني، ولكن ما وقر في

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٥٥٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣،التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٥٢٢، لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣١٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٩.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ١٠/ ٦.

القلب وصدقه العمل، فلا بد لقيامه من قبول ما شرعه الله، وتحقيقه في واقع الحياة[1].

ثالثًا: توجيهات عامة للمؤمنين:

١ . النصر بيد الله.

لقد جاءت الآيات القرآنية ترسخ هذه القاعدة الربانية، وتبين أن الله سبحانه وتعالى هو الذي نصر المؤمنين في بدر، وهذا درس للمؤمنين بأن يثقوا بالله، ويتوكلوا عليه؛ لأنه صانع النصر، قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فلا نصر على العدو إلا بنصر الله وتأييده، لا بشدة بأس أو قوة أو سواها من الأسباب، فهو سبحانه الفاعل للنصر والمسخر له كتسخيره للأسباب الحسية والمعنوية[2].

إن المتأمل في أحداث غزوة بدر يجد رعاية الله وحفظه للمؤمنين، بل يتضح له أنها كلها من تدبير الله سبحانه وتعالى، فالترتيب للمعركة كان من الله.

ودلت على ذلك الآيات: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥-٨].

وكذلك الإعداد النفسي للمعركة من خلال مشهد النعاس، وإنزال المطر، ورؤية الفريقين لبعضهما، ودلت عليه الآيات ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤].

ونزول الملائكة قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

و أيضًا فإن موعد ومكان المعركة كان

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٥٢٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤١٨، تفسير المراغي، ٩/ ١٧٤.

بترتيب الله قال تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]

لقد هيأ الله الأسباب وسخرها لنصر المسلمين في المعركة؛ ليكون النصر من عنده سبحانه، وفي هذا تعليم للمؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه؛ لأن النصر من عند الله وحده، وليس من الملائكة ولا غيرها، فالأسباب يجب أن يؤخذ بها، لكن يجب ألا يغتروا بها، بل الاعتماد على خالق الأسباب، فهو الناصر سبحانه، وقد أمر الله المسلمين أن يتذكروا نعمته عليهم، نعمة النصر بعد أن كانوا مستضعفين.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦][1].

٢. القتل والإصابة من الله.

فكما أن النصر من عند الله سبحانه وتعالى لمن أخذ بالأسباب، كذلك قتل الكافرين كان بإرادته سبحانه وتعالى، ووقع هذا القتل بيد المؤمنين، والله هو المميت والمقدر ذلك، فالمؤمن يضرب بالسيف، وينجرح العدو وينزف، لكن ألم تر جريحًا لم يمت، وألم تر غير مجروح يموت؟ إذن فالقتل هو من الله.

قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وتدل الآية أن الله هو الذي يصيب الهدف، والعبد إنما يشارك بتكسبه وقصده، فالنبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رمى حفنة التراب على وجوه المشركين، ولكن الله هو الذي أعانه وأظفره وصنع له، فأصابت الرمية المشركين بقوته وقدرته سبحانه وتعالى، ففي الآية أضاف الرمي إلى نبي الله، ثم نفاه عنه، وأخبر عن نفسه أنه الرامي، فيكون المعنى: وما أصبت إذ رميت، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي أصاب[2].

ففي هذا درس هام للمؤمنين في الأخذ بالأسباب، وترك النتائج على الله، ولكن لابد من اليقين وحسن التوكل على الله، ثم لابد ألا يفتخر العبد بأنه فعل كذا وكذا، أو

(١) انظر: السيرة النبوية، الصلابي، ٢/ ٦٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٣٨٤، محاسن التأويل، القاسمي، ٥/ ٢٦٩، تفسير الشعراوي، ٨/ ٤٦١٥.

قتل وضرب ورمى، فعلى المسلم ألا يعجب بعمله، بل يتواضع ويحتسب أجره عند الله؛ لأن التوفيق كله من الله، هو المسدد سبحانه وتعالى.

٣. الابتلاء بالنصر بعد القتال لشكر النعمة.

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن النصر والتوفيق من عنده، بين أنه قادر على نصر المؤمنين من دون مباشرة قتال؛ ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجرًا حسنًا وثوابًا جزيلا، وليعرفوا نعمه عليهم في إظهارهم على عدوهم مع كثرتهم وقلة عدد المؤمنين، فيعرفوا بذلك حقه ويشكروه على نعمته[(١)].

قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقد ذكر البقاعي الحكمة من ابتلاء المؤمنين بالجهاد، والظفر في المعركة مع أنه قادر على نصرهم بدون قتال، فذكر أن الله أراد أن يخالط المؤمنين من ذلك ما يكون لهم من مزاولته عاقبة حسنة، بل أحسن من الراحة؛ لأنه يفضي بهم إلى راحة دائمة، والدعة تفضي الى تعب طويل[(٢)].

٤. قوة الإيمان هي السلاح الأقوى والأنفع.

إن الإيمان الصادق والتسليم لله وقوة الاتصال به والالتزام بأوامره والانتهاء عما نهى، هو القوة الحقيقية والسلاح في المعركة، وهو الذي يجلب رعاية الله وكرامته ونصره، وقد أمر الله بإعداد القوة.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأعظم قوة هي قوة الإيمان الصادق.

ونحن نتحدث عن غزوة بدر الكبرى إنما لنستشعر معاني الإيمان الذي فقد، ومعاني الرجولة التي انصرفنا عنها، ومعاني الجهاد الذي نكسنا عنه، ومعاني الإقبال على الله الذي أعرضنا عنه، نستشعر هذه المعاني كلها؛ لنحييها فينا، وفي أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يمكن أن ننتصر اليوم في معاركنا الداخلية ضد الفساد والاستبداد، والخارجية ضد اليهود والاستكبار العالمي، كما انتصر أهل بدر في معركتهم، إن لم نكن مؤمنين كما كانوا، ورجالًا كما كانوا، ومجاهدين كما كانوا، وأبطالًا كما كانوا، نسأل الله أن يعيد للأمة عزها وكرامتها، وأن ينصرها على أعدائها.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٤٤٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٧.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ٨/ ٢٤٤.

القيادة النبوية في الغزوة

كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو القائد العام للمسلمين في معركة بدر، وقد خاض المعركة بنفسه، ونعم القائد هو، إنه القدوة الكاملة، والقائد الرباني، كيف لا وهو أعرف الناس بالله سبحانه وتعالى وأتقاهم له، وأخشاهم، ويملك من القوة الإيمانية ما يملأ قلوب من معه من الصحابة إيمانًا وتقوى بمجرد نظرة منه أو جلسة معه. وكان له من الإرادة الجهادية ما يدفع الصحابة إلى الجهاد والاستشهاد لدرجة التسابق والمسارعة بمجرد إشارة أو نداء، فما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم واعظ منبر وكفى، لا أميرًا فقط، وإنما كان المجاهد الكامل، والقائد القدوة، ومن أهم ما تميز به النبي صلى الله عليه وسلم في المعركة، وكان له الأثر الكبير على المسلمين المقاتلين، وكان عاملا أساسيًا من عوامل النصر في المعركة، ما يأتي:

١ . تشجيع الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة رضي الله عنهم وتبشير الجنود وبث الثقة.

لقد شجع الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه وحرضهم قبل القتال وأثناءه، وقوى عزائمهم ورفع معنوياتهم، حتى لا يكترثوا بتفوق المشركين عليهم بالعدة والعدد؛ وقد أثر ذلك على معنويات الكبار الذين مارسوا الحرب وعرفوها من المسلمين وكذلك على الأحداث الصغار الذين لم يمارسوا حربا ولا قتالًا[١]، وهذا امتثال لأمر الله بالتحريض على القتال، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٥].

لقد كان النبي يبشر الجنود ويبث فيهم الثقة بقوله لهم: (سيروا وأبشروا)[٢]، وكان يخطب فيهم حاثًا لهم على الجهاد، جاء في حديث أنس بن مالك أنه لما دنا المشركون يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض)[٣].

٢ . استشارة الجند من الصحابة.

لقد شاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه حين بلغه خبر خروج قريش، وسمع رأي المهاجرين والأنصار في لقاء المشركين، وقبل مشورة الحباب في تبديل معسكره في بدر حين نزل بأدنى ماء منها، فانتقل بالمسلمين الى حيث أشار الحباب،

---

(١) انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ١/ ١١٩.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ٦١٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٩٠١، كتاب الجهاد، باب ثبوت الجنة، ٣/ ١٥٠٩.

وبنى حوضًا على القليب الذي أتاه؛ واستشار المسلمين في أمر الأسرى بعد المعركة، وعمل بالرأي الذي أبداه أبو بكر الصديق رضي الله عنه[(١)].

٣. المشاركة في القتال وبناء العريش.

لقد شارك النبي صلى الله عليه وسلم في القتال واتخذ مقرًا يسيطر منه على المعركة، فبنى العريش فوق رابية مشرفة على ساحة المعركة[(٢)]، حيث روي عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر وهو يثب في الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥][(٣)].

٤. ابتكار الصفوف في القتال بالمعركة.

ابتكر النبي صلى الله عليه وسلم نظام الصفوف في القتال؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

والقتال بأسلوب الصفوف، يكون بترتيب المقاتلين صفين أو ثلاثة صفوف أو أكثر على حسب عددهم، وتكون الصفوف الأمامية من المسلحين بالرماح؛ لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف المتعاقبة الأخرى من المسلحين بالنبال؛ لتسديدها على المهاجمين من الأعداء، وإن تطبيق الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا الأسلوب القتالي في معركة بدر، كان عاملًا مهمًا من عوامل انتصاره على المشركين[(٤)].

هذه مزايا القائد القدوة في كل زمان ومكان، والتي جعلت المسلمين يقاتلون كرجل واحد، لغاية واحدة، بقيادة قائد واحد وهذا عامل مهم من عوامل النصر في كل حرب.

---

(١) انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ١/ ١١٥.

(٢) انظر: السيرة النبوية، الصلابي، ٢/ ١٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٨٧٥، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: سيهزم الجمع، ٦/ ١٤٣.

(٤) انظر: الرسول القائد، محمود شيت خطاب، ١/ ١١٤.

فضل من حضر بدرا

لقد جعل الله سبحانه وتعالى لأهل بدر من المنزلة والمكانة في الدنيا والآخرة ما ليس لغيرهم، حتى صار من المآثر والمفاخر أن يقال: فلان بدري، روي عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي، عن أبيه -وكان أبوه من أهل بدر- قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (ما تعدون أهل بدر فيكم، قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة)[(١)].

وروى الشيخان في صحيحيهما قصة حاطب بن أبي بلتعة، وبعثه الكتاب إلى أهل مكة عام الفتح يخبرهم فيه بعزم رسول الله على قصد مكة، وأن عمر استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ضرب عنقه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (أليس من أهل بدر؟ لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم)[(٢)].

وروى البخاري في صحيحه عن حميد قال: سمعت أنس بن مالك يقول: (أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع، فقال: **(ويحك، أو هبلت أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس)**[(٣)].

وفي رواية: (إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى)[(٤)].

قال الحافظ ابن كثير بعد ذكره هذا الحديث: «وفي هذا تنبيه عظيم على فضل أهل بدر، فإن هذا لم يكن في حومة الوغى، بل كان من النظارة من بعيد، وإنما أصابه سهم غرب، وهو يشرب من الحوض، ومع هذا أصاب بهذا الموقف الفردوس، التي هي أعلى الجنان، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، التي أمر الشارع أمته إذا سألوا الله الجنة أن يسألوه إياها، فإذا كان هذا حال هذا، فما ظنك بمن كان واقفًا في نحر العدو؟!»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٣٩٩٢، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا، ٥/ ٨٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، ٢٤٩٤، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر، ٤/ ١٩٤١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، ٣٩٨٢، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدر، ٥/ ٧٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، ٦٥٥٠، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ٨/ ١١٤.

(٥) البداية والنهاية، ٣/ ٣٩٨.



الدروس المستفادة من غزوة بدر

لقد كان لغزوة بدر حكم ودروس كثيرة، نذكر بعضها فيما يأتي:

١. نصرة الدين والتمكين للمنهج أعظم من الدنيا وما فيها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧ - ٨]. فالنفس تميل للراحة والدنيا، والجهاد فيه المشقة، ولكن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، والله يعلم ما لا نعلمه.

٢. النصر يكون بالطاعة والتسليم لله، والاستجابة لرسوله صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فإن ما يقدره الله هو الخير، وما يدعو إليه الرسول هو العزة والسعادة.

٣. النصر بالثبات واستحضار عظمة الله وذكر الله عند المواجهة، فمن صفات المؤمنين الكمل، والمجاهدين الخلص ما بينه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. وأوضح ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

٤. القتال بحاجة إلى صبر وشدة بأس ووحدة كلمة وإعداد قال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٥. من عوامل النصر عدم التنازع والاختلاف قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٦. الدعاء من أقوى أسلحة المؤمن في مواجهة مكر الأعداء وكيدهم

وعدوانهم، وهذا ظاهر في مناشدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه والتضرع إلى الله: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض)[1]، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

موضوعات ذات صلة.

غزوات الرسول مع اليهود، غزوة أحد، غزوة الأحزاب، غزوة تبوك

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧٦٣، كتاب الجهاد والسير، باب الامداد بالملائكة في غزوة بدر، ٣/ ١٣٨٣.







عناصر الموضوع

التعريف بغزوة تبوك

أولًا: أسماؤها:

ورد في كتب السيرة أكثر من تسمية لهذه الغزوة المباركة، وسوف أذكر هذه الأسماء وحكمة التسمية فيما يأتي:

١ . غزوة تبوك.

وقد ورد هذا الاسم في أحاديث صحيحة، ففي صحيح مسلم عن معاذ بن جبل قال: (خرجنا مع رسول الله عام غزوة تبوك، فكان يجمع الصلاة، ثم قال: (إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار)[(١)].

وتسمية الغزوة بهذا الاسم واضح، فإنه المكان الذي انتهى إليه مسير المسلمين، وتبوك مدينة من مدن شمال الحجاز الرئيسية، بها إمارة الآن تعرف بإمارة تبوك، وهي تبعد عن المدينة ٧٧٨ كيلو مترًا على طريق معبدة تمر بخيبر وتيماء، وقد كانت وقتئذ من ديار قضاعة تحت سلطة الروم[(٢)].

٢ . غزوة العسرة.

والعسرة: الشدة وضيق الحال والعدم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وقد وردت هذه التسمية في سورة التوبة، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾[التوبة: ١١٧] وساعة العسرة أي: وقت العسرة، والمراد جميع أوقات تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها[(٣)].

ووردت التسمية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (من جهز جيش العسرة فله الجنة)[(٤)].

ووردت التسمية عن جمع من الصحابة الكرام، منهم: أبو موسى الأشعري رضي الله عنه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم رقم ٢٢٨١ .
(٢) انظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق الحربي ص ٥٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٧٨.
(٤) أخرجه البخاري تعليقا في كتاب المناقب باب مناقب عثمان ٥/ ١٣ ووصله الدارقطني في سننه ٥/ ٣٥٥، والبيهقي في سننه ٦/ ٢٧٦ وسنده حسن.

حيث قال: (أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الحملان لهم، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك)[١].

ومنهم: يعلى بن أمية رضي الله عنه حيث قال: (غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم جيش العسرة، فكان من أوثق أعمالي في نفسي)[٢].

ومما سبق يتضح أن التسمية كانت مشهورة بين الصحابة الكرام؛ لورودها في القرآن الكريم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولأنهم كانوا يرون العسرة أمام أعينهم وليس بعد العيان بيان.ومن الشواهد الواردة على العسرة في الغزوة ما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد؛ حتى ظننا أن رقابنا ستقطع؛ حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه)[٣].

ونحوه عن محمد بن عبد الله بن عقيل، وفيه تفصيل للعسرة حيث قال: «خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير، وخرجوا في حر شديد فأصابهم يومًا عطش؛ حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعتصرون أكراشها ويشربون ماءها، فكان ذلك عسرة من الماء، وعسرة من النفقة، وعسرة من الظهر»[٤].

٣. الفاضحة.

قال الزرقاني: «وتعرف بالفاضحة لافتضاح المنافقين فيها»[٥]. ومن المعلوم أن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما كان يسمي سورة التوبة بالفاضحة، قال: «التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم ومنهم حتى ظنوا أنها لن تبقي أحدًا منهم إلا ذكر فيها»[٦].

وقد نزلت سورة التوبة وفيها التعقيب على غزوة تبوك ففضحت سرائر المنافقين في الغزوة، وأظهرت ما كان خفيًّا من سوء باطنهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي باب غزوة تبوك وهى غزوة العسرة رقم ٤٤١٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة باب الأجير في الغزو برقم/ ٢٢٦٥.
(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، ١/ ٥٢، والحاكم في المستدرك ١٧/ ٣٦٢ وصححه على شرطهما ولم يتعقبه الذهبي.
وجود ابن كثير إسناده في .البداية والنهاية ٥/ ٩.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٩٨ رقم ١٠٠٨١، دلائل النبوة، البيهقي رقم ١٩٨١.
(٥) شرح المواهب اللدنية ٤/ ٦٦.
وانظر: إمتاع الأسماع، المقريزي ٨/ ٣٩١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الحشر، رقم ٢٨٨٢.

ثانيًا: زمان الغزوة:

اتفق أرباب السير على أن غزوة تبوك كانت في رجب من العام التاسع للهجرة[(١)].

قال ابن عباس: «لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خروجه من الطائف ستة أشهر، ثم أمره الله بغزوة تبوك، وهي التي ذكر الله ساعة العسرة»[(٢)].

قال ابن حجر: «وليس مخالفًا لقول من قال: في رجب، إذا حذفنا الكسور؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قد دخل المدينة من رجوعه من الطائف في ذي الحجة»[(٣)].

وقد ذكروا أن خروجه صلى الله عليه وسلم إلى تبوك كان يوم الخميس، عن كعب بن مالك قال: «إن ا لنبي صلى الله عليه وسلم خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس»[(٤)].

قال العامري: «لخمس خلون من رجب»[(٥)].وأقام رسول الله في تبوك عشرين ليلة[(٦)].

أما تحديد زمنها بالتقويم الشمسي فلا شك أنه كان في وقت اشتداد الحر في موسم الصيف، وهذا ما يظهر بوضوح في قوله تعالى مخبرًا عن المنافقين: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة:٨١].

وقد ذهب بعض المصنفين في السيرة إلى أنها كانت في نوفمبر، والأقرب ما ذكره بعضهم من أنها كانت في شهر إبريل والله أعلم»[(٧)].

وكان عدد المسلمين ثلاثين ألفًا منهم عشرة آلاف فارس[(٨)]، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة، وعهد إلى علي بن أبي طالب القيام على أمور أهل بيته.

ثالثًا: حكمة ذكر غزوة تبوك في سورة التوبة:

سورة التوبة من السور المدنية التي تأخر نزولها، بل ورد عن البراء رضي الله عنه أنه قال:

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد ٢/ ١٦٥، عيون الأثر ٢/ ٢٦٨، زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٥٢٦.
(٢) تاريخ دمشق، ابن عساكر ٢/ ٢٨.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ١١١
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير باب من أراد غزوة فورَّى بغيرها، ومن أحب الخروج يوم الخميس، رقم ٢٩٤٩، ٤/ ٤٨.
(٥) بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، يحيى العامري ٢/ ٣١.
(٦) مغازي الواقدي ٣/ ١٠١٥.
(٧) انظر: السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي ص ٤٨٧.
(٨) مغازى الواقدي ٣/ ١٠٠٢، دلائل النبوة، البيهقي ٥/ ٢١٩، عيون الأثر ٢/ ٢٦٨.

«آخر آية نزلت ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ وآخر سورة نزلت براءة»[1].

وفيها كثير من الأمور المحكمة التي لم تنسخ ومنها أحكام الجهاد، فمن خلال تتبع أحكام القتال ومراحل تشريعه وجدنا أن سورة التوبة قد ذكرت الموقف النهائي من كل الطوائف، قال ابن القيم: «ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان»[2].

ففي السورة الأحكام النهائية للجهاد، وفيها المثال العملي بتفاصيل آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيان ما حدث فيها من المؤمنين والمنافقين. وما استحقوه من جزاء رباني.

ومقصود السورة يشير إلى هذا، فقد ذكر البقاعي أن مقصود السورة: «معاداة من أعرض عما دعت إليه السور الماضية، من اتباع الداعي إلى الله في توحيده، واتباع ما يرضيه، وموالاة من أقبل عليه»[3].

ولما كانت سورة التوبة من آخر السور نزولا فقد جاءت بالقول الفصل في كثير من الأحكام المتعلقة بالآخر، فقد ورد فيها تفصيل القول في عهود المشركين وأقسامهم، وورد فيها تفصيل الموقف من أهل الكتاب ومن المنافقين. وكلا الموضوعين مرتبط بغزوة تبوك.

لقد كانت غزوة تبوك مع نصارى الروم، وقد تعرضت السورة للكلام عن أهل الكتاب وموقفهم من الدعوة الإسلامية وذلك من الآية (٢٩)إلى الآية (٣٤) وكان هذا الحديث تمهيدا للحديث عن غزوة تبوك من أول الآية (٣٨)إلى الآية (١٢٧) وفيها حديث مطول

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (براءة من الله ورسوله)، ٨/ ١٦٨، رقم ٤٦٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، ٣/ ١٢٣٧.
والراجح أن سورة النصر آخر سورة نزلت كاملة، وأن التوبة تأخر نزول معظمها إلا أن فيها ما نزل في سنة تسع وهو صدر السورة.
وانظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٧٣٤.

(٢) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٤٣- ١٤٤.

(٣) مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور، البقاعي ٢/ ١٥٣.

عن المنافقين ومواقفهم قبل الغزوة وأثناءها وبعدها، وإذا كان الحديث عن المنافقين قد ورد في كثيرمن السور المدنية إلا أن أطول حديث وأشده كان في سورة التوبة، إن الغزوة كانت الفرصة الأخيرة والامتحان النهائي للصف المسلم قبل أن يلحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، فكان لابد أن تتمايز الصفوف ويعرف كل فرد مكانه، ويميز الله الخبيث من الطيب وينكشف أمر النفاق انكشافًا تامًّا.

وأسلوب السورة فيه القوة والشدة معهم، فلم يعد هناك مجال أو وقت للملاينة بعد أن ظهر نفاقهم سافرًا في تبوك؛ ولذلك جاءت أسماء السورة تحمل هذه المعاني، فهي براءة من الكفار ومن على شاكلتهم، وهي الفاضحة التي نزلت بفضيحة المنافقين، وهي سورة العذاب التي نزلت بالعذاب على المنافقين، وهي المقشقشة التي تشفي قلب المؤمن من النفاق، وهي المثيرة والحافرة التي تكشف خبيئات المنافقين، وهي المبعثرة المخزية، المنكلة، المشردة، المدمدمة، الكاشفة، العاصفة، الفارقة، المحرضة[(١)].

ومع هذه الشدة والغلظة في جهاد المنافقين الذي يعتمد على الكلمة لا على القوة وعلى اللسان لا على اليد، نجد مع هذا أن السورة هي سورة التوبة وأنها أكثر سورة في القرآن ورد فيها لفظ التوبة بمشتقاته المتعددة: (تاب، تابوا، تبتم، يتوب، التواب، يتوبوا، ليتوبوا، يتوبون، التوبة، التائبون) ولم يتكرر لفظ التوبة في أي سورة من القرآن كما تكرر في هذه السورة. وذلك حتى يظل باب المغفرة مفتوحًا لمن ندم وأناب ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقد تحدثت السورة عن جهاد المال، وقرنت بين الجهاد بالمال والنفس في خمس آيات، وبينت فضيلة الإنفاق وثواب المنفقين وعقوبة الكانزين، وفصلت مصارف الزكاة، وهذا الحديث مرتبط أيضا بغزوة تبوك، غزوة العسرة والشدة التي وعدت بالخيرات من جاهد بماله ونفسه، وكما كشفت السورة المنافقين فإنها كذلك نوَّهت بقدر المؤمنين وبإنفاقهم أموالهم في سبيل الله.

رابعًا: أسباب تصريح الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج لغزوة تبوك:

كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستعمل التورية إذا أراد الخروج في غزوة؛ وذلك لكي يبغت العدو ويفجأهم فلا يأخذوا أهبتهم للقتال؛ وكان هذا الأمر مطَّردًا

(١) انظر في ذلك: الكشاف ٢/ ٢٤١، محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٣٤٣.

في كل الغزوات إلا غزوة تبوك، وهذا ما صرح به كعب بن مالك رضي الله عنه، حيث قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلَّما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل غزو عدوكثير، فجلَّى للمسلمين أمرهم، ليتأهَّبوا أهبة عدوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد)[1].

فالإسرار من قبيل الخداع المحمود في الحرب، أما خصوصية تبوك في عدم التورية وفي صريح الإعلان عنها فإن ذلك راجع لعدة أسباب؛ منها ما ذكره المهلب بقوله: «وأخبرهم صلى الله عليه وسلم بغزوة تبوك لطول المدة؛ ليتأهبوا -كما ذكر فى الحديث- ولأنه آمن ألا يسبقه إليها الخبر لبعد الشقة التي بينه وبينها وقفرها»[2].

ومنها ما ذكره اللواء محمود خطاب، حيث قال في تعليل التصريح: «لأن المسافة طويلة يجب قطعها صيفا، فلا بد من إكمال المؤنة والنقلية للمجاهدين قبل الحركة،حتى لايؤدي نقص القضايا الإدارية إلى إخفاق المسلمين في تحقيق هدفهم المنشود.وليس من السهل تجهيز قوات المسلمين الكبيرة بما تحتاجه من مؤنة ونقلية وأسلحة، مالم يشارك أغنياء المسلمين في تجهيز هذا الجيش مشاركة فعالة، فأقبل هؤلاء الأغنياء على بذل أموالهم بسخاء وعن طيبة خاطر»[3].

ونستخلص من هذا أن للتصريح بالغزوة أسبابا عديدة نجملها فيما يأتي:

١. ما صرح به كعب بن مالك رضي الله عنه في الحديث من أن ذلك التصريح كي يأخذ المسلمون أهبتهم ويستعدوا نظرا لبعد الطريق وقلة المؤنة.

٢. ولكي يستعد أهل الغنى من المؤمنين فيكثروا من النفقة؛ لتدبير احتياجات الجيش المسلم، وقد أنفق الكثيرون من ذوي اليسار لتجهيز المعسرين، ومر بنا حديث عثمان ووعده بالجنة لتجهيزه جيش العسرة.

٣. أن هذه الغزوة تعتبر اختبارًا نهائيًّا -إن صح التعبير- فهي آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من حكم الله تعالى أن تكون هذه الغزوة كاشفة لأحوال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فورى بغيرها، رقم ٢٩٤٨، ٤/ ٤٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم ٢٧٩٦ ، ٤/ ٢٢١٨.

(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٥/ ١٢٣.

(٣) الرسول القائد، محمود شيت خطاب ص٣٩٨.

الصادقين من المؤمنين وأحوال المنافقين، فهي آخر غزوة، ولن يجدي الآن سوى أسلوب التصريح الكامل، والطلب المباشر من الجميع أن ينفر على كل حال من الخفة أو الثقل؛ ولهذا كان التصريح الواضح بالوجهة، ومما يقوي وجهة النظر في أن الغزوة كان من جملة أهدافها الاختبار أنه لم يحدث فيها أي قتال، بل ذهب المؤمنون الصادقون وعادوا ولم يتتبعوا عدوًّا أو يقاتلوا أحدًا، وإنما اتبعوا رضوان الله فعادوا بتوبة ورضوان ورب غير غضبان.

أسباب الغزوة

لقد ذكر كُتَّاب السِّير عدَّة أسباب لغزوة تبوك، منها:

قال ابن سعد: «بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج»[1].

ولم يأت هذا القول مسندًا، لكن ورد في السنة الصحيحة أن الصحابة كانوا يترقبون مجيء قبائل الروم إلى المدينة، فقد ورد عن عمر رضي الله عنه قال: «وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر، ونحن نتخوف ملكًا من ملوك غسان، ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح افتح. فقلت:جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه»[2].

وقال اليعقوبي: «وغزاة تبوك غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمع كثير من أرض الشام، يطلب بدم جعفر بن أبي طالب»[3].

ويرى آخرون أن السبب المباشر مقتل فروة بن عمرو الجذامي الذي كان قائدًا من قوَّاد الروم، وواليا لهم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام. فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه وقتلوه[4].

ومن الثابت أن مقتل جعفر رضي الله عنه كان في غزوة مؤتة سنة ثمان من الهجرة، وقد يكون هذا من جملة الأسباب الداعية إلى غزوة تبوك، ولكنه لا يرقى بمفرده أن يكون سببًا للغزوة. ويقال هذا في مقتل فروة أيضًا، والله أعلم.

وروي عند ابن عساكر عن عبد الرحمن ابن غنم رضي الله عنه أن اليهود أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقًا أنك نبي فالحق بالشام؛ فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ

(١) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ١٦٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تبتغي مرضات أزواجك، رقم٤٩١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب الإيلاء واعتزال النساء، رقم ١٤٧٩.
(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٦٧.
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩١-٢٩٢.

﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦: ٧٧][1].

وفي الإسناد ضعف، والظاهر أن هذا ليس بصحيح، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخرج للغزوة بسبب قول اليهود، بالإضافة إلى أن الآية مكية[2].

وروى الطبري عن مجاهد قال: «قال المؤمنون: كنا نصيب من متاجر المشركين. فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله عوضًا لهم بأن لا يقربوهم المسجد الحرام. فهذه الآية من أول براءة في القراءة، ومن آخرها في التأويل: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] إلى قوله: ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. حين أمر محمد وأصحابه بغزوة تبوك»[3].

ومع أن النصوص النبوية تشير إلى أن الجهاد باب من أبواب الرزق كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (وجعل رزقي تحت ظل رمحي)[4].

إلا أن حمل الآية على العموم أولى، فقد فتح الله أبواب الرزق للمسلمين من أكثر من وجه، وليس فقط من وجه الغنائم بدليل أنهم لم يغنموا شيئًا كثيرًا من تبوك، ولم يكن هدف المؤمنين من الغزو التربح فقط، بل هدفهم الأساس تعبيد الناس لربهم.

والظاهر أن الغزوة كانت امتثالًا نبويًّا لأمر الله بقتالهم؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

قال الطبري: «يقول لهم ابدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب إليكم دارًا دون الأبعد فالأبعد، وكان الذين يلون المخاطبين بهذه الآية يومئذ الروم؛ لأنهم كانوا سكان الشام يومئذ»[5].

وحكمة قتال الروم تتضح من الآية، وهي أن يجدوا في المؤمنين غلظة، فيرهبوهم ويقيموا لهم شأنًا، وهذا ما حدث في الغزوة، فلم يخرج الروم لقتال المسلمين ولم يواجهوهم، ولم يكن قصد إرهاب الكفار قاصرًا على الروم وحسب؛ بل امتد ليشمل القبائل المتنصرة المتحالفة معهم.

والملاحظ أن هذه الغزوة مع سابقتها (مؤتة) كانت متوجهة لقتال الروم بعد إخضاع الجزيرة العربية لسلطان الإسلام

(١) تاريخ دمشق، ابن عساكر ١/ ٧٩، دلائل النبوة، البيهقي ٥/ ٢٥٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٠٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٠٣، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٧٧٧.
(٤) أخرجه البخاري تعليقًا عن ابن عمر، كتاب الجهاد والسير باب ما قيل في الرماح، ٤/ ٤٠، ووصله أحمد في مسنده ٤/ ٥١٥.
(٥) جامع البيان ١٢/ ٨٥.

وفتح مكة ودخول كثير من العرب في الإسلام، وكذلك بعد انتهاء خطر اليهود من الجزيرة وإخلاء آخر معاقلهم في خيبر بعد الفتح، فجاءت هذه المرحلة الجديدة تمهيدًا لفتوح إسلامية تدك معاقل الرومان في شبه الجزيرة العربية وما حولها، واستجابة للأمر الإلهي في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[التوبة:٢٩].

قال الطبري: «وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره بحرب الروم، فغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزولها غزوة تبوك»[١].

ومن أسباب الغزوة أيضًا: إدخال الرعب في قلوب القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام في جزيرة العرب، والقبائل العربية المتنصرة الخاضعة لنفوذ الإمبراطورية الرومانية، والتابعة لها، وإتاحة الفرصة لها للتفكير في أهمية الدين الإسلامي جديًّا، وأنه ليس من الأمور التي تعلو سطح الماء ثم تغيب، وأن له مستقبلًا زاهرًا، لعل ذلك يفتح لها الطريق في الدخول في الإسلام، الذي ظهر في أرضهم وبلادهم[٢].

(١) المصدر السابق ١٤/ ٢٠٠.
(٢) السيرة النبوية، الندوي ص٤٨٦.

موقف المؤمنين في الغزوة

كانت غزوة تبوك ميدانا للمنافسة واختبارًا شاقًا يتمحص به إيمان المؤمنين ويظهر صدقهم، وقد تعددت المواقف الإيمانية العظيمة في هذه الغزوة والتي نجملها فيما يأتي:

أولًا: الاستجابة للأمر بالنفير:

لقد تفاوتت درجات الناس في هذه الغزوة، فكان منهم السابق بالخيرات بإذن الله، وهم المؤمنون الصادقون الذين خرجوا استجابةً للأمر الإلهي بالنفير.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[التوبة:٣٨].

وفي الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين وحث لهم على الخروج للقتال، وفي ﴿مَا لَكُمۡ﴾ استفهام يفيد معنى التوبيخ والعتاب واللوم لمن تثاقل عن الجهاد، واللفظة «تمثل الجسم المسترخي وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل»[٣].

والاستفهام في: ﴿مَا لَكُمۡ﴾ للإنكار والتوبيخ، وكيف يرضى بالدنيا من رضي بالله ربا؟ وما متاع الدنيا بجوار الآخرة إلا

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٦٥٥

كغمسة الأصبع في البحر المتلاطم الأمواج فماذا تأخذ وبم ترجع؟!

وقوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة:٣٩].

يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أصحاب رسوله متوعدًا لهم على ترك النفير إلى عدوهم من الروم: إن لم تنفروا أيها المؤمنون إلى ما دعاكم إليه نبيه صلى الله عليه وسلم يعذبكم الله عذابًا موجعًا، ويستبدل الله بكم نبيه قومًا غيركم ينفرون إذا استنفروا ويجيبونه إذا دعوا، ولا تضروا الله بترككم النصر شيئًا؛ لأنه لا حاجة إليكم، بل أنتم أهل الحاجة إليه، والله على إهلاككم واستبدال قوم غيركم بكم وعلى كل ما يشاء من الأشياء قدير[(١)].

ثم تذكرهم الآية بموقف مر على حصوله تسع سنين، لم يذكره القرآن ولم يعقب عليه من قبل طيلة هذه المدة، على خلاف العادة القرآنية في التعقيب المباشر على الحدث، يدخر القرآن التعقيب على هجرة الرسول وصاحبه وإخراجهما من مكة إلى أن يأتي الأوان؛ لتذكر هذا الحدث العظيم، وذلك لتشابه المقدمات والأسباب، فالأسباب البشرية ضعيفة والظروف عصيبة وشديدة، ولكن متى كانت هذه الملابسات تفت في عضد المؤمنين؟!

إن التأييد الإلهي الذي حدث عند إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة وهما اثنان لا ثالث لهما إلا الله لهو قابل للتكرار في غزوة تبوك، فتذكروا -إن تراخيتم وتكاسلتم- فقد نصره الله وقت أن أخرجه الكفار هو صاحبه وهما في الغار ويطمئن النبي قلب أبي بكر بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فأنزل الله السكينة والأمن والاطمئنان وأيدهم بالثقة واليقين وجعل كلمة الذين كفروا السفلى. ودومًا كلمة الله هي العليا وهو سبحانه الغالب الذي يدبر الأمور بحكمته سبحانه.

ثم تأمر الآيات المؤمنين أن ينفروا إلى غزاة تبوك على كل حال من الخفة والثقل «ومعنى الخفة والثقل هنا مستعار لمن يمكنه السفر بسهولة ومن يمكنه بصعوبة»[(٢)]، فيشمل الغني والفقير والشيخ والصغير ونحو ذلك.

وتأمرهم الآيات بالجهاد وإنفاق الأموال والأنفس رخيصة في سبيل الله، وقدم الأموال إذ هي أول ما يحتاجه المجاهد وقت التجهيز والإعداد للغزو، ثم شوقهم إلى ثواب ذلك وعظيم فضله فقال: ذلكم خير عظيم لكم إن كنتم تعلمون أنه خير.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٥١.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٧.

وفي موضع آخر من السورة جاء الثناء على المؤمنين في استجابتهم لأمر رسول الله وذلك في قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٨- ٨٩].

وقد جاءت الآية الكريمة بعد الحديث عن مواقف المنافقين وعدم خروجهم للجهاد، فهم لم يجاهدوا، لكن الرسول والذين آمنوا معه وكانوا ملازمين له فلم يتخلفوا عنه جاهدوا بأموالهم فأنفقوها وجاهدوا بأنفسهم فقدموها وبذلوها في مرضاة الله، فأولئك لهم الخيرات وهي جمع خيرة وتشمل كل خير في الدنيا والآخرة، وهم المفلحون فلاحًا حقيقيًّا، وأعظم الفلاح ما أعده الله لهم من جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها لا يموتون ولا هم عنها يتحولون وأعظم به من فوز وفلاح في الدنيا والآخرة!

ومن جزائهم الحسن أيضًا في السورة ما ورد في قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

فقد تاب الله على نبيه صلى الله عليه وسلم، والتوبة معناها الرجوع، وهي في حق النبي صلى الله عليه وسلم رجوع من حال طاعة إلى أكمل منها، فقد رجع صلى الله عليه وسلم من حاله قبل تحصيل الغزوة وتحمل مشاقها إلى طاعة أكمل منها بعد ذلك، ويحتمل أن يكون جدد التوبة من غير أن يكون هفوة، ويكون لذلك حكم التجديد أو الثبات كسؤال الهدى وهم على الهدى، أو رده من حالة الغفلة إلى حالة الذكر[(١)].

وكذلك تاب الله على المهاجرين والأنصار الذين خرجوا فلم يتثاقلوا ولم يخالفوا، بل اتبعوه صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة الشديدة العسيرة من بعد ما كاد قلب بعضهم أن يزيغ كأبي خيثمة، لكن الله عصمهم ثم قبل توبتهم، إنه سبحانه صاحب الرحمة السابقة والمستقبلة، وافتتح بالتوبة واختتم بها فهي: «نهاية كل عارف، وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهي نهاية فجعل الله سبحانه التوبة عليهم شكرانًا لما تقدم من تلك الأعمال وذلك الجهاد»[(٢)].

وإذا كان المعذرون قد اعتذروا ليؤذن لهم، فإن المؤمنين ما كان لهم أبدًا أن يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٩٢، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/ ٥٠٣، أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٥٩٥.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٤٠٣.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١].

فلم يكن لساكني المدينة ولا لمن سكن حولها من أهل البوادي والأعراب أن يتأخروا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فيطلبوا ويرغبوا نفع أنفسهم بالأمن والدعة والراحة دون نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيتركونه في الحر والمشقة.

قال الزمخشري: «أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علما بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، ولايكترث لها أصحابها ولايقيموا لها وزنًا، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلًا عن أن يربؤوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهي بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية»[(١)].

وعلل النهي ببيان أنهم لا يصيبهم عطش ولا تعب بدن ولا شدة جوع في سبيل مرضاة الله، ولا يضعون أقدامهم موضعًا يغيظ الكفار ولا يصيبون من الكفار أي إصابة في أنفسهم أو أموالهم قليلة كانت أو كثيرة إلا كتبه الله لهم عملًا صالحًا، فهو سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ولا ينفقون نفقة في سبيل الله صغيرة ولا كبيرة ولا يتجاوزون واديًا في طريقهم إلا كتب لهم ليجزيهم بقدر عملهم ويزيدهم حتى يصير الثواب أحسن من عملهم، أو ليجزيهم الأحسن من أعمالهم.

وفي هذه الغزوة العظيمة نماذج طيبة لحرص الصحابة على عدم التخلف ومن أمثلة ذلك:

❁ **موقف أبي خيثمة رضي الله عنه:**

يقص أبو خيثمة موقفه في غزوة تبوك فيقول: (تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، حتى مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخلت حائطًا، فرأيت عريشًا قد رش بالماء، ورأيت

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٢١.

زوجتي، فقلت: ما هذا بالإنصاف، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السموم والحميم، وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح فاحتقبته، وإلى تميرات فتزودتها، فنادت زوجتي: إلى أين يا أبا خيثمة؟ فخرجت أريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كنت ببعض الطريق لحقني عمير بن وهب الجمحي، فقلت: إنك رجل جريء، وإني أعرف حيث النبي صلى الله عليه وسلم، وإني رجل مذنب، فتخلف عني حتى أخلو برسول الله صلى الله عليه وسلم، فتخلف عني عمير، فلما اطلعت على العسكر، فرأى الناس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**كن أبا خيثمة**)، فجئت فقلت: كدت أهلك يا رسول الله، فحدثته حديثي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرًا، ودعا لي)[(١)].

وفي القصة سرعة رجوع أبي خيثمة ولومه لنفسه على التأخير، وجلده على تحمل مشاق الطريق مع قلة الزاد وبعد الشقة، وفيها معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه الكرام وصدق فراسته فيهم.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٦/ ٣١، رقم ٥٤١٩، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/ ٢٢٣.
وإسناده ضعيف، وأصل القصة في الصحيحين في حديث توبة كعب بن مالك.

❁ موقف أبي ذر رضي الله عنه:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك جعل لا يزال يتخلف الرجل فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: (**دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه**) حتى قيل: يا رسول الله، تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه**).

فتلوم أبو ذر رضي الله عنه على بعيره فأبطأ عليه، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره، فخرج يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشيًا، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض منازله، ونظر ناظر من المسلمين، فقال: يا رسول الله، هذا رجل يمشي على الطريق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**كن أبا ذر**) فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده**)[(٢)].

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب المغازى والسرايا، ٣/ ٥٢، وصححه وقال الذهبي: فيه إرسال، وهو عند ابن إسحق في السيرة ٢/ ٥٢٣.

وفي القصة وضوح أسلوب الحسم النبوي في هذه الغزوة، وهذا واضح في كل أمورها، فلم يعط صك الأمان والخيرية لأحد، بل كانت الخيرية منوطة بالخروج وحسب، أما من لم يخرج فقد أراح الله منه عباده ووكل بالجهاد قوما يحبهم ويحبونه، وفي القصة تتجلى عزيمة أبي ذر رضي الله عنه وصبره الجميل على تحمل وعثاء الطريق ماشيًا حاملًا متاعه على ظهره، وبالها من مشقة تهون بمعرفة البشارة النبوية الكريمة له.

ثانيًا: المسارعة بالإنفاق في سبيل الله:

جاء تقديم الجهاد بالمال على النفس في سورة التوبة في خمس آيات هي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[التوبة: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٤١].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[التوبة:٨١].

وقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾[التوبة: ٨٨][1].

وما ذاك إلا لأهمية المال، فهو عصب الجهاد، وبذل المال مقدمة لبذل النفس، فمن هان عليه ماله هانت عليه نفسه، قال مسلم بن الوليد[2]:

يجود بالنفس إن ضن البخيل بها
والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ودائرة الجهاد بالمال ربما تكون أوسع من دائرة الجهاد بالنفس، إذ هي متاحة لكل رجل وامرأة، وبالقليل والكثير، فالنفقة الصغيرة مكتوبة ولن يضيع عند الله أجرها.

وقد حفلت غزوة تبوك بصور رائعة للإنفاق في سبيل الله ومن ذلك:

- إنفاق أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

وقد تحدث عنه عمر رضي الله عنه فقال: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق فوافق ذلك عندي مالًا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أبقيت لأهلك؟) قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: (يا أبا

(١) وفي أربعة مواطن أخرى في القرآن: في النساء آية ٩٥، والأنفال آية ٧٢، والحجرات آية ١٥، والصف آية ١١ .
(٢) شرح ديوان المتنبي، العكبري ٣/ ٣٩.

بكر ما أبقيت لأهلك؟) قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبدًا)[(١)].

وهذا دليل عمليٌّ على استحقاقه منزلة الصديقية، فهي من كمال التصديق، والصدقة برهان على كمال الإيمان فكيف بالتصدق بكل المال؟! قال ابن تيمية: «فكان ما فعله عمر من المنافسة والغبطة المباحة، لكن حال الصديق رضي الله عنه أفضل منه، وهو أنه خالٍ من المنافسة مطلقًا لا ينظر إلى حال غيره»[(٢)].

* **إنفاق عمر رضي الله عنه:**

من نص الرواية السابقة نعلم أنه أخرج نصف ماله، وقد جاء تقدير ذلك في بعض الروايات عن عبد الله بن عباس فقال: وأنفق عمر مائة أوقية[(٣)].

* **إنفاق عثمان رضي الله عنه:**

كانت نفقة عثمان في هذه الغزوة أعظم النفقات.

قال ابن إسحاق: «وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها»[(٤)].

وقد وردت في ذلك روايات عدة أجتزئ منها ما ورد عن عبد الرحمن بن سمرة قال: (جاء عثمان بن عفان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار في ثوبه، حين جهز النبي صلى الله عليه وسلم جيش العسرة، قال: فصبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم، يقلبها بيده، ويقول: (ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم) يرددها مرارًا)[(٥)].

وعن عبد الرحمن بن خباب السلمي، قال: (خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحث على جيش العسرة. فقال عثمان بن عفان: عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم حث. فقال عثمان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث. فقال عثمان بن عفان: عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقول بيده هكذا يحركها. وأخرج عبدالصمد يده كالمتعجب: (ما على عثمان ما عمل بعد هذا)[(٦)].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك، رقم ١٦٧٨، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب أبي بكر الصديق، رقم ٣٦٧٥.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١١٧.

(٣) تاريخ دمشق، ابن عساكر ٢/ ٢٨.

(٤) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٥١٨.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤/ ٢٣٢، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان، رقم ٣٧٠١.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٧/ ٢٤٧، والترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في مناقب عثمان رقم ٣٧٠٠.
قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث السكن بن المغيرة.
ومعنى بأحلاسها وأقتابها: بأكسيتها.
انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير

❁ **من إنفاق باقي الصحابة:**

أنفق عبد الرحمن بن عوف كثيرًا من ماله فقد ورد أنه جاء بأربعة آلاف درهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله مالي ثمانية آلاف، جئتك بأربعة آلاف، فاجعلها في سبيل الله، وأمسكت أربعة آلاف لعيالي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**بارك الله فيما أعطيت، وفيما أمسكت**)(١).

وجاد كلٌّ بما عنده، ولم يك أمر الإنفاق قاصرًا على الرجال فقط بل شارك فيه النساء بقوة.

روى الواقدي عن أم سنان الأسلمية قالت: «لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة رضي الله عنها فيه مسك، ومعاضد، وخلاخل وأقرطة وخواتيم، وخدمات، مما يبعث بها النساء يعن به المسلمين في جهازهم. والناس في عسرة شديدة»(٢).

إن مواقف الشدة هي التي تبين أقدار العظماء، ولما كانت غزوة تبوك في حالٍ من العسرة والضيق فإنها بينت بصدق معادن أولئك الصنف من الناس الذين تهون عليهم في المعالي أموالهم فيبذلونها ابتغاء وجه الله الأعلى.

١/ ٤٢٤.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٩١.

(٢) انظر: مغازي الواقدي ٢/ ٦٣٧.

ثالثًا: موقف الفقراء:

أنفق كثير من الصحابة كما أسلفت، لكن العدد كبير، والنفقة قاصرة، وليس في الإمكان في هذا الأوان سوى ما كان، فتخلف جمع من الصحابة، ما حبسهم إلا العذر والفقر، أرادوا الجهاد فلم يجدوا نفقة فأنفقوا الدمع ساخنًا أسفًا منهم على فوات نصيبهم من مقارعة الكفار، فأنزل الله في شأنهم قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١- ٩٢].

وقد رفعت الآية الكريمة الحرج عن ثلاثة أصناف من المؤمنين:

أولهم: الضعفاء وهم أصحاب الأمراض المزمنة التي يصعب معها الجهاد والذين هم ضعفاء في أصل خلقتهم ونحوهم الصبيان والنساء.

وثانيهم: المرضى الذين بهم علة تحول بينهم وبين الخروج للجهاد.

أما الصنف الثالث: فهم الذين لا يجدون الزاد والراحلة؛ كي يخرجوا للجهاد مع

المؤمنين، قيل: هم من مزينة وجهينة وبني عذرة[(١)].

وكل هؤلاء ومن كان على شاكلتهم ليس عليهم من إثم أو حرج طالما كانوا ناصحين لله ورسوله، والنصح «تحرِّي فعل أو قول فيه صلاح صاحبه وهو من الإخلاص والإحكام»[(٢)].

فيكون المعنى: لا حرج ولا لوم على هؤلاء إذا أخلصوا لله تعالى في الإيمان ولرسوله صلى الله عليه وسلم في الطاعة والانقياد وهذا نصح العمل، ونصح القول بأداء واجب النصيحة، فهي من مهمات الدين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(الدين النصيحة. قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)**[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ لرفع الحرج عنهم؛ لأنهم حينئذ من أهل الإحسان، وما على المحسنين من سبيل «أي: لا يمر بهم العتاب ولا يجوز في أرضهم فما أبعد العتاب عنهم، وهو جار مجرى المثل»[(٤)].

ثم يأتي تذييل الآية بأن الله ذو المغفرة والرحمة التي وسعت كل شيء، ولا ينفك عن الاحتياج لها قادر أو عاجز.

ومن هؤلاء من تصدق بصدقة عجيبة غير مسبوقة، وهو علبة بن زيد الذي خرج من الليل فصلى ما شاء الله ثم بكى، وقال: **(اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جسد أو عرض، ثم أصبح مع الناس. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أين المتصدق في هذه الليلة؟) فلم يقم أحد، ثم قال: (أين المتصدق في هذه الليلة؟ فليقم ولا يتزاهد ما صنع هذه الليلة) فقام إليه فأخبره. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أبشر فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة)**[(٥)].

لقد شغله أمر البذل والتضحية، ولم يكتف بإراقة الدمع، بل قام خاليًا وتفتق ذهنه عن أمر رآه في مكنته، فبذل عرضه صدقة بينه وبين ربه، فتقبلها ربه، ونزل الوحي بذلك وأتته البشرى في فلق الصباح.

(١) انظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ٢/ ١٦٥، الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٠٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب ص ٨٠٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، عن تميم الداري، رقم ٥٥، ١/ ٧٤.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٥/ ٣٤٦.
(٥) انظر: الروض الأنف، السهيلي ٧/ ٤٠١، الإصابة، ابن حجر ٤/ ٤٥٠.

موقف المنافقين في الغزوة

لقد تعددت مواقف المنافقين في هذه الغزوة، وسوف أذكرها مع التعقيب القرآني عليها وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: استئذان المنافقين للقعود عن الجهاد:

بعد أن أمر الله المؤمنين بالجهاد ورغبهم فيه، وعنف من تثاقل عن الداعي التفت الخطاب القرآني إلى المنافقين بصيغة الغيبة تنزيها عن خطابهم بصورة الحاضر، فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: ٤٢].

أي: لو كان ما تدعوهم إليه أمرًا من أمور الدنيا التي هي سهلة المنال قريبة المأخذ، أو سفرًا هيِّنًا غير شاق؛ لأسرعوا في اتباعك والسير وراءك.

ولكنهم يؤثرون السلامة ويرون أن الشقة بعيدة عليهم، وما عرفوا أن مصيبتهم الكبرى ليست في بعد الطريق أو شدة الأمر، ولكن مصيبتهم الكبرى في نفوسهم التي زينت لهم القعود والركون، فلو فارقوا أنفسهم الأمارة خطوة لسهل عليهم كل أمر.

وما كان هؤلاء المنافقون ليفارقوا أنفسهم وراحتها إلى الجهاد وتبعاته؛ لأنهم لا يحركهم إلا المغنم العاجل، وهذا النموذج البشري موجود بكثرة، نموذج أولئك الذين يكثرون عند الطمع ويقلون ويفرون عند الفزع، وما ينكشف أمرهم إلا عند حلول البأس.

وإنهم ليتذرعون بالحجج الباطلة فيرهنون أمر الجهاد بالاستطاعة. وقد سجل القرآن هذا الأمر عليهم قبل أن يقولوه: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ليس لدينا من مال أو صحة أو زاد أو راحلة، أي حجة أو عذر، المهم أن لا يهلكوا أنفسهم بالقتال. وما درى هؤلاء أن الهلاك الحقيقي بترك الجهاد بالحلف الكاذب كما قال صلى الله عليه وسلم: (اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع)[(١)].

وليس أمرهم بخاف على ربهم، فهو سبحانه يعلم أنهم مستطيعون وما منعهم إلا نفاق قلوبهم.

ثم تتوجه الآيات بالخطاب إلى النبي وتبدأ بهذا الخطاب الرقيق: ﴿عَفَا اللَّهُ

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه ١٠/ ٣٥ عن أبي هريرة.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٥٠، رقم ٥٣٩١.

وبلاقع: جمع بلقع وهي الأرض القفر التي لا شيء بها،يريدأن الحالف بها يفتقر ويذهب ما في بيته من الرزق.

انظر: النهاية، ابن الأثير ١/ ١٥٣.

﴿عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وفيه بيانٌ لفضيلة النبي صلى الله عليه وسلم وكرامته على ربه، حيث بدأ بالعفو قبل المعاتبة.وقيل: هي افتتاح كلام كما تقول: أصلحك الله وأعزك الله. وعلى هذا فلا يكون في الآية أي عتاب[(١)].

والذي يقتضيه النظر الصحيح للآية، أن الإذن للمنافقين في التخلف لم يكن محظورًا قبل الآية حتى يكون فيه مخالفة، بل كان أمرًا متروكًا إلى الاختيار كما نقل القاضي عياض: «كان مخيرًا في أمرين، وقد كان له أن يفعل ما شاء فيما لم ينزل عليه فيه وحي»[(٢)] فليس في الإذن ذنب، بل غايته أنه اجتهاد فيما لا نص فيه، وهذا جائز في حق الأنبياء، فقد نص علماء الأصول على جواز الاجتهاد في حق الأنبياء فيما لا نص فيه، لكن الوحي يصوب لهم اجتهادهم، ولا ضير في ذلك[(٣)].

وقد أوضحت الآية الحكمة في عدم الإذن لهم: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ وحتى للغاية، أي: هلا تأنيت إلى أن يظهر لك الصادق في إيمانه وفي وعده من الكاذب.

قال ابن عباس: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين يومئذ[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ استئناف بياني قصد به إظهار الفرق بين المؤمن والمنافق، فالمؤمن لا يستأذن في الخروج للجهاد بل دأبه المبادرة والمسارعة دومًا. كما ورد في الحديث: (من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه)[(٥)].

فالمؤمن الحق يخرج إلى الجهاد ولا يحتاج إلى استئذان، قال صاحب الكشاف: «وكان الخلص من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي صلى الله عليه وسلم أبدًا في الجهاد، ولنجاهدن أبدًا معه بأموالنا وأنفسنا»[(٦)].

وإذا كان المؤمنون لا يستأذنون في القيام بالجهاد، فإنهم لن يستأذنوا في تركه من باب أولى.

وفي مقابل هؤلاء المؤمنين جاء ذكر

(١) انظر: الهداية، مكي بن أبي طالب ٤/ ٣٠١٢.
(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٢/ ١٥٨.
(٣) انظر: المستصفى، الغزالي ص٣٥٩، شرح التلويح على التوضيح، التفتازاني ٢/ ٢٣٩.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٥٥.
قال رشيد رضا في المنار ١٠/ ٤٠٤: والظاهر أن مراده لم يكن يعرفهم كلهم، ويعرف شؤونهم بمثل ما في هذه السورة من التفصيل.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط، رقم ١٨٨٩ عن أبي هريرة مرفوعًا.
(٦) الكشاف ٢/ ٢٧٥.

المنافقين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، والذين يحرصون على الاستئذان في ترك الجهاد والغزو، فوصفهم الله بعدم الإيمان، لأن الإيمان هو الباعث المحرك للنفس.

ثم بينت الآيات الكريمة أن المنافقين ما كانوا بذوي أعذار؛ لأنهم لم ينووا الخروج أصلًا، ولو نووا الخروج لأعدوا له عدة، والعدة أولًا عدة نفسية بالتهيؤ وصدق العزم، ثم عدة عسكرية تشمل كل ما يحتاجه المجاهد من مؤن وسلاح، وكان منهم عبد الله بن أُبي، وعبد الله بن نبتل، وأوس بن قيظي، ورفاعة بن التابوت، وغيرهم كما ورد عن مجاهد[1]، وقد كانوا ذوي مال وبأس، ولن يعجزهم إعداد العدة، لكنهم ما أرادوا وما خرجوا.

لم يخرج هؤلاء المنافقون بل ثبطهم الله وكسلهم وثقل عليهم الخروج لكراهة انبعاثهم، وقيل لهم: ﴿فَاقْعُدُوا﴾. والقائل: يحتمل أن يكون قول بعضهم لبعض، ويحتمل أن يكون من قول الرسول صلى الله عليه وسلم غضبًا عليهم، ويحتمل أن يكون من قول الشيطان لهم بالوسوسة، أو من قول الله تعالى أو هو خذلان أوقعه الله تعالى في قلوبهم[2].

والقاعدون هم الذين تخلفوا بعذر كالنساء والأطفال، وفي لفظ: ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ زيادة مذمة لهم بإلحاقهم بهذه الأصناف التي لا تخرج ولا يطلب منها خروج.

فإن قيل: إذا ما كان الأمر كذلك، فلم عوتب النبي صلى الله عليه وسلم على إذنه لهم بالقعود، ولا فائدة في خروجهم أصلًا؟

وللجواب نقول: لا شك أن المفسدة تحصل بخروجهم مع الجيش، لكن وجه العتاب كان للإذن قبل أن ينكشف أمرهم انكشافًا تامًّا، فقد كانت المصلحة تقتضي عدم الإذن لهم حتى يظهر الصادق من الكاذب[3]. هذا هو الوجه.

أما خروجهم فلا فائدة منه أصلًا، بل إنه كما قال ربنا: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:٤٧].

أولها: أنهم لن يزيدوا الصف المسلم شيئًا من القوة أو العزة، بل يزيدونكم خللًا في النظام واضطرابًا في الرأي، وفسادًا في القتال، فوجودهم لا خير فيه، والاستثناء على هذا الوجه متصل؛ لأنه مستثنى من أعم الأشياء[4].

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٨٤.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٨، حاشية الشهاب على البيضاوي ٤/ ٥٧٦.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٦.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٧٦، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٤١٤.

والمفسدة الثانية المترتبة على خروجهم: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي: لأسرعوا في السعي بالنميمة وتفريق الصف، وتخذيل المجاهدين، وبث الأراجيف والتخويف من العدو،ويبغونكم الفتنة يعني: يطلبون لكم ما تفتنون به عن الخروج إلى الغزو. وفيكم من الضعاف الذين يكثرون من سماع كلامهم ويتأثرون بهم فتضعف همتهم عن القتال، يقول قتادة: وفيكم من يسمع كلامهم[1]. وتفسير السماع بالتأثر والقبول هو ما عليه جمهور المفسرين[2].

ثم تختتم الآية بهذا الوعيد والتهديد لهم: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فهو سبحانه عالم بدخائل نفوسهم مطلع عليها وسيجازيهم عليها، وهل الظالمون هنا المنافقون فقط أم المنافقون والسماعون؟ الظاهر الأول ولعله يشمل الثاني.

وليس هذا الفعل بجديد عليهم، فقد أرادوا وحاولوا التخذيل من قبل وذلك في غزوة أحد، فعندما وصل المسلمون إلى موضع بستان بين المدينة وأحد يسمى الشوط انسحب عبد الله بن أبي بثلاثمائة من المنافقين قائلًا: أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا؟[3].

وكان مقصده من ذلك زلزلة الصف المسلم، حتى كادت طائفتان من المسلمين أن تفشلا وهما بنو سلمة وبنو حارثة وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[آل عمران:١٢٢].

وقوله: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ يعني: أنهم أعملوا الحيل والمكايد، ودبروا الأمور وقلبوها على كل أوجهها، وحاولوا بكل جهدهم أن يفشلوا أمرك، ولكن الله أخزاهم؛ فجاء الحق وفتحت مكة وتم النصر وظهر دين الله وهم كارهون.

وبعد أن ذكرت الآيات السابقة موقف المنافقين من الجهاد واستئذانهم ومفاسد خروجهم على وجه الإجمال، جاءت هذه الآيات لتفصل القول في مواقفهم التي قاموا بها قبل الغزوة وأثناءها. وتذكر أمثلة عملية لأعذارهم الكاذبة في التخلف عن الجهاد.

عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لجد بن قيس: **(يا جد هل لك في جلاد بني الأصفر؟)** قال جد: أتأذن لي يا رسول الله؟ فإني رجل أحب النساء، وأخشى إن أنا رأيت نساء بني الأصفر أن أفتتن. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عنه: **(قد أذنت**

وأبو حيان يوجه اتصال الاستثناء بأنه كان في الغزوة منافقون ولهم خبال فلو خرج هؤلاء لزاد الخبال.

انظر: البحر المحيط ٥/ ٤٩.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٠٢.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤١.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٤.

لك). فأنزل الله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

جاء أحد المنافقين وهو الجد يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم ويذكر عذرًا هو في حد ذاته ذنب فيقول: ائذن لي في القعود وعدم الذهاب ولا تفتني، أي: لا تؤثمني بأمرك إياي في الخروج، وذلك غير متيسر لي فآثم، فإذنك لا يوقعني في الإثم.

وجاء الرد القرآني على شبهته الواهية: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ وألا الاستفتاحية تفيد التنبيه لما يأتي بعدها، والسقوط يفيد معنى الهوي والضياع والتمكن في الوقوع، يقول سيد قطب: «والتعبير يرسم مشهدًا كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون، وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم، وتأخذ عليهم المنافذ والجهات فلا يفلتون، كناية عن مقارفتهم للخطيئة كاملة وعن انتظار العقاب عليها حتمًا جزاء الكذب والتخلف والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير»[2].

إن فتنته الحقيقية ليست في ذهابه إلى بلاد الروم كما زعم، ولكن فتنته في تخلفه، وقبيح اعتذاره، وهذه هي الفتنة التي أصابته قبل أن يذهب. ثم يأتي التهديد القرآني له ولأمثاله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلن يستطيعوا منها فكاكًا ولن يجدوا عنها مهربًا.

ثم تذكر الآيات موقفًا آخر يبين سوء بواطنهم وخبث ضمائرهم ومحبتهم إلحاق الأذى بالمسلمين فيقول تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ والحسنة نكرة في سياق الشرط فتفيد العموم.

وورد في نزولها عن جابر قال: «جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار السوء، يقولون: إن محمدًا وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فساءهم ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾»[3].

ثم يعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم طريق الرد على هؤلاء بقوله: قل لهم يا محمد، لن يأتينا إلا ما قدره الله عز وجل وقضاه في اللوح المحفوظ، واللام تفيد الاختصاص أي: إن هذه الإصابة لصالحنا ولخيرنا. وقوله: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: هو ناصرنا ومتولي أمورنا لا ولي لنا غيره؛ ولذلك فلن نتوكل إلا عليه، ولن نستعصم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ١٨٩ رقم ٩٦٠٠، وله طريق آخر عن ابن عباس عند الطبراني في الكبير رقم ١٢٦٥٤ والأوسط رقم ٥٦٠٠، والبيهقي في الدلائل ٥/ ٢١٣.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٦٤.

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨١٠، رقم ١٠٣٠٦.

إلا بحبله المتين.

ويأتي تلقين الجواب الثاني على ما قام به المنافقون فيقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ وهل للاستفهام وتفيد معنى التقرير، وفيه توبيخ للمنافقين، والمعنى: ما تنتظرون بنا إلا أحد أمرين كل منهما أحسن من العواقب الأخرى ومن عاقبة أمركم: أما أولهما فالنصر والفتح من الله، وفي ذلك عز الدنيا والآخرة. وثانيهما: الشهادة والمنزلة الرفيعة عند الله، ولا أفضل منهما، ولن يأتينا غيرهما.

أما أنتم أيها المنافقون فإنا نتربص بكم إحدى سوأتين: إما أن يأتيكم عذاب من الله في الدنيا فيهلككم كما أهلك الأولين والسابقين، أو يجعلنا الله أداة لقدرته فيهلككم بأيدينا، ولننتظر نحن وأنتم موعود الله بنا وبكم، فنحن على ثقة من نصره سبحانه، قال الحسن: تربصوا مواعيد الشيطان إنا معكم متربصون مواعد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه[1].

ثم تأتي الآيات بعد ذلك لتبين أنه لا فائدة من نفقتهم؛ لأنها بنيةٍ مدخولةٍ ولن يكون مالهم إلا حسرة عليهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: لا فائدة من نفقتكم، فإن أنفقتموها طائعين باختياركم أو مكرهين من رؤسائكم فالأمران مستويان في عدم القبول، فالأمر بالإنفاق بمعنى التسوية.

وقد روي في سبب نزول الآية أن الجد ابن قيس قال: إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن، ولكن أعينك بمالي. ففيه نزلت الآية[2]. لكن السبب ضعيف، وبفرض صحته فالآية تذكر أمرًا عامًّا بصيغة الجمع يصدق عليه وعلى غيره.

وقوله: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: لن يتقبلها منكم رسول الله ويأخذها، ويحتمل: لن يتقبلها الله منكم.

ثم تذكر الآية علة عدم قبول نفقتهم ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ والفسق مطلق الخروج ويراد به الكفر والمعاصي.

والظاهر إرادة المعنى الأول هنا بدليل التفصيل الوارد في الآية التي بعدها ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾.

والمعنى: الذي منع قبول نفقاتهم في أي شيء من الأشياء في هذه الغزوة وفي غيرها ثلاثة أسباب:

أولها: الكفر بالله وبرسوله، ومعلومٌ أن العمل لا يقبل ولا يزكو إلا بالإيمان؛ فلا

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٠٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٠٦.

يتقبل الله إلا من المتقين.

والأمر الثاني: أنهم لا يأتون الصلاة إلا وهم على حال من الكسل والفتور والتراخي، وجاء التعبير بصيغة الحصر للدلالة على أن هذا شأنهم في كل صلاة يصلونها؛ إذ هم لا يرجون بها ثوابًا ولا يخافون عقابًا.

والسبب الثالث: أنهم لا ينفقون إلا وأنفسهم غير راضية؛ فهم يعدون النفقة مغرمًا وبها تنقص أموالهم.

والتعبير بلفظ: ﴿كَٰرِهُونَ﴾ للدلالة على أن مجرد الأمر لهم بالنفقة إكراه لهم، وقد جاء ذكر عدم الصلاة الصحيحة، وعدم الإنفاق الصادق بعد الكفر -وإن كان الكفر وحده سببًا كافيًا لعدم القبول- إشارة إلى أن فعل الصلاة والإنفاق منهم لا يدل على إيمان، وإنما يدل على تمكن النفاق في القلب؛ لأنها صلاة بلا روح ونفقة بلا رغبة، والله أعلم.

وقد كان هؤلاء المنافقون من ذوي السعة في المال، فجاءت الآية على سبيل التعليم للنبي والأمة ألا يعجبوا بكثرة المال والولد، فإنه مصدر شقاء لهم في الدنيا والآخرة ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

والمعنى: لا تظنن أن كثرة المال والولد مصدر سعادة وهناء لهؤلاء القوم، بل هي مصدر شقاءٍ وغمٍّ وهمٍّ وحسرةٍ في الدنيا قبل الآخرة، فقد قضى الله قضاءً لا يرد أن من أحب شيئًا من دون الله عُذِّب به في الدنيا قبل الآخرة، ومن استعز بغير الله أتاه الذل من مبتغاه.

ثم تفضح الآيات دخائل نفوسهم وتبين كذبهم في حلفهم وقولهم إنهم لمن المؤمنين، وتبين أن الذي دفعهم إلى ذلك أنهم قوم يخافون الإخراج من الديار، أو يخافون قتال المؤمنين لهم، فيهرعون إلى الحلف وإلى التأكيد بأكثر من مؤكد أنهم من المؤمنين، وأنهم ينسبون إليهم في الدين وفي طاعة الله والرسول، والحق أنهم ليسوا كذلك ولكنهم يتظاهرون بذلك؛ لأنهم قوم يفرقون.

وتأتي الآية التي تليها لتفصل فرقهم وشدة جزعهم وخوفهم، وأنهم لو وجدوا مكانًا حصينًا أو كهفًا في جبل، أو مغارة وسربًا تحت الأرض لفرُّوا إليها مسرعين لا يلوون على شيء، وما ذاك إلا لتماديهم في كراهيتكم وكراهية المعيشة معكم؛ ولفرقهم من اكتشاف نفاقهم. وفي الآية تصوير بليغ لموقف نفوسهم، وحركة أبدانهم وإسراعهم نحو التخفي، وهم على شر حال من الذعر والجبن والفزع حتى لكأنك تتمثل موقفهم هذا كالعيان أمامك.

ثانيًا: تثبيط المنافقين للمؤمنين عن الخروج للجهاد:

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧)﴾ [التوبة: ٨١- ٨٧].

روي عن ابن عباس قال: «وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن ينبعثوا معه، وذلك في الصيف، فقال رجال: يا رسول الله، الحر شديد، ولا نستطيع الخروج فلا تنفر في الحر ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ فأمره الله بالخروج»[1].

بينت الآية السابقة أن المنافقين هم أهل الفسق، وجاءت الآيات التي بعدها لتذكر الأدلة العملية على فسقهم ومنها: فرحهم بالقعود وكراهة القتال ثم بينت أن ما فعلوه كان سببًا لعدم خروجهم مع الصف المسلم مرة أخرى.

وقد سجلت الآيات الكريمة ثلاثة مواقف لأهل النفاق:

أولها: فرحهم بالقعود في المدينة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بالمخالفة له، وفي وصفهم بالمخلفين بالبناء للمفعول مزيد ذم وتحقير لهم، فإن الذي خلفهم نفاقهم وشيطانهم وضعف همتهم، وسوء فعالهم وضعف إيمانهم، ويجوز أن يكون المخلف والمثبط لهم هو ربنا ومولانا، ذلك أنه تعالى كره انبعاثهم، أو يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أذن لهم في التخلف، ولفظ مقعدهم يوحي بأسوأ الحالات عند الجهاد وهي حالة القعود، وما فرحهم إلا دلالة على خبث باطنهم.

وثاني الأمور: كراهيتهم الجهاد في سبيل الله، وهذا من العجب، فالجهاد شرف يحبه المؤمن؛ لأنه يرفع درجته عند الله، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٩، تفسير ابن أبي حاتم في التفسير ٦/ ١٨٥٥، رقم ١٠٥٠٤.

(موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود)[1] أرأيت كيف يكون ثواب وقوف ساعة واحدة؟ أفلا يحرك هذا الهمم ويحدو بالأرواح إلى بلاد الأفراح، فإذا كره إنسان الجهاد دل ذلك على أنه ما يؤثر إلا راحة بدنه وحفظ ماله.

وثالثة أثافيهم: أنهم قالوا: -تثبيطًا لأنفسهم وللمؤمنين- لا تخرجوا للقتال في الحر، ويدل ذلك على شدة تبجحهم وغلظة نفوسهم فهم مناعون للخير، أولم يعلموا أن حر جهنم أضعاف أضعاف حر الدنيا؟!

وإذا تحقق لهم شيء من الضحك والفرح بسبب عدم الخروج فإنه ضحك قليل في الدنيا وبكاء كثير في الآخرة[2].

فصيغة الأمر هنا خرجت مخرج الإخبار عن صنيعهم كما يقول جمهور المفسرين، وفائدة لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب، والمعنى: إنكم فرحون في هذه الدنيا وسيكون في الآخرة بكاء شديد.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ جمع في الآية بين صيغة الماضي والمضارع فهم كانوا وما زالوا يكسبون الإثم ويقترفونه.

وإذا كان أمرهم وحالهم كذلك فإنه يلزم أن ينبذوا بعيدًا عن الصف المجاهد إذ لا فائدة منهم؛ لأن الجهاد لا يكون إلا بذوي الهمم العالية الذين يكثرون عند الفزع؛ ولذلك فإن الله يوصي نبيه: إن رجعت إلى المدينة بعد هذه الغزوة وأرادت طائفة منهم أن تستأذنك للخروج فقل لهم: فات أوانه. لن تخرجوا أبدًا.

وقوله: ﴿وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ انتقال من الشاق إلى ما هو أشق منه فإن القتال أشد من الخروج؛ أو لأن الأول موافقة لسؤالهم والثاني أصرح في التأكيد؛ لأن القتال هو موضع بارقة السيوف التي تحتها الجنة، وقيل: بينهما عموم وخصوص إذ ربما يقاتلون العدو بلا خروج كما في الأحزاب[3].

وعلة عدم الإذن لهم مرة أخرى أنهم دعوا من قبل فلم يلبوا، وكانت الحاجة إليهم أمس، فليس لهم بعد ذلك نصيب في الخير، وقد كان أمامهم فرفضوه، ولا يتحمل أمر الجهاد إلا رجال. فليكن مكانهم إذن مع الخالفين الذين لا خير فيهم في دنيا ولا دين.

وإذا كان الشهيد لا يصلى عليه تكريمًا له لأنه قتل في المعركة فإن هؤلاء الذين فروا من المعركة لا يصلى عليهم من باب الإهانة

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٠/ ٤٦٢عن أبي هريرة مرفوعًا.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٢٧، رقم ٦٦٣٦.

(٢) انظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٢/ ١٦٠.

(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢٢٢، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٩٣.

لهم،فجاء النهي الإلهي عن الصلاة عليهم وعن الوقوف على قبرهم لدفنهم والدعاء لهم. ثم عللت الآيات النهي عن الصلاة عليهم والدعاء بأنهم كفروا بالله وبرسوله، وظلوا على عتوهم وخروجهم حتى ماتوا، والآية عامة وإن كان سببها خاصا إلا أنها تشمل من مات منهم ومن سيموت.

وإذا كان التكريم المادي لم يلحقهم فإنهم لن ينالوا كذلك أي تكريم معنوي حتى الإعجاب بهم، وقد سبقت آية قريبة من هذه؛ فإما أن يكون التكرار لتأكيد الأمر وبيان خطورة الإعجاب بهم وبحالهم؛ لأن الفتنة بالمال والولد ليست هينة، أو لأنها نزلت في قوم آخرين.

وأموالهم وأولادهم لا وزن لها في ضمير المؤمن؛ لأنهم كأشباه الرجال وليسوا برجال، فإذا أنزلت سورة كاملة أو بعض سورة تأمرهم بالإيمان بالله وبالجهاد مع رسوله فر أولو الطول ليستأذنوا، وأولو الطول هم أهل الغنى، وهم الملأ المترفون الذين لا يوفقون إلى خير في الغالب، وذلك لأنهم ألفوا معيشة النعيم وغذوا بها.

ثم تسجل الآيات عليهم أنهم لم يكتفوا بالاستئذان وإنما قالوا: دعنا ننعم مع هؤلاء القاعدين من النساء وغيرهم، فرضوا لأنفسهم بالمهانة، فكان جزاؤهم أن طبع الله على قلوبهم فلا يصل إليها خير أبدًا، وتأمل الفرق بين «مع» الأولى والأخيرة، فأمامهم معية الرسول في الجهاد لكنهم تركوها إلى معية القاعدين الخالفين؛ ولذلك فهم لا يفقهون أوامر الله، ولا يفقهون حكمة الجهاد.

ثالثًا: لمز المنافقين للمؤمنين:

ذكرت سورة التوبة أكثر من موقف فيه لمز من المنافقين للمؤمنين، وقد فضحهم الله فيما قالوا وفعلوا ومن هذه المواقف ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾[التوبة: ٦٥- ٦٦].

عن عبد الله بن عمر: (قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا، وأكذب ألسنة وأجبننا عن اللقاء. فقال رجل في المسجد (في رواية الطبري هو عوف بن مالك): كذبت ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك رسول الله ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه متعلقًا بحقب (بحبل) ناقة رسول الله تنكبه الحجارة يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أبالله

وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟) ما يزيده)[١].

والمعنى: لئن سألتهم عما قالوه ليقولن -على سبيل الاعتذار-: إنما كنا نقول ذلك هزلًا لا جدًّا، ولعبًا لا صدقًا وحقًّا، فقل لهم مستنكرًا وموبخًا: أما كان أمامكم غير الله وشرعه وأحكامه لتستهزئوا بها؟ إن العذر أقبح من الذنب؛ فلا لعب ولهو مع أحكام الله ودينه، وليس ثمة إلا الكفر بعد الإيمان، فمن تاب تاب الله عليه، وإلا فهو من المجرمين المعذبين.

ومن جملة لمزهم في الغزوة ما ورد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: ٧٩-٨٠].

عن أبي مسعود قال: لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فعل الآخر إلا رئاء فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾[٢].

لم يكتف أهل النفاق بمنع المال وإنما تعدى بهم الأمر إلى لمز المتصدقين والسخرية منهم، وكان هذا في غزوة تبوك فنزلت الآيات؛ لتبين موقفهم من الصدقة التي تطلب منهم وموقفهم من الصدقة التي يدفعها غيرهم عن طيب خاطر.

لقد ندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الصدقة وحثهم عليها، فجاء كل امرئ بما يستطيع، وقدم عبد الرحمن بن عوف مالًا كثيرًا، وجاء رجل من الأنصار اسمه الحبحاب بمال قليل، وكان هذا طاقته وقدرته، فانتهزها المنافقون فرصة للمز والعيب والطعن على الصحابة، فصاحب الصدقة الكبيرة يتهمونه بالرياء وصاحب الصدقة اليسيرة ينالونه بالأذى: كيف يتصدق وهو محتاج؟ إن الله لغني عن صدقته! ما فائدة صدقته هذه؟ وما درى هؤلاء أن درهمًا واحدًا قد سبق ألف درهم، قال صلى الله عليه وسلم: (**سبق درهم مائة ألف درهم قالوا: وكيف ذلك؟ قال: رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة ألف ورجل ليس له إلا درهمان، فأخذ أحدهما فتصدق به**)[٣].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١١٩، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب الذين يلمزون المطوعين، ٨/ ١٨١، رقم ٤٦٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، ٢/ ٧٠٦، رقم ١٠١٨.

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، ٤/ ٩٩، وابن حبان في صحيحه، ٨/ ١٣٥، والحاكم في

وإفراد: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ وعطفها على ما قبلها من باب عطف الخاص على العام تطييبًا لخاطرهم وتنويهًا بما قاموا به؛ ذلك أن السخرية منهم تكون أشد، فلما اختصوا بمزيد سخرية اختصهم الله بالذكر، وكانت عقوبة هؤلاء الساخرين أن عاملهم الله بجنس ما يستحقون فسخر منهم، ويا لها من سخرية توجب ضياع الدنيا والآخرة.

ولأن ذا القلب الرحيم الرؤوف عليه السلام كان يتألف قلوب الناس ويستغفر لهم ويطيب قلوب أهليهم من المؤمنين، فإن ربه تبارك وتعالى خاطبه، وبيَّن له أن الاستغفار لهم وعدمه سواء، فهذا أمر في معنى الخبر، والمعنى: إن استغفرت أو لم تستغفر فلا فائدة، وقد ورد في القرآن الكريم التسوية بين الأمرين بلفظ الخبر صراحة، قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[المنافقون:٦].

والظاهر أن لفظ أو يحتمل التخيير[(١)].

وهذا ما فهمه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ففي الصحيح عن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك عن أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما خيرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسأزيده على السبعين)[(٢)].

ثم بينت الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم لو زاد على السبعين في الاستغفار لهم فلن تلحقهم مغفرة، وسبب ذلك أنهم كفروا بالله وبرسوله، وما كان الله ليوفق أهل الكفر إلى طاعته والإيمان به ومرضاته، فهم الذين يستحقون ذلك بسبب أفعالهم.

رابعًا: مسجد الضرار:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ

المستدرك، ١/ ٥٧٦. وصححه على شرط مسلم.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٦٤، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٧٦، روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم)، ٨/ ١٨٤، رقم ٤٦٧٠.

﴿ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠].

عن أبي رهم الغفاري قال: أتى من بنى مسجد الضرار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متجهز إلى تبوك، فقالوا يا رسول الله، إنا بنينا مسجدًا لذي العلة والحاجة، والليلة الشاتية والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: (إني على جناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه) فلما رجع نزل بذي أوان على ساعة من المدينة، فأنزل الله في المسجد: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدي، أو أخاه عاصم بن عدي فقال: (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه) ففعلا[(١)].

يمكن أن تكون الآية متصلة بالحديث عن القوم الذين مردوا على النفاق، أي: تمرنوا عليه واستلان لهم، فيكون من جملة كيدهم الخفي بناء مسجدٍ للضرار، وسيكون هدم المسجد من جملة التعذيب الذي يجدونه في الدنيا، ويحتمل أن تكون الآية موصولة الحديث عن مكائد المنافقين عامة وهي كثيرة في السورة.

لقد اتخذ جماعة من بني غنم بن عوف[(٢)] مسجدًا ليصلوا فيه ويتركوا مسجد قباء وقد كان قريبًا منهم، وقد تعللوا بعلل كاذبة لإنشائه، لكن الآيات كشفت سرائرهم.

وبيَّنت أنهم اتخذوه لأربعة أهداف:

أولها: إيقاع الضرر بالمؤمنين؛ وذلك ببناء مسجد بجوار مسجد، ولا فائدة من البناء الثاني.

وثانيها: الإتيان بالكفر، أو تقوية ما هم عليه من الكفر؛ وذلك بتدبير الطعن والمكائد للمسلمين والتشاور في ذلك، وقد يكون كفرهم بالاعتقاد، قال ابن العربي «لما اتخذوا المسجد ضرارًا لاعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قباء ولا لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم كفروا بهذا الاعتقاد»[(٣)].

وثالثها: التفريق بين المؤمنين؛ فقد كانوا يجتمعون في المسجد للصلاة، فتزداد ألفتهم وتجتمع كلمتهم إثر اجتماع قلوبهم وأبدانهم، وهذا مقصد كبير من مقاصد صلاة الجماعة، فإن تعددت المساجد بلا داع تفرقت الكلمة.

ورابعها: إعداد المكان انتظارًا لوصول أبي عامر الراهب؛ وقد كان من مُتنصِّرة العرب، وقد كان يطمع أن يكون زعيمًا

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق ٥/ ٢١١، السيرة الحلبية، الحلبي ٣/ ١٢٣.

(٢) انظر: تفسير عبدالرزاق ٢/ ١٦٥، جامع البيان ١١/ ١٩، تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ٩٥.

(٣) أحكام القرآن ٢/ ١٠١٣.

في قومه، فلما رأى نصر المسلمين فرَّ إلى المشركين وألبهم على المسلمين، فلما كانت وقعه أحد حاول أن يستزل بعض الأنصار فقال: أنا أبو عامر. فقالوا: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق. فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر. ثم قاتلهم قتالًا شديدًا ورماهم بالحجارة، وظل يقاتل المسلمين في كل حرب حتى يوم حنين فيئس. ثم انقطع وخرج إلى ملك الروم، فوعده بالجند فأرسل إلى قومه أن يبنوا معقلًا يقوم عليهم فيه، ومنَّاهم بجيش يقاتل فيه المسلمين، فبنوا المسجد وأعدوه قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، فكان هذا إرصادهم لمن حارب الله ورسوله من قبل.

عن عبد الله بن عباس قال: «وهم أناس من الأنصار ابتنوا مسجدًا فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فلآتي بجند من الروم فأخرج محمدًا وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة فأنزل الله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1].

ثم يبين القرآن أنهم سيحلفون: أنهم ما قصدوا بالبناء إلا أفضل شيء حسن، وهو التوسعة على المسلمين والمنفعة لهم، وتيسير أمر الصلاة على الضعفاء والعجزة وغيرهم إذا جاء السيل يقطع الطريق ويحول بين الناس وبين الصلاة، أو يكون مقصدهم بالحسنى الجنة؛ أي: ما أردنا بعملنا هذا إلا دخول الجنة، وهذا قول ظاهره الخير وباطنه الشر والسوء، فسجل القرآن عليهم كذبهم، وكشف باطنهم، وكذبهم في قولهم.

ولأن هذا المسجد لم يُبن على أساس من الطاعة، فقد نهى الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصلي فيه؛ وذلك لأن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم تعد تزكية للمكان ولأهله، ولربما ينخدع بذلك بعض الناس، وليس معنى ترك الصلاة فيه أن الصلاة ستتأخر عن وقتها، فها هو الأصل موجود؛ المسجد الذي تأسس على تقوى الله من أول يوم أقيمت فيه الصلاة بالمدينة، وظاهر سياق الآيات ومعرض الحديث أنه مسجد قباء، وعلى ذلك ابن عباس وعروة وقتادة وغيرهم، لكن ورد عن أبي سعيد الخدري قال: (دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ١٩، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٧٨.

الله: ما المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض فقال: (هو مسجدكم هذا) لمسجد المدينة)[١].

وسياق القصة يشهد لمسجد قباء، لكن إذا صح الحديث فلا محيد عنه، وهو كما ترى صحيح، وقد ذهب جمع من العلماء إلى التوفيق، فقال السهيلي: «وليس بين الحديثين تعارض، وكلاهما أسس على التقوى»[٢]؛ فكلاهما مراد من الآية ولا مانع من ذلك؛ فقولك: لرجل صالح أحق أن تجالسه، فلا يقتصر على هذا الشخص فقط.

ثم مدح الله أهل هذا المسجد بأن فيه رجالًا يحبون أن يتطهروا، وقد ورد في بعض الروايات أن المقصود الطهارة الحسية، ولا شك أن الطهارة الحسية دليل على طهارة الباطن وسلامته، فهم يتطهرون من الآثام الحسية والمعنوية؛ لينالوا أعظم ما يفوز به مسلم وهو محبة الله.

ثم تأتي المقابلة بين من بنوا المسجدين وبين بناء المسجدين، والاستفهام للتقرير، والمعنى: أفمن ابتدأ أساس بنيانه على رضوان الله تعالى وابتغاء محبته وجنته خير أم من ابتدأ البنيان على أضعف قاعدة وأهزلها، فهي على حافة منهارة لا تثبت أمام أي نائبة؟ فلا بد أن تكون النتيجة هي الانهيار والبوار والخسار والعار والشنار، كالشجرة الخبيثة ليس لها على الأرض قرار. وهذا مثل عجيب يكشف وضع المنافقين المادي والمعنوي، فهم على أضعف حال.

وهل الآية على سبيل التمثيل لحال المنافقين؟ يحتمل، ولا مانع من إرادة المعنى الظاهر، فيكون الانهيار الذي أصاب بنيانهم الهزيل قد أدى به في النار، وفي ذلك روايات: قال جابر: لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣].

وبنحوه عن قتادة والسدي وسفيان والضحاك وغيرهم، وقد قام بعض أصحاب رسول الله بهدمه بعد نزول الأمر الإلهي، فصلى أهله فيه الجمعة والسبت والأحد فقط، وهُدم يوم الإثنين[٤].

ثم تختتم الآية بسنة الله عز وجل مع أهل الظلم؛ فالله تعالى لا يوفقهم إلى خير ولا يرشدهم إلى طاعة؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بصنائعهم وما اقترفوه.

ويبقى وزر هؤلاء القوم ممتدًّا، وتظل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، رقم ١٣٩٧، ٢/ ٨٣٦.

(٢) انظر: الروض الأنف، السهيلي ٢/ ٢٤٦. وعليه جماعة من المفسرين انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٧٧، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٣٤.

(٣) أخرجه الحاكم وصححه ٤/ ٦٣٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٦٩٧.

معرَّة فعلهم لا تغادرهم، ولا يزال هذا البناء الذي بنوه ريبة في قلوبهم، أي: شكًّا[1] عند بنائه، لخوف انفضاح أمرهم، وشكًّا عند هدمه لظهور نفاقهم أمام الكل، وحزازة في نفوسهم بعد ذلك لن يخرجها إلا تقطع قلوبهم بالموت والهلاك، والله عليم بأحوالهم حكيم في صنعه بهم. وقيل: إلا أن تقطع قلوبهم بالتوبة، وعندئذ يقبلهم ربهم ويعفو عنهم؛ فهو العليم بأحوال عباده جميعًا.

إن ما كان لله دام واتصل، وما كان لغيره انقطع لا محالة وانفصل، ومن فعل أمرًا بنية صالحة زكاه له ربه وبارك فيه، وأعلى قدر ما صنع، أما من عمل عملًا حتى وإن كان ظاهره عمل خير، لكن نيته فيه غير سليمة، فإن عمله سينقلب عليه ويبوء بإثمه ولا يبارك له فيه، وبناء مسجد الضرار ثم هدمه وتحريقه خير شاهد على ما نقول.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[الرعد:١٧].

وفي الآيات إشارة إلى عدم تكثير سواد أهل الكفر والنفاق فلا تحضر مجالسهم ومنتدياتهم، حتى وإن كان ظاهرها الخير، فمن كثر سواد قوم فهو منهم، ولربما ينخدع بعض الناس بمعسول حديثهم فيكون من ذلك فتنة.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٥.

ومن فوائد القصة ما ذكره القرطبي: «كل مسجد بني على ضرار أو رياء أو سمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه»[2]. ومنها: استحباب الصلاة في المساجد المؤسسة على الطاعة، المعمورة بأوتادها من أهل الخير والذكر والصلاح، وأن المسجد لا يمدح بأثاثه أو مفروشاته أو غير ذلك، وإنما يمدح بالرجال الذين يقيمون فيه ويتربون على هديه، وتتعلق قلوبهم وأرواحهم به، وتنطلق تصوراتهم وأفكارهم من خلال هديه ومنهجه.

خامسًا: محاولة قتل النبي صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[التوبة: ٧٤].

ذهب جمع من المفسرين[3] إلى أن الهمَّ الذي لم ينالوه هنا هو محاولتهم قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ورد في هذا

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٥٤.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٩١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٨١.

روايات صحيحة منها ما رواه أحمد عن أبي الطفيل، قال: (لما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أمر مناديًا فنادى: إن رسول الله أخذ العقبة، فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوده حذيفة ويسوق به عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل، غشوا عمارا وهو يسوق برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة: **(قد، قد)** حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل ورجع عمار، فقال: **(ياعمار، هل عرفت القوم؟)** فقال: قدعرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون، قال: **(هل تدري ما أرادوا؟)** قال: الله ورسوله أعلم، قال: **(أرادوا أن ينفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فيطرحوه)**[(١)].

يتعمد المنافقون الحلف الكاذب؛ فيحلفون ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا وهموا بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وتلك جريمة شنيعة سجل القرآن عليهم وزرها وعارها إلى يوم الدين، والعجب العجاب أنهم بادلوا إحسان رسول عليهم بأشد ألوان الإساءة؛ فقد كانوا عالة فقراء لا يجدون مالًا فأغناهم الله بالغنائم وأغناهم رسوله من عطاياه لهم حتى صاروا من أهل اليسار فهل هذا هو ما ينقمون به على الإيمان؟!

(١) أخرجه مسند أحمد في مسنده، ٣٩/ ٢١٠،
قال محققه: إسناده قوى على شرط مسلم.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٩٥:
رجاله رجال الصحيح.

المخلفون عن الغزوة

أولًا: أنواع المخلفين:

لقد تعددت أسباب التخلف عن غزوة تبوك، واختلف الموقف مع كل حالة، وقد أجمل ابن كثير أنواع المخلفين في أربعة أنواع فقال: «كان المتخلفون عن غزوة تبوك أربعة أقسام مأمورون مأجورون، كعلي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة وابن أم مكتوم. ومعذورون وهم الضعفاء والمرضى والمقلون، وهم البكاءون. وعصاة مذنبون، وهم الثلاثة، وأبو لبابة وأصحابه المذكورون. وآخرون ملومون مذمومون وهم المنافقون»[1].

أما النوع الأول فقد ورد في شأنهم أحاديث تبين أنهم تخلفوا بإذن سابق؛ ففي الصحيح: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى تبوك واستخلف عليا فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: (ألا ترضى أن تكون مني في منزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي)[2].

وسنفصل القول في الأقسام الثلاثة الأخرى؛ لأنه قد ورد فيها عظات قرآنية.

١ . المعذورون.

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾[التوبة: ٩١-٩٢].

وقد سبق التعرض للآية عند الحديث عن إنفاق الفقراء وبيان أنه لا حرج على المعوزين ولا لوم،ولا حرج كذلك على من «ملكوا قدر النفقة إلا أنهم لم يجدوا المركوب»[3].

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا بأعينهم تفيض من الدمع حزنًا، وذلك لأجل أنهم لا يجدون ما ينفقون.

لقد أعطى الله من فضله ورسوله قوما من المعوزين فوجدوا حمولة تحملهم ومن هؤلاء الأشعريون الذين روى قصتهم أبو موسى حيث قال: (أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الحملان لهم، إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك فقلت: يانبي الله، إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال:

(١) السيرة النبوية، ابن كثير ٤/ ٥٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، رقم ٤٤١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي، ٤/ ١٨٧٠، رقم ٢٤٠٤.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٢٢.

(والله لا أحملكم على شيء) ووافقته، وهو غضبان ولا أشعر ورجعت حزينًا من منع النبي صلى الله عليه وسلم، ومن مخافة أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وجد في نفسه علي.

فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم، فلم ألبث إلاسويعة، إذ سمعت بلالًا ينادي: أي عبدالله بن قيس، فأجبته، فقال: أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك، فلما أتيته قال: **(خذ هذين القرينين، وهذين القرينين -لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد-، فانطلق بهن إلى أصحابك، فقل: إن الله، أو قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملكم على هؤلاء فاركبوهن)**. فانطلقت إليهم بهن، فقلت: إن النبي صلى الله عليه وسلم يحملكم على هؤلاء)[1].

ولم تكف النفقة أقواما آخرين فعادوا باكين حزنين على فوات نصيبهم من الخير، ولشدة حزنهم وبكائهم عرفوا بهذا الاسم: (البكائين) في كتب التفسير والسير، وقد حفظت الكتب أسماءهم.

قال ابن إسحاق: «البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعلبةبن زيد، أخو بني حارثة، وأبوليلى عبدالرحمن بن كعب، أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن حمام بن الجموح، أخو بني سلمة، وعبدالله بن المغفل المزني-وبعض الناس يقول:بل هو عبدالله بن عمرو المزني- وهرمي بن عبدالله، أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري»[2].

٢. المؤمنون الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة:١٠٢-١٠٣].

هذا نوع آخر من الذين تخلفوا في هذه الغزوة،والآية معطوفة على ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾[التوبة:١٠١].

فهم ليسوا منافقين، ولكنهم قوم مؤمنون استزلهم الشيطان فقعدوا عن الغزو فخلطوا بين العمل السيء وهو ترك الغزو، وبين العمل الصالح وهو التوبة والاعتذار والندم؛ فاعترافهم بالذنب ومعرفتهم قبحه أرجى لقبول التوبة، وهم إن شاء الله أهل لأن يتوب الله عليهم إنه هو الغفور الرحيم.

عن ابن عباس قال: (كانوا عشرة رهطٍ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة، رقم ٤٤١٥.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٥١٨.

تخلفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فلما حضر رجوع النبي صلى الله عليه وسلم، أوثق سبعةٌ منهم أنفسهم بسواري المسجد، فكان ممر النبي صلى الله عليه وسلم إذا رجع في المسجد عليهم. فلما رآهم قال: (من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري؟) قالوا: هذا أبولبابة وأصحابٌ له تخلفوا عنك يارسول الله، وحلفوا لايطلقهم أحد حتى تطلقهم وتعذرهم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم، حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين!) فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله الذي يطلقنا! فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم)[1].

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم من تكاسلهم وتزكي نفوسهم، وهذا علاج قرآني مستمر لكل من خلط بين عمل صالح وغيره، وباب التوبة مفتوح على مصراعيه في سورة التوبة.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٦٥١، تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨٧٢.

٣. المتخلفون من المنافقين.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٣- ٩٦].

ذكرت الآيات السابقة حال القوم المؤمنين الذين لم يجدوا ما ينفقون فأنفقوا الدمع الهتون في سبيل الله، وأمثال هؤلاء معذورون لأنهم لم يجدوا فلا مؤاخذة عليهم، إنما المؤاخذة على الخلي المليء؛ إذ لا عذر له في الحقيقة، وإن اجتهد في تلمس كواذب الأعذار. فجاءت هذه الآيات لتقطع عذرهم، ولتحدث المقارنة بينهم وبين المؤمنين الصادقين.

ما من سبيل على الضعفاء وغير الواجدين؛ لأنهم بذلوا وسعهم ولم يقصروا، إنما المؤاخذة والمعاتبة

والمعاقبة على أولئك الذين يستأذنون في ترك الجهاد وهم ذوو يسار، وليس بهم ما يحول دون الخروج.

ولعل سائلًا يسأل: ما الذي دفعهم إذًا إلى الجبن والنكول؟ فيكون الجواب: ما دفعهم إلى ذلك إلا دناءة نفوسهم، ورضاهم بالدون والمذلة، فسلكوا أنفسهم في مسلك العجزة والنساء والأطفال، وما كان ذلك إلا بسبب خذلان الله لهم، حيث طبع على قلوبهم فلم يعلموا عاقبة الجهاد وفائدته في الدين والدنيا، وتلك نتيجة حتمية للكسل وحسب السلامة والنوم الذي يعقبه اللوم.

ثم ينبئ الله نبيه بما سيصنع هؤلاء المنافقون إذا رجع المسلمون إليهم وفي ذلك إعجاز غيبي بذكر المستقبل ويكشف المخبوء من نفوسهم، فإنهم سيأتون ليعتذروا للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه، وذلك ليكونوا رأيًا عامًا يناصرهم ويغض الطرف عن فعلتهم الشنيعة، لكن الآيات تنبه القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم الذي سيقول الكلمة الفصل في هذا الأمر وتقول له: قل لهم إن اعتذاركم كلا اعتذار، فلا تعتذروا، لأننا لن نصدقكم، لن نؤمن لكم، لن تنطلي علينا خديعتكم، فقد فضحكم الوحي، لقد أعلمنا الله علمًا مؤكدًا بما كان في نفوسكم من السوء والقبح، وسيرى ويعلم عملكم كله الآتي في المستقبل.

وفي هذا إمهال لهم وإغراء بالعودة والإنابة، وبعد ذلك ستعودون إليه، ويومها: سيجازيكم على كل عملكم، وقد عدل التعبير القرآني عن لفظ الجلالة إلى: ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ لكي يعلموا أنه تعالى مطلع على خفيات نفوسهم وفي هذا تهديد لهم،والتنبئة يقصد بها نتيجتها وهي الجزاء على عملهم وجاءت بلفظ الإنباء لتوافق ﴿قَدْ نَبَّأَنَا﴾ وفيه إشارة إلى أنهم قد تخفى عليهم بعض أعمالهم لكنها لا تخفى على الخبير سبحانه.

وقد حدث ما أخبر القرآن؛ فقد أتوا يعتذرون.

ويروي كعب بن مالك في حديثه الماتع موقفهم فيقول: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك جلس للناس فلما فعل ذلك جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله وصدقته حديثي، قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك

الذين كذبوا، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٥ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[1].

ولم يكتف هؤلاء المنافقون بالأعذار المنحولة المفتراة وإنما بالغوا في تأكيدها بالحلف، وقد نبأ القرآن عن ذلك قبل أن يحلفوا، وسيكون حلفهم إذا رجع المسلمون إليهم، وهدفهم من الحلف أن يعرض المؤمنون عن إيذائهم وأن يغضوا الطرف عن فعلتهم.

فيجيء التوجيه القرآني للمؤمنين ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ هم أرادوا إعراض الستر والإغضاء فأعرضوا إعراض البغض والازدراء، والمقت والبغضاء.

وهذا هو الذي يستحقونه؛ لأنهم رجس، فدعوا معاتبتهم؛ إذ المعاتبة لمن تريد أن تستبقي وده أما هؤلاء فلا، لن تطهرهم المعاتبة لأنهم نجس وقذر، فهذا تعليل الإعراض؛ يعني: أعرضوا لأنهم لا فائدة منهم، فقد تلبسوا بالنجاسة المعنوية حتى صارت علمًا عليهم وبالتالي فلن يكون لهم من مأوى إلا نار جهنم وفاقًا بما صنعوا، وقد يحتمل المعنى: أعرضوا عنهم ولا تقتربوا منهم لأنهم رجس إذ الطبع يعدي. والأول أوفق عندي.

وبعد أن حاولوا بحلفهم أن يعرض المؤمنون عنهم فإنهم يحاولون أن يرتقوا مرتقى أصعب ليرضى عنهم المؤمنون، فيحلفون جهد أيمانهم لإرضاء المؤمنين، فإن توهم متوهمهم أن المؤمنين سيرضون عنه فهل يدل هذا على رضا الله؟ كلا وحاشا.

وهناك صنف آخر من المنافقين وهم الأعراب، فقد جاؤوا يعتذرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[التوبة:٩٠].

ولفظ المعذرون يفيد أن عذرهم غير حقيقي.

قال الفراء: «وأماالمعذر على جهة المفعل فهو الذي يعتذر بغير عذر»[2].

فهؤلاء اعتذروا وقبل عذرهم، أما المنافقون فقد قعدوا ومنهم من لم يعتذر؛

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الثلاثة الذين خلفوا، رقم ٤٤١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم ٢٧٦٩.

(٢) معاني القرآن، الفراء ١/ ٤٤٨.

قال أبوعمرو بن العلاء: «كلا الفريقين كان مسيئا: قوم تكلفوا عذرا بالباطل، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ وقوم تخلفوا عن غير تكلف عذر فقعدوا جرأة على الله تعالى، وهم المنافقون فأوعدهم الله بقوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وهذا الوعيد للكفار من كلا الصنفين: المعتذرين والقاعدين.

ولأن سورة التوبة من أواخر السور نزولا فقد بينت مراتب وطبقات المجتمع ومنها طبقة أولئك الأعراب الذين يقيمون في البوادي، فتورثهم هذه الإقامة غلظة في الطباع، إنهم أشد كفرًا ونفاقًا من أهل الحضر في القرى والأمصار، وكانوا أخلق الناس وأولاهم بقلة المعرفة لحدود الله، ومن جنس هؤلاء الأعراب فريق آخر، يرون نفقتهم في الواجبات والمندوبات مغرمًا ثقيلًا ملازمًا لهم لا يستطيعون الفكاك منه، فهم ينفقون ولا يرجون لنفقتهم ثوابًا ولا يخشون بها عقابًا؛ لأنهم مكرهون عليها ولذا فهم يتربصون إصابة المسلمين بمكروه وسوء حتى لا يؤدوا المال.

وتعود الآيات مرة أخرى للحديث عن منافقي المدينة وما حولها بعد الحديث عن منافقي البادية، وذلك ليحذر المؤمنون منهم، فتبين الآيات أن في المدينة منافقين وكذا حولها من أهل الأعراب الذين أسلموا، ومنهم من مرد على النفاق، أي: توطن عليه وصار النفاق لهم سجية وخلقًا وطبعًا حتى لان لهم، وأسروه عن أعين الناس لمهارتهم في التخفي، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الفطن اللبيب ليخفى عليه حال هؤلاء القوم لكن الله عز وجل يعلمهم وسيعذبهم.

ثانيًا: قصة الثلاثة الذين خلفوا:

قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٦].

وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة:١١٨].

نزلت هاتان الآيتان في حديث الثلاثة الذين خلفوا، أما أولاهما فليست صريحة الدلالة عليهم إلا أن جمهور المفسرين على نزولها في شأنهم، وأما الثانية فهي نصٌّ واضح فيهم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾ المعنى: وآخرون من المتخلفين مرجون أي: مؤخرون وهي من الإرجاء أي التأخير

(١) معالم التنزيل، البغوى ٤/ ٨٤.

ومنه: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾[الأعراف:١١١].

أي: أخرهما حتى ننظر في أمرهما. وقد قرئت بالهمزة والتسهيل(١).

وهم مرجئون لأمر الله إما أن يعذبهم الله أو يتوب عليهم،فظل أمرهم معلقا بين الخوف والرجاء، وهو سبحانه العليم بحالهم الذي يفعل أموره كلها على مقتضى الحكمة.وإلى كونها نزلت في الثلاثة الذين خلفوا ذهب جمع من أهل التفسير؛ فهو قول مجاهد، وقتادة والضحاك ومقاتل(٢) ورجحه جمهور المفسرين(٣).

أما الآية الثانية فهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾[التوبة: ١١٧].

والمعنى: لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصاروعلى الثلاثة الذين خلفوا عن الغزوة، حتى ضاقت الأرض بما وسعت عليهم بسبب ندمهم وحزنهم على ما بدر منهم، وضاقت عليهم أنفسهم لما نالهم من الكرب والغم والهم، وأيقنوا أن لا ملجأ لهم من الله إلا إليه، ثم رزقهم الله تعالى الإنابة إليه والرجوع إلى مرضاته إنه هو الموفق عباده للتوبة.

والآية نزلت في كعب بن مالك السلمي وهلال بن أمية الواقفي ومرارة بن الربيع العامري، وجاءت الآية بالخبر المؤكد بأداة القسم (اللام) ودخول حرف التحقيق(قد) على الماضي لتبين عظيم فضله وسابغ نواله وإحسانه على هؤلاء الصادقين الذين كانوا مع النبيصلى الله عليه وسلم، وعطف عليهم هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا، وصيغة:(خلفوا) بالبناء للمفعول، والمعنى إما أن يكون خلفوا عن الغزوة لا نفاقًا بل تكاسلًا، أو خلفوا عن قبول التوبة، فكأنهم خلفوا عن المعتذرين الذين قبل الرسول صلى الله عليه وسلم عذرهم، والثاني: أرجح، لأن (إذا ضاقت) غاية للتخفيف، ولم يكن ذلك عن تخليفهم عن الغزو، وإنما ضاقت عليهم الأرض عن تخليفهم عن قبول العذر»(٤).

وهذا هو الذي نص عليه كعب بن مالك، حيث قال في تفسير الآية، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه»(٥).

---

(١) قرأها بالهمز ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وأبوبكر عن عاصم.وقرأالباقون بدون همز.
انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٤٠٦.

(٢) انظر: تفسير عبدالرزاق الصنعاني ٢/ ١٦٥، وجامع البيان، الطبري ١١/ ٦٧٠.

(٣) ورجحه الفراء في معاني القرآن١/ ٤٥١، والسمرقندي في تفسيره ٢/ ٨٧، والثعلبي في الكشف والبيان ٥/ ٩١.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٩٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم

ثم ذكرت الآية الكريمة أنه بسبب تأخر التوبة حصل لهم ثلاثة أشياء:

أولها: أنه ضاقت عليهم الأرض على اتساعها ورحابتها.

وثانيها: أنه ضاقت عليهم أنفسهم.

وثالثها: أنهم أدركوا يقينا ألا مفر من الله إلا إليه. ثم وفقهم الله لتوبة وقبلها منهم بفضله وجوده وكرمه.

وفي الصحيحين تفصيلٌ من كعب لأحداث التخلف وما بعدها وهو حديث طويل غزير الفوائد وسبق طرف منه، ومن فوائد القصة: لحوق اللوم بكل فرد تخلف، وترك قتل المنافقين، وعظم أمر المعصية، وأن القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف في الدين، وجواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه، وأن المرء إذا لاحت له فرصة في الطاعة فحقه أن يبادر إليها ولايسوف بها لئلا يحرمها، واستحباب بكاء العاصي أسفا على ما فاته من الخير وفيها إجراء الأحكام على الظاهر وفيها عظم مقدار الصدق في القول، وجواز الزجر بالهجر إلى غير ذلك من الفوائد[(١)].

(١) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ١٢٣. ٤٤١٨.

القيادة النبوية في الغزوة

كانت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين الصادقين في تبوك قيادة عظيمة، وقد ظهر أثر هذه القيادة في أمور أوجزها فيما يأتي:

١. الاهتمام بمواطن العبرة عند المرور عليها.

فعن عبدالله بن عمر (أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر قال: **(لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ماأصابهم)** ثم تقنع بردائه وهو على الرحل)[(٢)].

وما ذلك إلا ليأخذ القوم العظة بما حل وأصاب المكذبين قبلهم، ولتكون النفس المؤمنة على وجل من العقوبة الدنيوية، وليفقه القوم حكمة المرور على أماكن العذاب.

٢. الاهتمام بالجند أحياء وأمواتًا.

وتجلى ذلك في قصة ذي البجادين؛ ويرويها عبدالله بن مسعود فيقول: (قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، قال: فرأيت

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (وإلى ثمود أخاهم صالحا)، رقم ٣٣٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهدوالرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم ٢٩٨٠.

شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر وعمر، وإذا عبدالله ذوالبجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرته، وأبوبكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: أدنيا إلي أخاكما، فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه قال: **(اللهم إني أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه)**. قال: يقول عبدالله بن مسعود: ياليتني كنت صاحب الحفرة)[1].

وفيها الاهتمام النبوي بأمر الجنود جميعا، والعناية البالغة بالفقراء المخلصين من الصحابة في حياتهم ومماتهم.

٣. حدبه صلى الله عليه وسلم وحرصه على سلامة أصحابه من أي أذى.

عن أبي حميد قال: (وانطلقنا، حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلايقم فيها أحد منكم فمن كان له بعير فليشد عقاله)** فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيئ)[2].

وفيها من دلائل نبوته: إخباره بالريح قبل هبوبها، وفيها: الحرص البالغ على سلامة الصحابة وتحذيرهم من التعرض للهلاك.

٤. أسلوب الحزم والجدية.

ويتضح ذلك في الغزوة من مواقف متعددة؛ منها الحزم مع من تأخر، والعقوبة على من تخلف من المؤمنين.

٥. ومن بركات القيادة النبوية في هذه الغزوة: تكثير الماء والطعام.

وهذا من دلائل النبوة. وقد ورد في هذا أكثر من رواية، فعن معاذ بن جبل قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنكم ستأتون غدا، إن شاء الله، عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي) فجئناها وقدسبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء، قال: فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل مسستما من مائها شيئا؟) قالا:نعم، فسبهما النبي صلى الله عليه وسلم، وقال لهما ما شاء الله أن يقول.

قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلًا قليلًا، حتى اجتمع في شيء، قال: وغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر أو قال: غزير -شك أبوعلي أيهما قال- حتى استقى الناس، ثم قال: (يوشك، يامعاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما هاهنا

(١) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٥٢٨.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب في معجزات النبي، رقم ١٣٩٢، ٤/ ١٧٨٥.

قد ملئ جنانًا)[١].

وفي الحديث يتضح أسلوب الحسم والقوة في معاتبة من خالف الأمر النبوي، وهو عنوان بارز في هذه الغزوة، وفيه بركة النبي صلى الله عليه وسلم وإخباره بالغيب الذي تحقق واقعًا. وحدث مثل ذلك في الطعام؛ فقد (طلب عمر من رسول الله أن يدعو بفضل الزاد ثم يدعو الله عليه بالبركة فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، قال: ويجيءالآخر بكف تمر، قال: ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه بالبركة، ثم قال: (خذوا في أوعيتكم)، قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلاملئوه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة)[٢].

وفي الحديث رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه وقبول مشورة عمر، والحرص على تموين الجيش بالطعام وفيه أيضا شاهد من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم.

٦. السير ليلًا.

ومن معالم القيادة النبوية الرشيدة في هذه الغزوة: أن قطع المسلمون أكثر المراحل بين المدينة وتبوك ليلا، ليتخلصوا من الحر الشديد. إن الحركة ليلا في موسم الحر ضرورية جدا خاصة في الصحراء؛ وهذا ما تطبقه الجيوش الحديثة في العصر الحاضر. إن غزوة تبوك تدريب عنيف للمسلمين، كان غرض النبي صلى الله عليه وسلم منه إعدادهم لرسالة حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية وتكوين الدولة الاسلامية المترامية الأطراف؛ فقدكانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم فلا بد من الاطمئنان إلى كفاية جنوده قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى[٣].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي، ٤/ ١٧٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، رقم ٤٥، ١/ ٥٦ عن أبي سعيد الخدري.

(٣) الرسول القائد، الواء محمود شيت خطاب ص٤١٥.

الدروس المستفادة من غزوة تبوك

لم يحارب المسلمون في تبوك؛ بل مكثوا عشرين يوما صالحهم فيها حكام البلدان الشامية ودفعوا الجزية، ومن هؤلاء ملك أيله وملك دومة الجندل الذي أسره خالد بن الوليد فافتدى نفسه بألفي بعير، وثمان مئة رأس،وأربع مئة درع ودفع الجزية، وصالح المسلمون أهل جرباء وأذرح وتعاهدوا على دفع الجزية[1]، وإذا كان الأمر قد تم بدون خسائر مادية ومعنوية للمسلمين، فإن الغزوة في الواقع كان لها آثار عظيمة على المسلمين داخليًا وخارجيًا.

فقد كان للغزوة أثر خارجي تمثل في إبراز قوة المسلمين، وتأكيد سيطرتهم على الحدود الشمالية للجزيرة العربية، وإرهاب متنصرة العرب الذين كانوا خاضعين للروم؛ فقد أدركوا يقينا أن هناك قوة صاعدة لن يقف أمامها أحد ولابد لهم أن يعيدوا النظر في ولائهم للروم.

أما فوائدها وآثارها على الجماعة المسلمة فقد كانت جمة وافرة، انتفع بها الأولون، ولا زال معينها عذبا ينتفع منه كل وارد، ومن هذه العظات والعبر ما يأتي:

١. أنه لم يؤت المسلمون إلا من قبل خيانة الداخل، فالمنافقون أضر على الأمة من عدوها الظاهر،إذ هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا؛ فخطرهم أشد وطعنتهم أسد.

٢. على قائد الصف المسلم أن ينقي الصف من هؤلاء المنافقين وأمثالهم، وقد استنبط الإمام الشافعي رحمه الله هذا الحكم من آيات سورة التوبة؛ فبعد أن ذكر مواقف المنافقين في أحد والخندق وبني المصطلق وتبوك قال: «فمن شهر بمثل ما وصف الله تعالى المنافقين لم يحل للإمام أن يدعه يغزو معه .لأنه ممن منع الله أن يغزو مع المسلمين؛ لطلبه فتنتهم،وتخذيله إياهم، وأن فيهم من يستمع له بالغفلة والقرابة والصداقة، وأن هذا قد يكون أضر عليهم من عدوهم»[2]. وفي المغني لابن قدامة: «ولا يستصحب الأمير معه مخذلا وهو الذي يثبط الناس عن الغزو . ولا مرجفا. ولا من يعين على المسلمين بالتجسس للكفار، ولا من يوقع العداوة بين المسلمين ويسعى بالفساد لقول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ

(١) السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ٥٢٥.

(٢) الأم، الإمام الشافعي ٤/ ١٧٥.

﴿يَفْتِنُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾[(١)].

٣. إنما يفتتن المفتون. كلمة صحيحة؛ فما أوقعه في الفتنة إلا قابليته لها واستعداده الداخلي.

٤. وقد كشفت الغزوة كثيرًا من خصائص المنافقين؛ فهم قوم يفرقون. هكذا سجل القرآن عليهم هذه الصفة، ولذا فإنهم يحسبون كل صيحة عليهم، وإذا جاء الخوف تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، وعند ذكر القتال ينظرون نظر المغشي عليه من الموت، وما هذا كله إلا بسبب جبنهم وفرقهم ولولا ذلك لأعلنوا كفرهم صراحة. وهم يريدون إيقاع الفتنة وزيادة الخبال ويتذرعون بالأعذار الكاذبة، ويلمزون المؤمنين، ويكثرون الحلف الكاذب، ويخوضون ويلعبون ويستهزئون بآيات الله وبرسوله، ويفرحون بالجبن والقعود، ويتفننون في إخفاء نفاقهم، ويستخدمون المساجد وأماكن الطاعة في تقوية باطلهم.

٥. ومن دروس الغزوة أن الجهاد هو محك التمييز بين المؤمن والمنافق، فالمنافق قد يظهر بعض الطاعات لكنه لا يتحمل التضحية بنفسه وماله لأنه متعلق بحب الدنيا؛ فالدنيا بأعراضها القريبة تغري أهل النفاق فيتحمسون ويخرجون.

٦. لابد أن يفتضح أمر الكاذب، وإن ظل فترة يداهن أو ينافق، فلا بد أن تظهر خبيئته على فلتات لسانه وسيماء وجهه وفعله.

٧. أسوأ خصلتين يتحلى بهما إنسان الجبن والبخل، وقد جمع أهل النفاق بين الأمرين فهم جبناء بخلاء، ولا أسوأ من اجتماعهما في شخص.

٨. لا حرج على المرء إن بذل ما في وسعه وطاقته حتى وإن كان يسيرًا، فإن الله يبارك له فيه ويربيه له، وقد سئل الرسول عليه السلام: أي الصدقة أفضل؟ فقال: **(جهد المقل)**[(٢)]. وعليه فلا يجوز السخرية بالمؤمنين، ولا احتقار عملهم في الخير أيًا كان قدره، ومن سخر بمؤمن كوفيء بنفس عمله.

٩. لا يجوز الاستغفار لمن علم نفاقه، وظهر من أقواله وأفعاله ما يلحقه بهذه الطائفة. ومن بدأ بالفسق فلن يصل للهداية، ومن زاغ أزاغ الله قلبه، ومن كان في الضلالة أمده الله على ما هو عليه.

---

(١) المغنى، ابن قدامة ٩/ ٢٠١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٣٢٤، وأبو داود في سننه، كتاب الزكاة، رقم ١٦٧٧. وصحيحه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٤٩، رقم ١١١٢.

١٠. من علامات الإيمان الصادق حب الجهاد، والتحرق شوقًا للبذل والاستشهاد،حتى يبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج إلى حد فيضان البكاء أسفًا وحزنًا على فوات نصيب الخير.

١١. المسلم يحرص على مجاهدة نفسه وهواه، وان زينت له قعودا يتمناه، فأبو خيثمة يترك معافسة الأهل وينطلق مسرعا، عندما قارن حاله بحال المجاهدين الصادقين.

١٢. جواز القتال في الأشهر الحرم.

١٣. خطورة الاستهزاء بالدين والصالحين.

١٤. الاتعاظ بآثار السابقين، وأخذ العبرة منها، فلا يمر المرء عليها مر الغافلين، بل يتذكر مصير أولئك الذين تنكبوا طريق الهداية وظلوا في عماية، كي يحذر طريقهم فينجو ويفوز بما يرجو.

١٥. أهمية الشورى: وقد تجلى ذلك فى مواقف كثيرة منها: قبول مشورة أبي بكر الصديق في الدعاء حين تعرض الجيش لعطش شديد، قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعة، قبول مشورة عمر في ترك اجتياز حدود الشام والعودة إلى المدينة.

١٦. أن الإمام إذا استنفر الجيش لزمهم النفير، ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه، ولا يشترط في وجوب النفير تعيين كل واحد منهم بعينه، بل متى استنفر الجيش، لزم كل واحد منهم الخروج معه، وهذا أحد المواضع الثلاثة التي يصير فيها الجهاد فرض عين. والثاني: إذا حضر العدو البلد. والثالث: إذا حضر بين الصفين.

١٧. تركه قتل المنافقين، وقد بلغه عنهم الكفر الصريح، فاحتج به من قال: لا يقتل الزنديق إذا أظهر التوبة، لأنهم حلفوا لرسول الله أنهم ما قالوا، وهذا إذا لم يكن إنكارًا، فهو توبة وإقلاع.

١٨. تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها، كما حرق رسول الله مسجد الضرار، وأمر بهدمه، وهو مسجدٌ يصلى فيه، ويذكر اسم الله فيه، لما كان بناؤه ضرارًا وتفريقًا بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين، وكل مكان هذا شأنه، فواجب على الإمام تعطيله، إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له[١].

موضوعات ذات صلة:

غزوات الرسول مع اليهود، غزوة أحد، غزوة الأحزاب، غزوة بدر

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٥٠٠.



عناصر الموضوع

مفهوم الغضب

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الغين، والضاد، والباء، أصل صحيح يدل على شدة وقوة. يقال: إن الغضبة: الصخرة الصلبة. قالوا: ومنه اشتق الغضب، لأنه اشتداد السخط»[1].

وعرف ابن منظور الغضب: بـأنه «نقيض الرضا»[2].

يقال: رجل غضوب: شديد الغضب. والغضوب: الحية الخبيثة. والغضوب: الناقة العبوس. والمغضوب: الذي ركبه الجدري، فإذا غطى الجدري جلد المجدور، قيل: أصبح جلده غضبة واحدة. والغضابي: الكدر في معاشرته، مأخوذ من الغضاب، وهو: القذى في العينين[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

اختلفت عبارات العلماء في تعريف الغضب، لكنها جميعًا تدور حول فكرة واحدة ومعنى واحد، وهي تتقارب كثيرًا مع معنى هذه اللفظة في معاجم اللغة.

فقد عرفه الغزالي بأنه: «غليان دم القلب بطلب الانتقام»[4].

وعرفه الثعالبي بأنه: «غليان القلب بسبب ما يؤلم»[5].

وقال الجرجاني: «الغضب تغير يحصل عند غليان دم القلب ليحصل عنه التشفي للصدر»[6].

وقد عرف الطبري رحمه الله غضب الله بأنه: «إحلال عقوبته بمن غضب عليه، إما في دنياه وإما في آخرته»[7].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٢٨
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٤٨
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٤٨، الصحاح، الجوهري ١/ ٢١٤ .
(٤) إحياء علوم الدين للغزالي ٣ / ٢٢٤.
(٥) الجواهر الحسان، الثعالبي ص٥٤ .
(٦) التعريفات، الجرجاني ص٢٠٩ .
(٧) جامع البيان، الطبري ١/ ٨٠ .



الغضب في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غضب) في القرآن الكريم (٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:١٣]
المصدر	١٤	﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة:٩٠]
اسم الفاعل	١	﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧]
اسم المفعول	١	﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة:٧]
الصفة المشبهة	٢	﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا﴾ [طه:٨٦]

وجاء الغضب في القرآن الكريم بمعناه اللغوي الدال على ثوران دم القلب وإرادة الانتقام، وإذا أضيف إلى الخالق سبحانه فهو صفة له لائقة بذاته سبحانه، ومن لوازمها الانتقام والعقاب[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٩٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الغين ص٨٤٩.
(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٣/ ١٦٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ١٣٥-١٣٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ السخط:

السخط لغة:

الكراهية للشيء، وعدم الرضا به[(١)].

السخط اصطلاحًا:

الغضب الشديد المقتضي للعقوبة[(٢)].

الصلة بين السخط والغضب:

الغضب يكون من الصغير على الكبير ومن الكبير على الصغير، والسخط لا يكون إلا من الكبير على الصغير[(٣)].

٢ الانتقام:

الانتقام لغة:

أصل هذه المادة يدل على إنكار شيءٍ وعيبه، يقال: لم أرض منه حتى نقمت وانتقمت، إذا كافأه عقوبةً بما صنع. والنقمة العقوبة، وانتقم الله منه أي: عاقبه[(٤)].

الانتقام اصطلاحًا:

هو إنزال العقوبة مصحوبًا بكراهية تصل إلى حد السخط[(٥)].

والمنتقم «هو المبالغ في العقوبة لمن يشاء. وهو مفتعل من نقم ينقم إذا بلغت به الكراهة حد السخط»[(٦)].

الصلة بين الانتقام والغضب:

الانتقام له صلة بالغضب؛ لأن الغضبان يتوق إلى الانتقام ممن يغضب منه غالبًا.

(١) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣١٣.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ٤٠٢.
(٣) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٢٤٦.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٤٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٦٤، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٩٠.
(٥) نضرة النعيم ٩/ ٤٠٠٧.
(٦) النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير ٥/ ٢٣١.



٣ الغيظ:

الغيظ لغةً:

الغيظ: الغضب، وقيل: هو أشد من الغضب، وقيل: هو سورته وأوله[١].

الغيظ اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، قال الأصفهاني: الغيظ: أشد الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه[٢].

الصلة بين الغيظ والغضب:

قال ابن دريد: «الغيظ فوق الغضب؛ وقد فصل قومٌ من أهل اللغة بين الغيظ والغضب فقالوا: الغيظ أشد من الغضب؛ وقال قوم: الغيظ سورة الغضب وأوله»[٣].

وقال أبو هلال العسكري في التفريق بين الغيظ والغضب: «الإنسان يجوز أن يغتاظ من نفسه ولا يجوز أن يغضب عليها، وذلك أن الغضب إرادة الضرر للمغضوب عليه ولا يجوز أن يريد الانسان الضرر لنفسه، والغيظ يقرب من باب الغم»[٤].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٤٥٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦١٩.
(٣) جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٢٣.
(٤) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٢٦٩.

أقسام الغضب

أولًا: غضب الله سبحانه وتعالى:

الغضب صفة من صفات الفعل الثابتة لله عز وجل على الوجه اللائق به[1].

يقول الشنقيطي: «اعلم أن الغضب صفة وصف الله بها نفسه إذا انتهكت حرماته، تظهر آثارها في المغضوب عليهم. نعوذ بالله من غضبه جل وعلا. ونحن معاشر المسلمين نمرها كما جاءت؛ فنصدق ربنا في كل ما وصف به نفسه، ولا نكذب بشيء من ذلك مع تنزيهنا التام له جل وعلا عن مشابهة المخلوقين سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا»[2].

وهذه الصفة ثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

وثبت في حديث الشفاعة الطويل عندما يفزع الناس إلى الأنبياء، يطلبون منهم الشفاعة، فكل نبي يأتونه يقول لهم: (إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله)[3].

وما رواه ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: (اشتد غضب الله على من قتله النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل الله اشتد غضب الله على قوم دموا وجه نبي الله صلى الله عليه وسلم)[4].

وذكر شيخ المفسرين أقوال العلماء في إسناد الغضب إلى الله تعالى، فقال: «واختلف في صفة الغضب من الله جل ذكره. فقال بعضهم: غضب الله على من غضب عليه من خلقه، إحلال عقوبته بمن غضب عليه، إما في دنياه وإما في آخرته، كما وصف به نفسه جل ذكره في كتابه فقال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وكما قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقال بعضهم: غضب الله على من غضب عليه من عباده، ذمٌّ منه لهم ولأفعالهم، وشتمٌ لهم منه بالقول. وقال

(١) شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين ص١٨٧.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٧٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله عز وجل: (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه)، ٢/ ١٣٥، رقم ٣٣٢٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي صلى الله عليه وسلم من الجراح يوم أحدٍ، ٥/ ٧١، رقم ٤٠٧٤.

بعضهم: الغضب منه معنى مفهوم كالذي يعرف من معاني الغضب، غير أنه وإن كان كذلك من جهة الإثبات، فمخالف معناه منه معنى ما يكون من غضب الآدميين الذين يزعجهم ويحركهم ويشق عليهم ويؤذيهم. لأن الله جل ثناؤه لا تحل ذاته الآفات، ولكنه له صفة، كما العلم له صفة، والقدرة له صفة، على ما يعقل من جهة الإثبات، وإن خالفت معاني ذلك معاني علوم العباد، التي هي معارف القلوب، وقواهم التي توجد مع وجود الأفعال وتعدم مع عدمها»[1].

ومعظم الآيات القرآنية التي تحدثت عن الغضب أسندت الغضب إلى الله عز وجل كما بينا سابقًا، كما في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

قال الألوسي: «وباؤا بغضب من الله؛ أي نزلوا وتمكنوا بما حل بهم من البلاء والنقم في الدنيا، أو بما تحقق لهم من العذاب في العقبى، أو بما كتب عليهم من المكاره فيهما، أو رجعوا بغضب أي: صار عليهم، ولذا لم يحتج إلى اعتبار المرجوع إليه أو صاروا أحقاء به أو استحقوا العذاب بسببه وهو بعيد. وأصل البواء بالفتح والضم، مساواة الأجزاء ثم استعمل في كل مساواة فيقال: هو باء فلان أي كفؤه، ومنه بؤ لشسع نعل كليب وفي وصف الغضب بكونه من الله تعالى تعظيم لشأنه بعد تعظيم وتفخيم بعد تفخيم»[2].

ثانيًا: غضب الإنسان:

«الغضب من شيم بني آدم، فلا يذم، ولا يمدح إلا من جهة آثاره ومقاصده»[3].

ومعنى ذلك: أن الغضب ظاهرة انفعالية وعاطفة شعورية طبيعية لدى الإنسان، وهو صحي إذا تم توجيهه بالطريقة الصحيحة، ولم يحصل فيه خروج عن ضوابط الشرع والعقل. ولكن عند فقدان السيطرة والقدرة على التحكم، يصبح الغضب مدمرًا ومؤديًا إلى مشاكل جمة في العلاقات الإنسانية.

قال ابن منظور: «قال ابن عرفة: الغضب من المخلوقين شيء يداخل قلوبهم ومنه محمود ومذموم، فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق، وأما غضب الله فهو إنكاره على من عصاه فيعاقبه»[4].

ومن هنا فإن الغضب المتعلق بالإنسان

---

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ١٨٨-١٨٩.

(٢) روح المعاني، الألوسي ١/ ٢٧٦.

(٣) قواعد وفوائد من الأربعين النووية، ناظم سلطان، ص ١٤٨.

(٤) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٦٤٩.

ينقسم إلى قسمين[1]:

الأول: الغضب المذموم.

وهو الغضب الدنيوي، الذي يكون في غير الحق. وإنما يكون لهوى النفوس، يتجاوز فيه العبد بقوله، فيشتم ويقذف، ويجرح الآخرين بكلمات مؤذية، ويتجاوز فيه بفعله، فيضرب ويتلف أموال الآخرين وأملاكهم.

وإذا أطلق الغضب فإنما يطلق على هذا النوع في الأغلب الأعم، لهذا حذر منه الإسلام أيما تحذير، واعتبره أساس كل مصيبة وبليه، وسببًا لجلب الدمار والخراب، والقتل والأعمال العدوانية.

فقد روى البخاري عن أبي هريرة قال: (إن رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني: قال: **(لا تغضب)**، فردد مرارًا قال: **(لا تغضب)**[2].

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما (أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يباعدني من غضب الله عز وجل؟ قال: **(لا تغضب)**[3].

وقد أشارت الآيات القرآنية إلى هذا النوع من الغضب، في سياق الحديث عن صفات المؤمنين، الذين يتصفون بالعفو والمسامحة، ولا يجعلهم الغضب يظلمون الآخرين ويتجاوزون في العقوبة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

«يعني: إذا غضبوا على أحد يتجاوزون ويكظمون الغيظ»[4].

ففي هذه الآية يمدح الله عز وجل عباده المؤمنين الذين «من شيمتهم المغفرة عند الغضب؛ أي: إمساك أنفسهم عن الاندفاع مع داعية الغضب فلا يغول الغضب أحلامهم»[5].

وقريب من هذا المعنى ما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

الثاني: الغضب المحمود.

وهو الذي يكون لله، ومن أجل الله، وإذا انتهكت محارم الله. ويكون للحق إذا اعتدي على الإنسان بدون وجه حق على ماله، أو نفسه، أو عرضه، أو ولده. فهذا الغضب يكون مستساغًا شرعًا، وقد يكون

(١) انظر لمزيد من التفصيلات حول أقسام الغضب: الغضب، سناء سليمان، ص٣٤-٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٣/ ١٦١، رقم ٦١١٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢ / ١٧٥ . وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٢٧٤٧.

(٤) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٣٣.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١١١ .

واجبًا، لكن يجب أن يتصرف أثناء غضبه هذا بحدود دينه، وبما يوافق الحق والعدالة.

قال ابن حبان: «والخلق مجبولون على الغضب والحلم معا فمن غضب وحلم في نفس الغضب فإن ذلك ليس بمذموم ما لم يخرجه غضبه إلى المكروه من القول والفعل»[(١)].

ويقول صاحب الظلال: «الغضب انفعال بشري ينبع من فطرته. وهو ليس شرا كله. فالغضب لله ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب وفيه الخير. ومن ثم لا يحرم الغضب في ذاته ولا يجعله خطيئة. بل يعترف بوجوده في الفطرة والطبيعة، فيعفي الإنسان من الحيرة والتمزق بين فطرته وأمر دينه. ولكنه في الوقت ذاته يقوده إلى أن يغلب غضبه، وأن يغفر ويعفو، ويحسب له هذا صفة مثلى من صفات الإيمان المحببة. هذا مع أنه عرف عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أنه لم يغضب لنفسه قط، إنما كان يغضب لله، فإذا غضب لله لم يقم لغضبه شيء. ولكن هذه درجة تلك النفس المحمدية العظيمة لا يكلف الله نفوس المؤمنين إياها. وإن كان يحببهم فيها. إنما يكتفي منهم بالمغفرة عند الغضب، والعفو عند القدرة، والاستعلاء على شعور الانتقام، ما دام الأمر في حدود الدائرة الشخصية المتعلقة بالأفراد»[(٢)].

وغضب الأنبياء عليهم السلام من هذا القسم المحمود، فقد كانوا لا ينتقمون لحظوظ أنفسهم، وإنما يغضبون حين تنتهك محارم الله، وهذا ما تدل عليه الآيات القرآنية التي أسندت الغضب لموسى ويونس عليهما السلام. وفيما يلي بيان ذلك:

١ . غضب موسى عليه السلام.

ذكر القرآن الكريم انفعال موسى عليه السلام وغضبه الناتج عن عبادة قومه للعجل في موضعين اثنين:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ [طه: ٨٦].

ففي هذين الموضعين بين الحق سبحانه وتعالى أن السبب الذي أدى إلى انفعال الغضب عند موسى عليه السلام، هو اتخاذ

(١) روضة العقلاء ابن حبان البستي ١/ ١٤١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٦٤.

قومه عجلًا يعبدونه ويعكفون عليه، وهذا الغضب من القسم المحمود الذي يؤجر عليه فاعله، ولا يلام عليه، وليس مخطئًا فيه «فغضب موسى عليه السلام إنما هو لله، وغيرة على دين الله، ورفضًا للباطل والمنكر، والكفر والضلال، وهو مأجور على هذا الغضب»[1].

٢. غضب يونس عليه السلام.

ذكر القرآن الكريم غضب يونس عليه السلام في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فقد غضب يونس عليه السلام من قومه، فحين دعاهم إلى الله تعالى وحذرهم من غضبه وعقابه، أبوا الاستجابة لدعوته، وأصروا على كفرهم وعنادهم، وتمردهم وطغيانهم، فتوعدهم بالعذاب، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم[2].

وقوله تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ اختلف أهل التفسير فيها على أقوال ثلاثة هي:

القول الأول: مغاضبًا بمعنى: غضبان، وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكًا، نحو قولك: عاقبت اللص، وسافرت، وشارفت الأمر. وكأنه استعمل هنا للمبالغة. وغضبه كان على قومه «لشدة شكيمتهم وتمادي إصرارهم مع طول دعوته إياهم»[3]. وهذا الذي رجحه ابن الجوزي[4]، والآلوسي[5].

القول الثاني: مغاضبًا بمعنى: مغاضبًا لقومه، أغضبهم بمفارقته وتخوفهم حلول العذاب، وأغضبوه حين دعاهم إلى الله مدة فلم يجيبوه، فأوعدهم بالعذاب. وهي من المفاعلة التي تقتضي اشتراكًا. وهذا الذي رجحه الزمخشري[6]، والقاسمي[7]. ومن المعاصرين الشعراوي[8]، والدكتور فضل عباس[9].

القول الثالث: مغاضبًا بمعنى: مغاضبًا لربه، أي: مغاضبًا من أجل ربه. كما تقول غضبت لك، أي: من أجلك. والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عصي. وهذا قول ابن مسعود من الصحابة، وقول الحسن وابن جبير من التابعين، وهو القول الذي رجحه

(١) مواقف الأنبياء في القرآن، صلاح الخالدي ص٢٣١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤ / ٥٨٦.

(٣) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ٨٣.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٥ / ٢٦٣.
(٥) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ٨٤.
(٦) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٨١.
(٧) محاسن التأويل، القاسمي ١١/ ٤٣٠٠.
(٨) تفسير الشعراوي ١٥ / ٩٦٢٢.
(٩) القصص القرآني، فضل عباس ٣٤٨.

الطبري[1]، والقرطبي[2].

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة على النحو التالي: إن يونس عليه السلام غضب من عدم استجابة قومه لدعوة الله. فكان غضبه لله، ومن أجل الله، وحصل بينه وبين قومه مغاضبة بسبب توعده لهم بالعذاب، وخرج من عند قومه وهو غضبان. ففسر كل فريق كلمة مغاضبا من خلال غضب يونس عليه السلام في مراحله الثلاث. عند مناظرة قومه، وعند خروجه من عندهم، وعند عدم أخذه الإذن من الله في الخروج.

وهذا الموضع بين أن غضب يونس عليه السلام كان لله، وكرهًا وبغضًا لعبادة الأصنام التي أصر عليها قومه. كما بين خطأ يونس عليه السلام في سرعة خروجه من عند قومه دون إذن من ربه. ولذا طلب المغفرة من ربه قائلا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهذا الخروج السريع ليونس عليه السلام عجل من توبة قومه، ورجوعهم إلى الله سبحانه. فما إن خرج يونس عليه السلام مغضبًا من عند قومه، وتحققوا أن العذاب واقع بهم لا محالة، «خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم، وأنعامهم، ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها. ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه»[3].

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٧٥٠-٧٥١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٢٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٨٦.

الأسباب الموجبة لغضب الله تعالى

بالنظر في الآيات القرآنية التي أسندت الغضب إلى الله تعالى، فإنه يتبين أن أسباب غضب الله عز وجل، هي: الكفر والنفاق، وارتكاب كبائر الذنوب. وهذا ما سنقف عليه في النقاط الآتية:

أولًا: الكفر والنفاق:

بينت الآيات القرآنية التي تحدثت عن غضب الله عز وجل، أن أهم أسباب هذا الغضب هو الكفر بالله تعالى وبآياته، وبالنظر في الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذا السبب، نجدها جميعًا تتعلق باليهود.

وجاء ذلك في مواضع ثلاثة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

تبين هذه الآية أن غضب الله تعالى الذي حل باليهود، كان بسبب عصيانهم وكفرهم بآيات الله. يقول القاسمي: «﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا به أو صاروا أحقاء به. من قولهم: باء فلان بفلان، أي: صار حقيقًا أن يقتل بمقابلته. والبوء بالغضب العظيم بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله الباهرة التي ظهرت على يدي عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ويقتلون النبيين بغير الحق كزكريا ويحيى عليهما السلام. وقتل الأنبياء في بني إسرائيل كان ظاهرًا»[(١)].

وقال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

قوله: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أي: أن غضب الله تعالى عليهم كان بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين أولًا، ثم بسبب كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم[(٢)].

يقول سيد قطب: «لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقل. أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ولكن هذا هو الواقع. وإن بدا تمثيلًا وتصويرًا. لقد خسروا أنفسهم في الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز، ولقد خسروا أنفسهم في الآخرة بما ينتظرهم

(١) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٣١٥.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ١٧٣.

من العذاب المهين. وبماذا خرجوا في النهاية؟ خرجوا بالكفر، هو وحده الذي كسبوه وأخذوه! وكان الذي حملهم على هذا كله هو حسدهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده. وكان هذا بغيًا منهم وظلمًا فعادوا من هذا الظلم بغضب على غضب وهناك ينتظرهم عذاب مهين، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم»[1].

وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وهذه الآية تؤكد أيضًا أن وقوع غضب الله تعالى على اليهود، إنما كان بسبب كفرهم وعصيانهم.

ومما يتصل بالكفر بالله تعالى، الردة عن دين الله، وقد بينت آيات القرآن الكريم أن الردة عن الإسلام جريمة عظيمة تستوجب غضب الله تعالى، ويظهر ذلك جليًا في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦].

فمن اختار الكفر على الإيمان بعد أن عرف الإيمان وعرف ما فيه من خير له وللبشرية جمعاء، فقد استحق غضب المولى عز وجل؛ لأن «القلب الذي يذوق الإسلام ويعرفه، لا يمكن أن يرتد ارتدادًا حقيقيًّا أبدًا»[2].

ويتعلق غضب الله تعالى كذلك بالمنافقين الذين ارتدوا سرًّا من بعد ما تبين لهم الهدى، وما ذلك إلا لأن الشيطان قد زين لهم الكفر. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

وهذه الآية نزلت في شأن المنافقين[3].

«أي: إن الذين فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، من بعد ما ظهر لهم الهدى بما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات الظاهرة والدلائل الواضحة، زين لهم الشيطان خطاياهم، وسهل لهم الوقوع فيها، وحسن لهم الكفر، وخدعهم وغرهم بالأماني والآمال، ووعدهم بطول العمر ومد الأجل»[4].

(١) في ظلال القرآن ١/ ٩٠.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٢٢٨.

(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٤/ ١٤٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١١٢، التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٢٣.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ١٢٣.

ثانيًا: كبائر الذنوب:

من أسباب غضب الله على العبد ارتكاب المعاصي العظيمة والوقوع في الكبائر. ولا شك أن غضب الله عز وجل شيء عظيم وليس هينًا، لذا نجد أنه جاء متعلقًا بكبائر الذنوب، وكل المعاصي التي اقترنت بغضب الله تعالى هي من الكبائر التي ينبغي على المسلم أن يحذر من الوقوع فيها. وأهم المعاصي التي جاءت مقترنة بغضب الله تعالى:

١ . الشرك بالله.

«الشرك هو اتخاذ ند من دون الله، يدعوه كما يدعو الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويخافه كما يخاف الله، ويحبه كما يحب الله»[(١)]. ويترتب على ذلك التوجه لغير الله تعالى بالعبادة، ولا شك أن هذا من أعظم الذنوب ومن أكبر الكبائر، لأن الله تعالى هو خالق الخلق، وهو وحده الحقيق بهذه العبادة، فمن عبد غيره فقد انحرف عن الطريق القويم، وضل السبيل. ومن هنا فقد استحق من يشرك بالله تعالى غضبه ومقته، كما تدل على ذلك الآيات القرآنية.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١]

فهذه الآية تدل على نزول غضب الله تعالى على قوم هود عليه السلام، بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم الأصنام، مع أنها أصنام لا تضر ولا تنفع، وهم الذين اخترعوها وجعلوها آلهة من دون الله.

وممن استحق غضب الله تعالى بسبب الشرك بالله اليهود، الذين عبدوا العجل بعد أن صنعه لهم السامري بيديه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

والمقصود بغضب الله على بني إسرائيل الذي أصابهم بسبب عبادتهم للعجل، كما يقول الزمخشري: «الغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم. والذلة: خروجهم من ديارهم لأن ذل الغربة مثل مضروب. وقيل: هو ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير، من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء، ومن الذلة بضرب الجزية المفترين المتكذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري: هذا إلهكم وإله موسى. ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالذلة وحدها ويراد: سينالهم غضب في الآخرة، وذلة في الحياة الدنيا، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا

(١) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد بن عيسى ٢/٢٦٦.

بغضب من الله»[1].

ويرى الشوكاني أن الغضب يشمل الدنيا والآخرة، فهو يتضمن «ما نزل بهم من العقوبة في الدنيا بقتل أنفسهم، وما سينزل بهم في الآخرة من العذاب»[2].

٢. القتل.

مما لا شك فيه أن قتل النفس بغير حق جريمة بشعة يندى لها الجبين، وهي من الكبائر التي يستحق فاعلها غضب الله تعالى والطرد من رحمته.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ويلاحظ أن الله تعالى رتب على كبيرة القتل وعيدًا عظيمًا وعذابًا شديدًا.

يقول السعدي: «وذكر هنا وعيد القاتل عمدًا، وعيدًا ترجف له القلوب وتنصدع له الأفئدة، وتنزعج منه أولو العقول. فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار، وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار. فعياذًا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته»[3].

٣. التولي يوم الزحف.

جعل الإسلام الفرار من المعركة من الكبائر، والذي يترتب عليه غضب الله تعالى. وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى في الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: **(اجتنبوا السبع الموبقات)**، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: **(الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)**[4].

فهذا الحديث يدل على أن التولي يوم الزحف من الكبائر، لذلك ترتب عليه غضب الله، كما يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

ففي هذه الآية «نهى الله المؤمنين عن التولي يوم الزحف، وتوعدهم عليه، والنهي

(١) الكشاف ٢/ ١٦٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٧٦٦، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى)، ٤/ ١٠.

والتوعد يدلان على أن الثبات واجب»[1].

«فالتولي يوم الزحف من أكبر الكبائر، وأفحش الأمور، لأنه يدل على الجبن، والضعف والخور، والإسلام يربي المسلم على الشجاعة والثبات والعزة، ولأن الفرار أمام الأعداء عند اللقاء يسلب الأمة عزتها وكرامتها وشرفها، ويجعل السلطة لأعداء الإسلام والدين، وذلك موت أدبي للأمة فإما أن نعيش كرامًا أعزاء، وإما أن نموت أحرارًا شهداء، والاستشهاد في سبيل الله والوطن حياة كريمة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩].

لهذا أمرنا الله تعالى بالثبات أمام الأعداء مهما كانت عدتهم، وقدرتهم، ونهانا عن الفرار من الزحف وعده من أعظم الكبائر التي تجلب غضب الله تعالى، وتحبط الأعمال، وتودي بصاحبها في نار جهنم وبئس القرار فأمر الله المجاهدين بالصبر والثبات أمام الأعداء، لأن التولي فيه إضعاف لصفوف المسلمين، وتثبيط لعزائم المقاتلين، وإحداث فرقة بين صفوفهم، وفي ذلك صد عن سبيل الله عز وجل وتقوية للعدو، وكفى بذلك إثمًا وعارًا في الدنيا والآخرة، لذلك أمرنا بالصبر وذكر الله تعالى أنه يعاقب الفارين بأشد أنواع العذاب. وأنه يكرم الشهداء في سبيله أعظم أنواع الإكرام والعزة»[2].

(١) الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ٤٣٤.

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة، ابن الجزيري ٥/ ٣٩٠.

المغضوب عليهم

يتناول هذا المبحث أصناف الناس الذين غضب الله عليهم كما ورد في آيات القرآن الكريم.

أولًا: عبدة الأوثان:

لا شك أن عبادة الأوثان معصية ممقوتة، وموجبة لغضب الله تعالى، لأنه لا بد من «العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده»[1].

والأنبياء جميعًا كانوا يدعون أقوامهم لعبادة الله وحده وعدم الإشراك به، وكانوا يخاطبونهم قائلين: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ولكن هناك من لم يستجب لهذه الدعوة وانحرف عن المنهج القويم فعبد الأوثان بدلًا من أن يعبد الله سبحانه وتعالى. ومن هؤلاء قوم هود عليه السلام، الذين قال الله عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠-٧١].

فهؤلاء قد استحقوا غضب الله تعالى لأنهم عبدو الأوثان وأصروا على عبادتها وتجاهلوا آيات الله عز وجل.

يقول البيضاوي: «﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾ قد وجب وحق عليكم، أو نزل عليكم على أن المتوقع كالواقع، ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ﴾ عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب. ﴿وَغَضَبٌ﴾ إرادة انتقام. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾ أي: في أشياء سميتموها آلهة وليس فيها معنى الإلهية، لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل، وأنها لو استحقت كان استحقاقها بجعله تعالى إما بإنزال آية أو بنصب حجة، بين أن منتهى حجتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقق المسمى.

وإسناد الاطلاق إلى من لا يؤبه بقوله إظهارا لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم.

واستدل به على أن الاسم هو المسمى وأن اللغات توقيفية إذ لو لم يكن كذلك لم يتوجه الذم والإبطال بأنها أسماء مخترعة لم ينزل الله بها سلطانا وضعفهما ظاهر»[2].

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد، السعدي ص١٧.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٩.

ثانيًا: اليهود:

صدر عن اليهود الكثير من الأعمال والمعاصي الشنيعة، التي جعلت أنبياءهم يتبرؤون منهم ويلعنونهم، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨].

ولا شك أن هذه الأعمال التي فعلوها هي التي جلبت غضب الله عليهم.

قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

والمغضوب عليهم هم اليهود كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم[(١)].

وإنما وصف اليهود بهذا الوصف لأن «المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به، والذين بلغهم شرع الله ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه، انصرافًا عن الدليل، ورضاء بما ورثوه من القيل، ووقوفا عند التقليد، وعكوفا على هوى غير رشيد»[(٢)].

فقد خص الله تعالى اليهود بالغضب، لأنهم قاصدون للمعصية، فقد عرفوا الحق الذي أمرهم الله به، ولكنهم تركوا العمل به واتبعوا الباطل[(٣)].

ومن الممارسات التي فعلها اليهود واستحقوا عليها غضب الله تعالى:

١ . الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه، أو ألصقت بهم، من ضرب الطين على الحائط، مجازاة لهم على كفران النعمة. واليهود في غالب الأمر أذلاء مساكين، إما على الحقيقة أو على التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ رجعوا به، أو صاروا أحقاء بغضبه، من باء فلان بفلان إذا كان حقيقا بأن يقتل به، وأصل البوء المساواة. ذلك إشارة إلى ما سبق من ضرب

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم ١٩٣٨١، ٢٣/ ١٢٣.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٧/ ٧٨١.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٥٧.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم، ١/ ١١.

الذلة والمسكنة والبوء بالغضب. بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق بسبب كفرهم بالمعجزات، التي من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر، وإظلال الغمام، وإنزال المن والسلوى، وانفجار العيون من الحجر. أو بالكتب المنزلة: كالإنجيل، والفرقان وقتلهم الأنبياء فإنهم قتلوا شعياء وزكريا ويحيى وغيرهم بغير الحق عندهم، إذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم، وإنما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا كما أشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: جرهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات[1].

٢. الكفر بما أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٨٩ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩-٩٠].

فاليهود كفروا حسدًا على خروج النبوة منهم إلى العرب، «والظاهر أن المراد ﴿بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ الغضب الشديد، على حد قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]. أي: نور عظيم»[2].

«إن الحسد ليأكل صدورهم، وإن الشره ليعمي أبصارهم، حتى إنهم ليهلكون أنفسهم، ويحرمونها موارد الخير، لأن غيرهم قد سبقهم إلى هذا الخير ونال منه. وهو خير لا ينفد أبدًا، يسع الناس جميعًا، ومع هذا فهم يريدونه خالصًا لهم من دون الناس، لا ينال أحد شيئًا منه وقد غضب الله عليهم غضبًا بعد غضب، غضب عليهم أولًا، لأنهم عرفوا الحق ولم ينصروه، بل خذلوه ومكروا به وحاربوه وغضب عليهم ثانيًا، لأنهم نقضوا الميثاق الذي أخذه الله عليهم فى الكتاب الذي بين أيديهم، ثم حرفوا فى كتابهم هذا وبدلوا، واستباحوا حرمته، وهذا كفر بكتابهم بعد كفرهم بمحمد وبما نزل عليه. وهذا ما جعلهم بمعرض من غضب الله، حالًا بعد حال، ومرة بعد مرة»[3].

٣. عبادة العجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

---

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٨٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٦٠٦.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١/ ١٩- ١١٠.

وتقرر هذه الآية أن اليهود الذين عبدوا العجل من دون الله، قد استحقوا غضب الله تعالى، وستنالهم الذلة في الحياة الدنيا.

إن الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل إلها ومعبودا بعد غيبة رسولهم موسى عليه السلام، وبقوا على تأليهه واستمروا على عبادته كالسامري وأتباعه، سيصيبهم عذاب شديد من ربهم، وهو المذكور في سورة البقرة، وهو أن الله تعالى لن يقبل توبتهم حتى يقتتلوا، ويقتل بعضهم بعضا: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وسينالهم أيضًا ذلة وصغار في الحياة الدنيا، بخروجهم من ديارهم وتشردهم، وهوانهم على الناس واحتقارهم لهم، وتهالكهم على حب الدنيا، فهم الماديون المنبوذون المكروهون في كل أمة، وتلك هي ذلة عظيمة المعنى وأما قيام دولتهم في فلسطين فهي محنة للمسلمين، فربما أناس سلط عليهم من هو شر لهم، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن بقاء دولة الصهاينة في فلسطين شيء مستحيل، ولا تؤيده الظروف والقرائن المشاهدة، وقد بشرت الأحاديث النبوية بقتلهم وطردهم منها، ولكل أجل كتاب[1].

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٩/ ١٠٦.

٤ . الطغيان.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨٠ - ٨١].

والطغيان هو تجاوز الحد في العصيان[2].

ولا شك أن اليهود قد بلغوا أبعد مدى في الظلم والمعصية، وتجاوزوا في ذلك كل الحدود.

قال ابن عاشور: «والطغيان: أشد الكبر. ومعنى النهي عن الطغيان في الرزق: النهي عن ترك الشكر عليه وقلة الاكتراث بعبادة المنعم. وحرف (في) الظرفية استعارة تبعية شبه ملابسة الطغيان للنعمة بحلول الطغيان فيها تشبيها للنعمة الكثيرة بالوعاء المحيط بالمنعم عليه، والحلول: النزول والإقامة بالمكان شبهت إصابة آثار الغضب إياهم بحلول الجيش ونحوه بديار قوم، وهوى: سقط من علو، وقد استعير هنا للهلاك الذي لا نهوض بعده وهو الهوي من جبل أو سطح بقرينة التهديد»[3].

ثالثًا: المرتدون:

الردة: «هي قطع الإسلام، ويحصل ذلك

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٢٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٢٧٦.



تارة بالقول الذي هو كفر، وتارة بالفعل. والأفعال الموجبة للكفر هي التي تصدر عن تعمد واستهزاء بالدين، صريح كالسجود للصنم أو للشمس، وإلقاء المصحف في القاذورات، والسحر الذي فيه عبادة الشمس ونحوها»[1].

والردة تؤدي إلى حبوط العمل، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

والمرتدون الذين عرفوا الإسلام ثم خلفوه وراء ظهورهم، استحقوا بفعلهم هذا غضب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٧].

«أي: إن من كفر بالله بعد الإيمان والتبصر فعليه غضب من الله إلا إذا أكره على ذلك وقلبه ملىء بالإيمان بالله والتصديق برسوله، فلا تثريب عليه كما فعل عمار بن ياسر، ولكن غضب الله وشديد عقابه لمن طابت أنفسهم بالكفر، واعتقدوه طائعين مختارين، لعظيم جرمهم، وكبير إثمهم. ثم بين سبب هذا الغضب فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ذلك الغضب من الله، والعذاب العظيم من أجل أنهم آثروا الحياة الدنيا وزينتها على نعيم الآخرة»[2].

ويشير هذا النص القرآني «إلى هذا الوعيد الذي توعد الله به سبحانه، أولئك الذين كفروا بعد إيمانهم، وعادوا إلى الكفر الذي كانوا فيه، وأنسوا إليه كما يأنس الغريب بلقاء أهله، بعد غيبة وفراق، فلم يقع في نفوسهم وحشة للكفر، ولا تكره له. فهذا الغضب الذي صبه الله عليهم، وهذا العذاب العظيم الذي أعده لهم، إنما هو بسبب أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وآثروا العافية مع الكفر، على البلاء مع الإيمان»[3].

رابعًا: المنافقون.

«النفاق: هو إظهار الإسلام والخير، وإبطان الكفر والشر. وهو مخالفة الباطن للظاهر، وإظهار القول باللسان، أو الفعل؛ بخلاف ما في القلب من الاعتقاد. والمنافق:

(١) روضة الطالبين وعمدة المفتين، النووي ١٠/ ٦٤.

(٢) تفسير المراغي ١٤/ ١٤٦.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٧/ ٣٧٩.

يخالف قوله فعله، وسره علانيته؛ فهو يدخل الإسلام من باب، ويخرج من باب آخر، ويدخل في الإيمان ظاهرًا، ويخرج منه باطنًا؛ فهذا هو النفاق الأكبر»[1].

فالمنافقون الذين يسعون إلى إضعاف المسلمين والكيد للإسلام وأهله، قد استحقوا غضب المولى عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

«ويلاحظ في الآية تقديم المنافقين على المشركين، وذلك لأن المنافقين أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر، لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه، وهو كان يفشي أسراره، وإلى هذا أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك)[2].

والمنافق على صورة الشيطان فإنه لا يأتي الإنسان على أني عدوك، وإنما يأتيه على أني صديقك، والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه، ولأن المنافق كان يظن أن يتخلص للمخادعة، والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه، فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق»[3].

«وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في صفة ظن السوء بالله وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين. وفي أنهم جميعا ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ فهم محصورون فيها، وهي تدور عليهم وتقع بهم. وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم، وفيما أعده لهم من سوء المصير ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءا، بل إنها أحط ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات، وإن اختلف هذا الأذى وذاك في مظهره ونوعه»[4].

(١) الإيمان، عبد الله بن عبد الحميد الأثري ص٢٤٧.

(٢) قال عنه الألباني موضوع.
انظر: السلسلة الضعيفة ٣/ ٣٠٨ .

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٧٠.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣١٩.

أثر الغضب في الدنيا والآخرة

من خلال تتبع الآيات القرآنية التي أسندت الغضب لله عز وجل، يتبين أنه يترتب على الغضب مجموعة من الآثار في الدنيا والآخرة، وفيما يأتي بيان أهم هذه الآثار:

أولًا: أثر الغضب في الدنيا:

يتضح من خلال الآيات القرآنية التي تحدثت عن الذين وقع عليهم غضب الله تعالى، أن هذا الغضب كان له آثار سلبية في الدنيا على المغضوب عليهم، وأهم هذه الآثار:

١. الذل والهوان.

قال تعالى في شأن اليهود: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وتدل الآيتان السابقتان على أن الذلة ملازمة لليهود أينما حلوا، لا تفارقهم في أي زمان ومكان، والذي ضربها عليهم وأوقعها بهم هو الله الحكيم، وكذلك المسكنة وهي الهوان والضعف والجبن والإذلال، فهم في ذلة ومسكنة، حيثما حلوا وأقاموا، سواء كانوا مضطهدين مستضعفين مطاردين، أو كانوا مسيطرين متمكنين حاكمين، وسواء عاشوا مشتتين في بقاع الأرض، أو كانوا في عز وسلطان وكيان على أرض فلسطين.

«وتوحي لنا كلمة ﴿ثُقِفُوا﴾ المبنية للمجهول أن تاريخ اليهود كله يقوم على المطاردة والملاحقة، فهم دائمًا مطاردين من قبل الأمم والشعوب التي تحرص على أن (تثقفهم) وتدركهم وتمسك بهم، فإذا ما ﴿ثُقِفُوا﴾ فهم في ذلة ومسكنة، وجبن وضعف وهوان قد ينجون من الذلة فترة، وقد ترفع عنهم مدة، ولكن ذلك موقوت محدد قصير، ثم يعودون إلى الذلة المضروبة عليهم، المحيطة بهم، والملازمة لهم»[(١)].

٢. المسخ.

من آثار غضب الله تعالى في الدنيا المسخ، وهذا أيضًا متعلق باليهود الذين غضب الله تعالى عليهم، فكانت النتيجة أن مسخهم قردة وخنازير.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ

---

(١) حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية، صلاح الخالدي ص٩٤.

﴿مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

فهذه العقوبة الإلهية السريعة علامة على الغضب الإلهي على اليهود، يقول الطبري: «وجعل منهم المسوخ القردة والخنازير، غضبًا منه عليهم وسخطًا، فعجل لهم الخزي والنكال في الدنيا»(١).

«وجمهور المفسرين على أن معنى ذلك أنهم مسخوا فكانوا قردة وخنازير حقيقة، وانقرضوا؛ لأن الممسوخ لا يكون له نسل»(٢).

٣. الهلاك.

قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٨١].

ومعنى هوى «أي: تردى وهلك. وقيل: وقع في الهاوية»(٣).

قال الزمخشري: «هوى هلك. وأصله أن يسقط من جبل فيهلك ويقولون: هوت أمه. أو سقط سقوطًا لا نهوض بعده»(٤).

ويرى الزجاج أن الهلاك إنما يكون في الآخرة، يقول في معنى (هوى): «أي: هلك وصار إلى الهاوية، وهي قعر نار جهنم»(٥).

ويرى الباحث أن الهلاك الذي تتحدث عنه الآية يمكن أن يكون في الدنيا ويمكن أن يكون للآخرة، فإن غضب الله تعالى يهلك المغضوب عليه في الدنيا قبل الآخرة.

ثانيًا: أثر الغضب في الآخرة:

توعد الله سبحانه وتعالى المغضوب عليه بالعذاب في الآخرة فقال: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١].

وصيغة ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ تدل على الوعيد بالعذاب.

ومعظم الآيات القرآنية التي تحدثت عن غضب الله تعالى، أشارت لما يترتب على هذا الغضب في الآخرة، وما ينتظر المغضوب عليهم من عذاب يوم القيامة، ونجد أن الآيات القرآنية وصفت هذا العذاب بأنه: عظيم، وشديد، ومهين. وورد الحديث عن عذاب الآخرة في الآيات الآتية:

١ . العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٣٧.
(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٧١.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٣٣.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٧٩- ٨٠.
(٥) معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٣٧٠.

٢. العذاب العظيم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

٣. العذاب الشديد.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٤ – ١٥].

٤. عذاب جهنم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

موضوعات ذات صلة:

الرضا، السماحة، المحبة



الغفلة

عناصر الموضوع

مفهوم الغفلة

أولًا: المعنى اللغوي:

«الغين والفاء واللام، أصل صحيح يدل على ترك الشيء سهوًا، وربما كان عن عمد»[(١)].

وعلى هذا فإن الغفلة تعني في اللغة: الترك والسهو، فيقال: «غَفَلَ عَنْهُ يَغْفُلُ غُفولًا وغَفْلَةً، وأَغْفَلَهُ عَنْهُ غَيْرُهُ وأَغْفَلَهُ: تركه وسها عنه»[(٢)].

وقال الراغب الأصفهاني: «وأرض غفلٌ: لا منار بها، ورجل غفلٌ: لم تسمه التجارب، وإغفال الكتاب تركه غير معجم»[(٣)].

ويتضح مما سبق أن مادة غفل تدور حول معنى: ترك الشيء سهوًا، وإذا أضيفت إليها الهمزة لتصبح أغفل، فإنها تكون بمعنى ترك الشيء عمدًا.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفها الراغب الأصفهاني بأنها: «سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ»[(٤)].

وعرفها الجرجاني بأنها: «متابعة النفس على ما تشتهيه»[(٥)]، ثم ذكر تعريفًا ثانيًا لأحد السلف الصالح، بقوله: «الغفلة: إبطال الوقت بالبطالة»[(٦)].

وعرفها المناوي بأنها: «فقد الشعور بما حقه أن يشعر به»[(٧)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٨٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٤٩٧.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٠٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص١٦٢.
(٦) المصدر السابق.
(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٥٢.

الغفلة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (غفل) في القرآن الكريم (٣٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف:٢٨]
الفعل المضارع	١	﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ [النساء:١٠٢]
اسم الفاعل	٢٨	﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤]
مصدر	٥	﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء:١]

وجاءت الغفلة في القرآن بمعناها في اللغة، وهي مصدر غفل، أي: ترك الشيء سهوًا، وربما كان عن عمد[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥٠٣.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٣٨٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ السهو:

السهو لغةً:

هو النسيان والغفلة، وحملت المرأة ولدها سهوًا، أي: على حيض، والسهو: السكون، والمساهاة: حسن المخالقة[(١)].

السهو اصطلاحًا: «ذهول عن المعلوم إن خطر على البال، ويتنبه صاحبه بأدنى تنبيه»[(٢)].

الصلة بين السهو والغفلة:

من خلال التعريفين: اللغوي، والاصطلاحي للسهو يتبين صحة ما ذهب إليه الأحمد نكري بأن السهو حالة متوسطة بين الإدراك والنسيان[(٣)]، أما الغفلة فقد تكون عن إدراك أو نسيان أو حالة متوسطة بينهما، وعلى هذا فإن الغفلة أشمل من السهو.

٢ النسيان:

النسيان لغة:

ترك الإنسان ضبط ما استودع؛ إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصدٍ؛ حتى ينحذف عن القلب ذكره[(٤)]. فالنسيان ضد الذكر والحفظ، والنسيان: الترك والتضييع والتفريط[(٥)].

النسيان اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النسيان والغفلة:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للنسيان يتبين أن النسيان هو الغفلة عن الذي لا يأثم عليه المسلم، ولا يثاب على تركه أيضًا، أما الغفلة فقد تكون عن إدراك أو نسيان أو حالة متوسطة بينهما، وعلى هذا فإن الغفلة أشمل من النسيان.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٢٩٨، مجمل اللغة، ابن فارس ص٤٧٥.
(٢) مقاليد العلوم، السيوطي ص٦٥.
(٣) انظر: جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ٢/ ١٣٩.
(٤) المفردات ٢/ ٦٣٤.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٥٥، إصلاح الوجوه والنظائر ص ٤٥٤-٤٥٥، نزهة الأعين النواظر ص ٥٧٩-٥٨٠.

٣ الذكر:

الذكر لغة:

«ضد النسيان، ذَكَرْتُ الشَّيءَ أَذْكُرُهُ ذِكْرًا وذُكْرًا، وهُوَ مِنِّي عَلَى ذِكْرٍ وعَلَى ذُكْرٍ، والضم أعلى، وذكرته ذكرًا حسنًا. وذكَّرتُكَ الله أن تفعل كذا وكذا كالقسم»[١].

الذكر اصطلاحًا:

استحضار الله تعالى في سكنة من السكنات، أو في حركة من الحركات.

الصلة بين الذكر والغفلة:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للذكر يتبين أنه مرتبط بالغفلة، من حيث إن من ترك الذكر فقد دخل في وحل الغفلة، التي هي محل ترك معية الله تعالى ونصرته، أما الغفلة فهي متابعة النفس على ما تشتهيه، فلا يتداخل الذكر مع الغفلة، فهما نقيضان.

٤ السمد:

السمد لغةً:

اللهو، فالسامد هو اللاهي؛ لأن اللاهي يمضي في أمره غير معرجٍ ولا متمكثٍ[٢].

السمد اصطلاحًا:

لهوٌ يعترض من يمضي في طريقه غير متريث ولا عالم بما يريد، ولا ما سيحل له.

الصلة بين السمد والغفلة:

من خلال التعريفين اللغوي والاصطلاحي للسمد تبين أنه يفيد اللهو بسبب عدم معرفة الواقع، وعدم معرفة عواقب الأمور، أما الغفلة فقد تكون عن إدراك أو نسيان، أو حالة متوسطة بينهما، وعلى هذا فإن الغفلة أشمل من السمد.

(١) جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٦٩٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٠٠.

نفي الغفلة عن الله سبحانه

نزه الله تعالى نفسه الكريمة عن الغفلة في كتابه، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: حفظ الله لأعمال العباد:

ورد في القرآن الكريم ما فيه تنزيه لله تعالى عن غفلة أعمال العباد في الدنيا، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٠].

فقد زعمت اليهود والنصارى أن هؤلاء الأنبياء -عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- كانوا هودًا أو نصارى، فيخاطب الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم؛ ليقول لهم: هل أنتم أعلم بهؤلاء الأنبياء أم الله تعالى المنزه عن كل نقص. ثم تبين الآية الكريمة -بصيغة الاستفهام التقريري- أنه ليس هناك أظلم ممن كتم الإسلام وهو يعلم أنه دين الله تعالى، وكتم محمدًا صلى الله عليه وسلم وهو يعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاليهود والنصارى يجدون ذلك مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ومع ذلك يتبعون الأهواء[1]، وجاءت الفاصلة في الآية الكريمة بالنفي المحض للغفلة في حق الذات العلية المنزه عن أية منقصة، ولعل السبب في التذييل بنفي الغفلة عن عملهم أنهم لم يكتفوا بالقول والكتم في القلب؛ بل إن ذلك الافتراء منهم تعدى إلى جوارحهم، والله أعلم.

وقد وردت آية كريمة تبين أن الله تعالى قد جعل درجات لعمل الخلق، وأنه ليس بغافل عنهم، وهي قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٣٢].

والمعنى: إن الآية السابقة بينت أن الله تعالى لا يهلك أمة بظلم فعلته وهم غافلون، وليس ربك الله المالك المتصرف في شؤون خلقه بغافلٍ عما يعمل خلقه من الثقلين: الإنس والجن، فيجزي من استحق النار بالنار، ويثيب من استحق الجنة بالجنة رحمةً منه -تبارك وتعالى-، والدليل على أن الجن لهم ثواب وعقاب الإنس نفسه هو قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٨-١٩][2].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١/٢٤٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، حيث قرأ ابن عامر وحده: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على الخطاب، وقرأ الباقون: ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وحجة كافة القراء عدا ابن عامر أن الآية السابقة في سياق الغيبة(١).

ثانيًا: توفية الجزاء من الله لعباده:

وقد ورد في القرآن الكريم ما يثبت أن الله تعالى يوفي الجزاء لعباده على جميع الأعمال خيرها وشرها، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فإن هذه الآية الكريمة وردت في سياق الحديث عن بني إسرائيل، حيث أخذ الله عليهم العهد الموثق بالأيمان ألا يسفك بعضهم دماء بعض، وألا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، ثم أقروا على أنفسهم، وحال يهود عصر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أنهم يشهدون على هذا الإقرار، وقد وردت في سياق شهادة هؤلاء اليهود في عصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على هذا الميثاق الذي أخذ على أسلافهم، تأنيبًا لهم على تضييع أحكام ما في أيديهم من التوراة التي كانوا يقرون بحكمها، ثم هم أمام هذا العهد الموثق بالأيمان (الميثاق) ينقضونه بطريقة سيئة، ولا يلتزمون بأيٍ من بنوده، وليس الأمر إلى هذا الحد، بل إنهم يعلقون هذا الإخلال بأنه -زعمًا منهم- حكم التوراة، والله تعالى يسألهم؛ تأنيبًا لضمائرهم: أفتؤمنون ببعض التوراة، وتكفرون بالبعض الآخر، فتؤمنون بمفاداة الأسرى التي في التوراة، ولكن في التوراة أيضًا عدم القتل لأنفسهم، وعدم الإخراج من الديار، من يشرك بالله تعالى، ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض من عرض الدنيا، فبهذا كله يكفر اليهود رغم أنه في التوراة أيضًا، وهم يعلمون ذلك(٢).

ويبين الله تعالى أن من يفعل فعلة بني إسرائيل القدامى، كما فعل اليهود في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم حينما غدروا ونكثوا عهودهم، فإن لهم عقوبة الخزي في الحياة الدنيا، كإخراج بني النضير إلى الشام، وقتل بني قريظة، وقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم، والأمر الأصعب هو أن

٧/ ٨٧، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٥٩.

(١) انظر: حجة القراءات، ابن زنجلة ص٢٧٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٠٣، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ١٥٧.

الذي أصابهم في الدنيا من الخزي والعقوبة لم يكن كفارة لذنوبهم ولكنهم: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ ولا يخفى على الله تعالى من أعمالهم شيء، فيجازون بأعمالهم.

ثم تستأنف الآية التالية لها ببيان صفاتهم، ومن ثم حالهم، بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ يعني: اختاروا الدنيا على الآخرة؛ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: ليس لهم مانع يمنعهم من عذاب الله تعالى في الآخرة[1].

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٧١، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ١٠٤.

أنواع الغفلة

ذكر القرآن الكريم نوعين من الغفلة: الغفلة الممدوحة، والغفلة المذمومة، وسوف نتناولهما بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الغفلة الممدوحة:

الغفلة إذا أطلقت فإنها تعني تلك الصفة المذمومة التي هي السهو والنسيان وقلة من التحفظ والتذكر، لكن القرآن الكريم بين أن الطهارة والعفة هما بمثابة غفلة عن الحرام وغضب الله تعالى، كما ورد ذلك في شأن المؤمنات الطاهرات اللاتي يقع عليهن الإيذاء من الأفاكين الذين يشيعون الفحشاء والمنكر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

وهذه الآية تأتي في سياق بيان طهارة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فبعد أن ذكرت الآية السابقة تحبيب العفو والصفح من أبي بكر الصديق رضي الله عنه على مسطح؛ رجاء مغفرة الله تعالى ورحمته، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يكرمه بما أعطاه الله، وحينما قذف ابنته زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمنا عائشة رضي الله عنها، وأقيم عليه حد القذف، منعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه

من عطاء الله الذي آتاه، فلما نزلت الآية الثانية والعشرون من السورة قال: بلى أحب أن يغفر الله لي، ورجع إلى وصل مسطح، ثم تأتي الآية التالية؛ لتبين أن من يقذف الطاهرات العفيفة كأم عبد الله عائشة رضي الله عنها فعليه لعنة في الدنيا والآخرة، ويضاف إلى اللعنة ﴿عَذَابٌ﴾، وصفته الآية بأنه ﴿عَظِيمٌ﴾.

ورغم أن هذه الآية الكريمة نزلت في حق أمنا عائشة رضي الله عنها، إلا أنها عامة في حق كل غافلة عن الفواحش، وعقاب من يقذفهن[(١)]؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ابتلي هذا الابتلاء العظيم في أهل بيته؛ لتترسخ في شريعتنا مبادئ الغفلة المحمودة، الدالة على سماحة الإسلام الحنيف، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يتهم في عرضه، فعائشة رضي الله عنها زوجه، وأبوها الصديق، ومن اتهمت فيه لم يعهد عليه إلا كل خيرٍ، والصحابة رضي الله عنهم في حيرة من أمرهم، والوحي انقطع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرًا.

إن كل أحداث ذلك الابتلاء إنما كان لأجل ترسيخ المبادئ العامة للغفلة المحمودة، التي تظل فاعلةً في كل زمان ومكان، ومن هذه المبادئ:

١. **أن يترسخ في القلوب والأذهان بأن ذلك الابتلاء هو عين الخير.**

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَآءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

فقد سمي من هؤلاء الذين جاؤوا بالإفك: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش[(٢)].

ومع ذلك فإن هؤلاء الصحابة استمروا على إيمانهم، ويوصفون بأنهم الرعيل الأول، وهذا يعلم الأمة جميعًا أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وأنه ليس بأفضل من طاعة الله تعالى فيمن عصى الله في ذلك المطيع، كما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مع من رموا أم المؤمنين رضي الله عنها وصفوان بن المعطل رضي الله عنه، وكما كان من أبي بكر الصديق رضي الله عنه في التعامل الطيب الكريم مع مسطح بن أثاثة بعد الخطاب القرآني: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢][(٣)].

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٨١، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٨/ ٥٠٥٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٦٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١١٩.

(٣) انظر: فتح البيان، صديق خان ٩/ ١٨٩.

وإن مثل هذا الخلق الرفيع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه إنما له صفة التغافل في القلب واللسان لمصلحة الدعوة الإسلامية، وهو جزء لا يتجزأ من الغفلة المحمودة.

٢. حسن الظن برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهل بيته، والمؤمنين بعضهم لبعض.

قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

وهي معاتبة إلهية لأولئك المؤمنين؛ لأنهم لم يتحركوا التحرك الذي ينشر حسن الظن برسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته والمؤمنين جميعًا، فلو أنهم بمجرد سماعهم لهذا الخبر أحسنوا الظن بإخوانهم كلهم خيرًا، وبينوا أن هذا الحدث إنما هو كذبٌ بين، ويبين الله تعالى أن ذلك التصرف الذي كان يتوجب على المؤمنين بدهيٌ ولا يحتاج إلى مزيد كلفة من التفكير؛ فلا يوجد أربعة شهداء، فإذ لم يوجد شهداء فمن قذف هو الكاذب[(١)].

ولا شك أن هذا الأمر هو من أهم مبادئ وأسس الغفلة المحمودة، فإحقاق الحق وإبطال الباطل إنما ذلك إغفال للشر، وإظهار الخير، كما أن القرآن الكريم يبين أن المؤمنين بسبب سلبيتهم وغفلتهم عن ذلك الدور المنوط بهم، فقد وقعوا في الحرج في أخص خصوص الدين، وهو عرض الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وهذا يعلم المؤمنين جميعًا على اختلاف أزمانهم وأماكنهم أن يقوموا بواجبهم في الدفاع عن الدين، وليس بردود الأفعال التي قد تكون ملاحقة لخيوط الشر، ومن ثم الوقوع في فخوخه.

وأما تفسير قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧].

فقد ذكر القرآن الكريم أن من وقفوا موقف الحديث بغير علم والتكلم باللسان دون التفكير بالقلب تجاه هذا الانتهاك الصارخ تجاه عرض الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، بأنهم يذكرهم الله تعالى بآيات الكتاب المبين؛ حتى لا يعودوا لمثل الفعل الذي فعلوه، ثم تذيل الآية بأسلوب الإلهاب والإغراء لصفة الإيمان، فيقول تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: إن كنتم تعتبرون وتتعظون بعظات الله تعالى، وتأتمرون لأمره، وتنتهون عن نهيه[(٢)].

فإن كنتم كذلك فلا تعودوا لما وقعتم به. وعدم الشعور الصادق بحجم مصاب المسلمين هو بحد ذاته غفلة؛ ولذلك وجد

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣/ ٢٢٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٣٣.

من الصحابة من تحرك تجاه هذا المصاب الأليم، وهذه بعض مواقف منهم:

الموقف الأول: شهادة أسامة بن زيد رضي الله عنه بأنه لم يعلم عنها إلا كل خير، فقد جاء في صحيح البخاري: (فأما أسامة فقال: أهلك ولا نعلم إلا خيرًا)[(١)].

الموقف الثاني: موقف الجارية بريرة، وذلك فيما روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حيث قالت: (وقالت بريرة: إن رأيت عليها أمرًا أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن، فتأكله)[(٢)].

الموقف الثالث: قول الرسول صلى الله عليه وسلم عمن آذاه في أهل بيته، وردة فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قال عليه السلام: **(من يعذرنا في رجلٍ بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت من أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا)**[(٣)].

إن كل ما حدث في هذه الحادثة الصعبة على المسلمين عامةً، إنما كانت بتقدير الله تعالى وعلمه؛ حتى تترسخ في الأذهان والقلوب وجوب الذب عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، ومن ثم التقدير والتبجيل والاحترام لهم في شتى المنابر، ومن أعظم أنواع الاحترام لهم السير على نهجهم، فهم السلف الصالح، وهم خير القرون، وإن اتباع هذا المنهج، والانسلاخ عن منهج الباطل والإغفال عنه، هو قمة الالتزام بشرع الله تعالى.

ثانيًا: الغفلة المذمومة:

سبقت الإشارة أن الغفلة في السياق القرآني -غالبًا- تكون مذمومة، باستثناء ما ذكر في ذلك الكلام السابق، وسيتم التركيز -إن شاء الله تعالى- فيما سيأتي على أنواع الغفلة المذمومة، وذلك كالآتي:

٣. الغفلة عن التفكر في آيات الله الكونية والشرعية.

ورد ذلك في آيات، منها: قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

والمعنى: رغم كل الآيات الكونية والشرعية التي نزلت إلى فرعون وقومه، بما من شأن أي إنسان يراها ويلمسها أن يؤمن بالله تعالى، إلا أنهم بارزوا الله تعالى بالكفر،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب إذا عدل رجل أحدًا، فقال: لا نعلم إلا خيرًا، أو قال: ما علمت إلا خيرًا ٣/ ١٦٧، رقم ٢٦٣٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب إذا عدل رجل أحدًا، فقال: لا نعلم إلا خيرًا، أو قال: ما علمت إلا خيرًا ٣/ ١٦٧، رقم ٢٦٣٧.

ونكث العهود لمرات عديدة، فاستحقوا النكال، بانتقام الله تعالى منهم انتقامًا ليس كذلك الذي كان الله تعالى يؤذيهم به، بل انتقام إهلاك؛ لأنهم وصلوا إلى محض العناد، وهذا الانتقام هو الإغراق في البحر؛ بسبب أنهم كذبوا بآيات الله تعالى الشرعية والكونية، على ما لها من العظمة بما عرف من صحة نسبتها إلى الله تعالى، ودل سبحانه على أنهم كذبوا بغير شبهةٍ عرضت لهم، بل عنادًا بقوله: ﴿وَكَانُوا﴾ أي: جبلةً وطبعًا عن هذه الآيات ﴿غَٰفِلِينَ﴾، فحالهم بعد هذه الآيات التي نزلت، كحالهم قبلها؛ فكأن هذه الآيات لم تأتهم أصلًا، فاستحقوا الأخذ بالعقاب[1].

٤. الغفلة عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء.

ورد ذلك في آيات، منها: ما ورد في كتاب الله تعالى ما يبين أن الكفار يقتصر فهمهم على ظاهر الحياة الدنيا، وأن الآخرة ليست في حسابات هؤلاء الكفار، فهم عنها غافلون، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

فقد بين الله تعالى في الآيات السابقة أنه وعد المؤمنين بنصر الله، وأن وعد الله لا خلف فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة هذا الوعد، وتبين هذه الآية سبب عدم علمهم بوعد الله تعالى، وهو أن «علمهم منحصرٌ في الدنيا، وأيضًا لا يعلمون الدنيا كما هي، وإنما يعلمون ظاهرها، وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها»[2]، وهم عن الدار الآخرة غافلون غفلةً هم سببها؛ إذ إن جميع جوانب الهداية حاصلة عندهم، وفي ذاكرتهم، ومع ذلك فإنهم قد آثروا أن يكونوا في غفلةٍ عن الخير؛ بدافع أهوائهم[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

ورد في تفسيرها حديث شريف، وهو ما أورده أبو سعيدٍ الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: وهل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، و يا أهل النار خلودٌ فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٤٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٨١.

(٣) انظر: المصدر السابق.

﴿غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩]. وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩])[1].

وفي رواية مسلم: (وأشار بيده إلى النار)[2].

وهذا التفسير يبين خطر الغفلة التي تحل على من يقضي حياته في غير الإيمان بالله، بل ولربما يكذب ويحارب هذا الغافل دين الله تعالى، فربط الغفلة بالآخرة أمر مهم؛ حتى يذكر هذا الغافل بالله تعالى، وأنه سيبعث بعد موته لهذه الدار الآخرة: إما إلى جنة أو إلى نار، وعندما يذبح الموت، ويخلد من استقر في النعيم على ما هو عليه، فلا موت لنعيمه فضلًا عن حياته، وهكذا أهل النار يخلدون فيها، فلا موت لتعذبهم فضلًا عن حياتهم.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يبين اقتراب الوعد الحق الذي هو القيامة، مع بيان طبيعة حال الكافرين يومئذٍ وتحسرهم؛ لأنهم كانوا في غفلة من ذلك اليوم، واعترافهم الواضح بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم، ومتجاوزين لكل الحدود، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

يا ويلنا قد كنا نغفل عن ذلك اليوم رغم أنه الحق، بل إننا كنا ظالمين لأنفسنا بمعاصينا، ووضعنا العبادة في غير مواضعها[3].

ومن المعلوم أن هذه الآية ذكرت في سياق بيان حكمة الله تعالى في خلقه الكافرين الذين حق عليهم الهلاك، فهم لا رجعة لهم إلى الدنيا، ثم بيان بعض علامات الساعة، ومنها يأجوج ومأجوج الذين هم من كل حدب ينسلون، فإن هذه الشواهد وغيرها مما ذكر سابقًا في الآية المذكورة يدلل على مدى الغفلة التي وقع فيها أولئك الكافرون، فلم يملكوا إلا الاعتراف الصريح بغفلتهم وعدم انتباههم لكل الإشارات التحذيرية التي كانت تساق إليهم؛ لعلهم يرجعون عن ظلمهم وتجاوزهم للحدود.

وأما قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

فهذه الآية توضح أن الإنسان الكافر بعد أن يرى بعضًا من أهوال يوم القيامة يخاطبه الله تعالى بقوله: «لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم -أيها الإنسان- من الأهوال والشدائد، ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وأنذرهم يوم الحسرة)، ٦/ ٩٣، رقم ٤٧٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم ٢٨٤٩، ٤/ ٢١٨٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٤٢، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٨٨.

يقول: فجلينا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك، حتى رأيته وعاينته، فزالت الغفلة عنك»[1].

٥. الغفلة عن الذكر وتدبر كتاب الله تعالى.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يبين خطر الغفلة عن الدعاء الذي هو العبادة والذكر في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

فلا أحد أشد ضلالة من الذي يدعو من دون الله تعالى «حجرًا لا يستجيب له إذا دعاه أبدًا، ولا ينفعهم، وتلك الحجارة التي يعبدونها غافلة عن دعاء هؤلاء الكفار، لا تعقل ولا تفهم»[2].

إن هذه الآية الكريمة بينت وحذرت أولئك الغافلين بأن ما يعبدون من دون الله تعالى هي أصلًا غافلة عما يدعو هؤلاء الكفار، فإنهم قد فعلوا ما ينكره العقل ابتداءً فضلًا عن عدم تلبيتهم نداء ربهم، فإن هؤلاء الكفار قد دخلوا في وحل الغفلة من أوسع أبوابها، فاستحقوا أن يوصفوا بأنهم أشد الخلق ضلالةً.

٦. الغفلة عن عهد الله تعالى وميثاقه.

وقد ورد ذلك جليًّا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٤].

فإن هذه الآيات الكريمة تبين الميثاق الأول الذي أخذ على بني آدم، وهم في عالم الذر، فيقول الله تعالى: واذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم حين «استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به»[3].

فقال الله تعالى لهم: ألست بربكم الذي يستحق العبادة وحده؟ فقالوا جميعًا: بلى، شهد بعضنا على بعض، فأقروه بذلك والتزموا، ثم يذكر الله تعالى عذرين باطلين لهما، الأول: القول من المقرين بوحدانية الله تعالى إنا كنا لا نعلم ذلك، وكنا في عدم انتباه من ذلك، فهذا باطل؛ لأنهم مشهود عليهم بما أقروه وهم في عالم الذر؛ فهم مولودون على هذه الفطرة، ولا مجال لهم للتذرع بالغفلة. والعذر الآخر قول هؤلاء المقرين في عالم الذر بوحدانية الله تعالى: إنما ولدنا فوجدنا آباءنا مشركين، فاتبعنا منهاجهم، أفتهلكنا يا ربنا بإشراك من أشرك

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٥٠.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٦٨١٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٢٢.

من آبائنا، واتباعنا منهاجهم على جهل منا بالحق؟!(1).

٧. الغفلة عن تربص الأعداء.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

أخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي عن أبي عياش الزرقي قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان، فاستقبلنا المشركون، عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم الظهر، فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاةٌ هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم. قال: فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذوا السلاح، قال: فصففنا خلفه صفين.

قال: ثم ركع وركعنا جميعًا، ثم رفع، فرفعنا جميعًا، ثم سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالصف الذي يليه، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا، جلس الآخرون، فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، قال: ثم ركع، فركعوا جميعًا، ثم رفع، فرفعوا جميعًا، ثم سجد النبي صلى الله عليه وسلم والصف الذي يليه، والآخرون قيامٌ يحرسونهم، فلما جلس، جلس الآخرون فسجدوا ثم سلم عليهم، ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين: مرة بعسفان، ومرة بأرض بني سليم)(2)(3).

ومن الآية وسبب نزولها تعرف كيفية صلاة الخوف، ويتبين أيضًا أن من أساسيات الالتزام بالدين ألا يغفل المؤمن عن تربص الأعداء؛ ولذا شرعت صلاة الخوف لأهداف عظيمة، منها: اغتنام فرصة وجود

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢١٨.

(٢) أخرجه الإمام في مسنده، ٢٧/ ١٢٠، رقم ١٦٥٨٠، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، تفريع صلاة المسافر، باب صلاة الخوف، ٢/ ١١، رقم ١٢٣٦، والنسائي في سننه، كتاب صلاة الخوف، ٣/ ١٧٦ رقم ١٥٤٩.
قال محقق المسند: «إسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشيخين، غير أن صحابيه لم يخرج له سوى أبي داود والنسائي».

(٣) المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد المزيني ١/ ٤٣٤.

النبي محمد صلى الله عليه وسلم في المعركة، ومن ثم الفوز بالجماعة خلفه، ومن الأهداف: بيان أهمية الجماعة حتى في المعارك، ولكن في حالة الخوف، بكيفية تضمن -بعد توفيق الله تعالى- عدم ميل الأعداء على المؤمنين ميلةً واحدةً، ومن هنا يتبين أن الغفلة عن تربص الأعداء مذمومة بكل المقاييس، وليس أدل على هذا من تذييل الآية بقوله: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ ثم بيان أن الله تعالى أعد وهيأ للكافرين عذابًا سيهينهم بإذنه تعالى[(١)].

إن أعداء الله تعالى قد دأبوا على النيل من الموحدين، فهم يسعون لإضعاف المؤمنين، والاجتهاد في نزع سلاح المجاهدين، الذين هم تحت راية الإمام، والذين هم يدافعون عن دين الله تعالى؛ ولذا فإن الله تعالى شرع صلاة الخوف، وبين خطر الغفلة عن السلاح؛ حتى لا يقع المسلمون فريسةً سهلة للكفار.

يقول تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

٨. الغفلة عن الاعتبار من سير السابقين.

إن قصص القرآن وكذلك أمثاله وأقسامه دلت باستفاضة على وجوب الاتعاظ، وإن من أعظم ما دل على ذلك قوله تعالى عن فرعون وجثته: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

حيث إن هذه الآية دلت على أن غالبية الناس يغفلون عن آيات الله تعالى التي هي مدعاة للحجر والشجر أن يصدع لها من خشية الله تعالى، رغم أن قصة فرعون وبقاء جثته خير دليلٍ وآيةٍ على قدرة الله تعالى.

٩. الغفلة عن حسن التعامل مع الخلق.

وقد ورد ذلك جليًّا في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

حيث يأمر الله تعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يستفهم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لغرض الزجر والاتعاظ: فلم هؤلاء يصدون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا سئلوا عنه، قالوا: لا نجده، كذبًا منهم وصدودًا، وهم يرجون بمكة غير الإسلام؛ بل يريدون لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم هلاكًا؟![(٢)].

والمشكلة فيهم، هي أنهم يشهدون على ذلك الصد والافتراء؛ ولذلك حسن أن تكون الخاتمة بتنزيه الله تعالى عن الغفلة؛

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٦١.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٧١٧.

لأن أهل الكتاب غارقون في الغفلة، غير متنبهين لما سيؤولون إليه من العناء والشدة، إن هم أصروا على إجرامهم.

اسناد الغفلة للرسول الكريم

تنبغي الإشارة إلى أن الغفلة المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليست تلك التي يحاسب المرء عليها، أو التي هي منقصة تحل بالمرء إن وصف بها، فهي خارجة عن إرادة البشر ومعرفتهم عمومًا؛ إذ إنها مرتبطة بالفطرة من جهة، وبما حدث قبل ولادته صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى.

وسنذكر -إن شاء الله- آيات الغفلة المنسوبة إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، من خلال ثلاث نقاط، وذلك فيما يأتي:

١. **الغفلة قبل إرساله صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه.**

وقد ورد ذلك جليًّا في قوله تعالى: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

فإن سورة يوسف عليه السلام من أولها إلى نهايتها تتحدث عن قصة ذلك النبي الذي خلد القرآن الكريم ذكره في اسم هذه السورة، فإن هذه الآية تذكر أن الله تعالى القدوس يقص على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن ثم على أمته أحسن القصص من خلال هذا القرآن الكريم الموحى إليه،

ثم تأتي الفاصلة ببيان أن هذه القصص الفضلى في حسنها وإحكام دلائلها وعبرها، ما كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليتبه إليها، أو أن يعلمها إلا بعد ذكرها في القرآن الكريم[1]، فإن هذه الآية الكريمة تبين أن الغفلة مفهوم دقيق، ينتسب إليه كل الخلق، ولو نجا منه أحدٌ لكان الأولى بذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، مع التذكير بأن غفلة الرسول صلى الله عليه وسلم مما لا يحاسب عليه الخلق، ولا ينسب عيبًا.

وقد بينت آية أخرى أن مما غفل عنه الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة دقائق ما ذكره القرآن الكريم قبل إنزاله؛ لبيان عجز الخلق، وأنه ما علا شأن مخلوق فإنه يبقى بحاجة إلى خالقه.

فقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وتبين هذه الآية الكريمة أن أعظم طرق الوصول إلى الله هو التمسك بذلك القرآن الكريم الذي هو روحٌ من لدن رب العالمين، فهو الهادي للتي هي أقوم، فقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم غافلًا عن ذلك القرآن وذلك الإسلام، ولكنه ضياء من الظلمات بشتى صورها؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم ملتزم بتبليغ دعوة الله تعالى بما في ذلك النور الذي يشع من القرآن الكريم، فقد وصف صلى الله عليه وسلم بأنه يرشد إلى الاستقامة[2].

٢. نهيه عليه السلام ومن تبعه عن الغفلة.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدلل على أن الله تعالى نهى سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم عن الغفلة بشتى صورها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

حيث أمرت الآية السابقة المؤمنين كافة أن يحسنوا الاستماع والإنصات للقرآن الكريم إذا قرئت آياته المتلوة، وبينت أن ذلك سبب الرحمة الواسعة من الله تعالى، وتأمر هذه الآية الكريمة الرسول محمدًا صلى الله عليه وسلم ومن ثم جميع أمته أن يستحضروا الله تعالى في أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، وأن تكون حال ذلك الاستحضار بتضرع وخيفة، وأيضًا تكون القراءة غير مجهور بها في فترة الغدو والآصال، ثم تذيل الآية بنهي الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ثم أمته

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٧٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ١٧٤.

عن الغفلة، فإن ترك الذكر غفلةٌ[1]، والنهي للرسول صلى الله عليه وسلم عن الغفلة لا يقتضي أنه صلى الله عليه وسلم قد وقع بها؛ وإنما يأتي التحذير لبيان أن القدوة الحسنة المعصوم إذا كان منهيًّا عن تلك الغفلة، فمن باب أولى أن تنتهوا أيها الناس عمومًا عنها.

٣. نهيه عليه السلام ومن تبعه عن اتباع الغافلين.

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية والتي قبلها، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: جاء المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس وأهاليهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس، ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم -يعنون سلمان، وأبا ذر، وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها- جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والتي قبلها، والتي بعدها[2]، وعلى هذا فإن الآية تأمر رسولنا محمدًا صلى الله عليه وسلم، بأن يحبس نفسه مع هؤلاء الفقراء الداعين إلى الله تعالى حبس ملازمة لهم، فهم الذين لا ينفكون عن الدعاء إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا، يبتغون وجه الله تعالى، ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ أي: لا تعرض عنهم، ولو بأن تنتبه إلى غيرهم تريد زينة زائفة من هؤلاء المستكبرين الكفار[3].

يقول ابن عاشور: «وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا هممهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة، وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية، فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة، وجعلوا هممهم الصور الظاهرة»[4].

ثم يذكر القرآن الكريم في آية قرآنية أخرى ما يحصن هؤلاء المستضعفين، وبقاءهم في حصن الدعوة، وذلك بأسلوب النهي عن طردهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٤٧.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٢٩٧، لباب النقول، السيوطي ص١٣٠.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦٣.

(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٣٠٥.

حيث تنهى هذه الآية الكريمة نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يطرد الفقراء المسلمين الداعين إلى الله تعالى صباح مساء مبتغين وجه الله تعالى عن مجالسته، فكلٌّ له حسابه عند الله تعالى، ولست من يحاسبهم، أو يحاسب عنهم، فإن طردتهم فإنك ساعتها تكون من الظالمين[1].

ولا شك أن هذه الألفاظ صعبةٌ على النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم لمجرد أن نفسه حدثته بمجاملة سادة قريش طمعًا في إسلامهم، ومن هنا يتبين أن الغفلة باب واسع، قد يقع به خير الناس إن اجتهد في خدمة الدعوة وأعمل عقله لحظةً، وجامل من لا يستحق المجاملة، أو انفك عمن يؤمر الداعية بملازمته من أولئك الداعين إلى الله تعالى، الغيورين على دينه؛ ولذلك فإن كلمات الآية حاسمة في وجوب الانفكاك عمن أغفل الله تعالى قلبه عن ذكر الله تعالى، وكان أسير هواه، وكان أمره ضياعًا[2].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٥٧.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٥٨.

أسباب الغفلة

سبقت الإشارة إلى أن الغفلة في عمومها مذمومة، وأنها نقيض ذكر الله تعالى، وينجم عنها كثير من المتاعب وإحلال غضب الله تعالى، ومن ثم عقابه، وسنستعرض -إن شاء الله تعالى- الأسباب التي تؤدي إلى الغفلة؛ حتى ينتبه لها، ويحذر منها، وهي تتلخص في سبعة أسباب:

١. الكفر.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدلل على ذلك صراحةً، في قوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس: ٦].

فقد ذكرت الآيات السابقة أن الله تعالى خاطب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم مقررًا أنه من المرسلين، وأنه على صراط مستقيم، فهو الهادي إليه بإذن ربه تعالى؛ لأن هذا الصراط المستقيم الذي هو منهاج ودين، إنما هو منزلٌ من الله العزيز الرحيم؛ ثم تبين هذه الآية الكريمة أن هذا المنهاج المنزل من العزيز الرحيم إنما هو ليحذر العرب الذين لم يأت إليهم من ينذرهم ويحذرهم مما هم فيه من غرق في الكفر، من عبادة الأصنام والأوثان وعدم وجود شريعة الله تعالى بينهم[3]، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وفي الشريعة: عبارة

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٦٣.



عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، وقيل: هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد[1]، فلما كانت تلك حالهم، وصفهم الله تعالى بأنهم غافلون غير متنبهين لسبب وجودهم، ولا لعاقبة أمرهم، وهذه الآية هي شاهدٌ على أن الكفر سبب للغفلة في عمومها، رغم أن العرب كانوا جهلةً لا يعرفون، إلا أن هذه الآية تبين جانبًا تأصيليًّا تعريفيًّا، وليس الحكم على العرب بعيب عندهم فحسب، وما يدل على ذلك الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

٢. الظلم.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[البقرة: ١٤٤-١٤٥].

وإن هذا الخطاب القرآني يبين أن الله تعالى قد رأى كثرة توجه النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء لعل سيدنا جبريل عليه السلام يأتي بخبر من الله تعالى يأمر بتحويل القبلة؛ حيث إن حبها للنبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن عاطفيًّا؛ لكنه كان حبًّا شرعيًّا بعدما عيرته اليهود بأنه لجأ إلى قبلتهم، واتخذت ذلك فرصةً للصد عن النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته الربانية، ولما كان هذا التوجه من القلب والجوارح فقد استجاب الله تعالى لنبيه طلبه الذي لم ينطق به تأدبًا منه عليه السلام، فقد كان يقلب وجهه إلى السماء، فتم تحويل القبلة، ثم بين أن أهل الكتاب يعلمون علم اليقين بأن ذلك حقٌّ من عند ربهم.

وذيلت الآية الكريمة بتنزيه الله تعالى عن الغفلة عما يعمل أهل الكتاب من تحريض على دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته، وهذا التذييل يدلل على مدى الغفلة التي يعيشها أهل الكتاب؛ فرغم أنهم يعلمون علمًا لا شك فيه ولا ريب، بأن ما حدث هو من عند الله تعالى، وأن الدعوة إلى الله تعالى أصلًا هي من عند ربهم، إلا أنهم غفلوا عن معرفة ما سيؤولون إليه من غضب الله تعالى، ومن ثم عقابه.

ثم تأتي الآية الكريمة لتفصل غفلتهم الكبيرة، وهي متابعة النفس لما تشتهيه، فهم إن جاء إليهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بكل معجزةٍ دالةٍ على نبوته ما توجهوا إلى

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٤٤.

القبلة نحو المسجد الحرام؛ لأنهم يعلمون -بدون معجزات- أنه صلى الله عليه وسلم على حق، ولكنهم لا يريدون التبعية له صلى الله عليه وسلم، فهم قد استغلوا توجه النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى القبلة نحو المسجد الأقصى ليبينوا أنه تبعٌ لهم.

ثم تذيل الآية الكريمة ببيان أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم إن اتبع أهواءهم، فصار يبحث عما يرضيهم، رغم أن الله تعالى قد بين له صلى الله عليه وسلم كل الدلائل التي تجعله يحذر من مكرهم، فعند ذلك كله إن سار في ركبهم -وحاشاه أن يكون كذلك- يكون من الذين تجاوزا الحدود، فوصف عندها من الظالمين، ووصف الظالمين؛ ليبين أن من يسير في ركب أهل الكتاب يكون من الظالمين، الذين غفلوا عن الحق وانصاعوا للباطل، واتبعوا ما تشتهيه أنفسهم، وإن من اتبع الغافلين كان منهم[1].

وإن وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه من الظالمين إن اتبع أهواءهم «فيه لطفٌ للسامعين، وتحذير لهم عن متابعة الهوى، فإن من ليس من شأنه ذلك إذا نهي عنه، ورتب على فرض وقوعه ما رتب من الانتظام في سلك الراسخين في الظلم فما ظن من ليس كذلك؟!»[2].

ومن هذا الخطاب القرآني يتبين أن الظلم الذي هو تجاوز للحدود رغم معرفة الحق، هو سبب مباشر من أسباب الغفلة التي هي متابعة النفس على ما تشتهيه، ويبرز ذلك عند معرفة أن الظالمين المحرضين ضد الحق حينما يوصفون بالغفلة، فقد غفلوا عن أن الله تعالى منزهٌ عن ذلك، فإذا فهم ذلك فعندها يكون من يتبع الباطل ظالمًا، وغارقًا في وحل الغفلة.

٣. الإعراض عن الوحي.

وقد ورد ذلك جليًّا في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

ويتبين من هاتين الآيتين أن الفطرة السليمة تعي حجم الغفلة التي يقع بها الخلق عندما يحذرهم الله تعالى من الحساب، وتساق الأدلة على ذلك، ويتبين أيضًا أن هذا الخطاب القرآني يعظ الناس عمومًا، فيذكرهم بما سيؤولون إليه من جزاء، وعليهم أن يتنبهوا من غفلتهم وإعراضهم الذي هو حقٌّ.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٢١٧.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٧٦.

وتفصل الآية التي بعدها سبب الإعراض عن الوحي وهو أنهم ما إن يأتهم شيء من القرآن محدثٌ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة، إلا استمعوه وهم في حالة استهزاء به، فقلوبهم غافلةٌ غير منتبهة إلى وعد الله الحق[1].

٤. الرضا بالحياة الدنيا والركون إليها.

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

والمعنى: إن الذين لا يخافون لقاء الله تعالى يوم القيامة، فهم لذلك مكذبون بالثواب والعقاب، متنافسون في زين الدنيا وزخارفها، راضون بها عوضًا من الآخرة، مطمئنين إليها، والذين هم عن آيات الله، وهي أدلته على وحدانيته وحججه على عباده في إخلاص العبادة له ﴿غَٰفِلُونَ﴾، معرضون عنها لاهون، لا يتأملونها تأمل ناصح لنفسه، فيعلموا بها حقيقة ما دلتهم عليه، ويعرفوا بها بطول ما هم عليه مقيمون، هؤلاء الذين هذه صفتهم مصيرهم إلى النار؛ لأنهم كانوا لا يتحرون الكسب الحق، سواء أكان هذا الكسب قولًا أو فعلًا[2].

ومن هذه الآية الكريمة يتبين أن الإنسان إذا عاش في الدنيا محبًّا لها، معتقدًا أنه مخلدٌ فيها، يجتهد في جمع المال والجاه فيها، فإنه يكون قد غفل عن سبب وجوده في الدنيا، وهو عبادة الله تعالى وحده، فالدنيا لا تكون خيرًا إلا إذا اعتبرها الإنسان مسجدًا للصلاح، ومنطلقًا للخير ورضا الله تعالى، فإذا غفل الإنسان سبب وجوده فإنه يغفل ما سيؤول إليه بعد الحياة، وهو الممات، فلا يعمل له، ولا يتزود له، وحينها فإنه سيلقي الله تعالى خاوي اليدين، وعاقبة أمره ذلٌ وهوانٌ، وسيخسر الآخرة، وإن ظن أنه ربح الدنيا فهو أيضًا غافل؛ لأن التقوى هي السعادة وفيها راحة البال، والجميع حينها يحبه، والمتقي لله تعالى يكثر من الذكر، والذكر نقيض الغفلة، فإنه يتحصن منها.

٥. الكبر.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فالله تعالى بين في هذه الآية الكريمة

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٥٤، الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٦١٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٥.

أن المتكبرين في الأرض بالباطل، الذين يرون الحق والباطل، فيصرون على باطلهم طريقًا ومنهجًا سوف يصرفهم الله تعالى عن التفكر في آياته الكونية والشرعية وقبولها، والسبب أنهم كذبوا بهذه الآيات بنوعيها، وتذييل الآية بأنهم غافلون مناسب لما بينته من رؤية طريقي الحق والباطل، ومع ذلك لم يتعظوا[1].

والغفلة في هذه الآية تحتمل المعنى الأشمل، وهو: متابعة النفس لما تشتهيه؛ لأن الأهواء سلاح إبليس، وهي الذنوب التي قد يغفل الإنسان عن التوبة منها؛ لأنها تكون ضمن ما تشتهي نفسه، ويتابع ما تطلبه تلك النفس، فإن الإنسان قد يعرف الحق، لكن الشهوات قد تغشي قلبه عن نعمة الانصياع القلبي والقولي والفعلي لما يطلب الشرع منه، وهذا الأمر هو الغفلة التي قد توصل إلى التكبر في الأرض؛ لاعتقاد هذا المتكبر أنه بيده مقاليد كل شيء.

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة أنها جعلت من يرى طريق الحق وما يرشد إليه، وطريق الباطل وما يوصل إليه، ومع ذلك يلتزم الباطل، فإنه يكون في صف المتكبرين، الذين غفلوا حقيقة وجودهم وما سيؤولون إليه.

٦. تعطيل الحواس بعدم التفكر والتدبر والسمع والإبصار.

إن الله تعالى قد بين في كتابه العزيز أن الحواس مسؤول عنها ذلك الإنسان؛ فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

«فلا تقل: سمعت، ولم تسمع، ولا تقل: رأيت، ولم تر، فإن الله سائلك عن ذلك كله»[2].

وإن المسلم يستحضر بقلبه ذكر الله، ثم يقر اللسان بمقتضى ذلك، ثم يستمع الحق ولا يستمع الباطل ولا يكذب بقوله سمع وهو لا يسمع، وكذلك لا يقول رأيت وهو لا يرى، أما إذا اتبع هواه، وعطل حواسه عن واجباتها في التعرف إلى الله وذكره، فعندها من المؤكد أنه ستحل عليه الغفلة المذمومة، التي تمحق الحسنات، وتربي السيئات بعدم انتباه ذلك المسلم إلى واجباته، واستبدال ذلك بالفجور والعصيان.

٧. صحبة الأشرار.

إن صحبة الأشرار تؤدي إلى الغفلة من أوسع أبوابها؛ فقد تودي بالإنسان إلى غضب الله تعالى ومن ثم عقابه.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٧، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٣٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٣١.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

أي: «ويوم يعض الظالم نفسه المشرك بربه على يديه ندمًا وأسفًا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صدَّهُ عن سبيل ربه، يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا مع الرسول سبيلًا، يعني: طريقًا إلى النجاة من عذاب الله»(١).

ويبقى هذا الكافر الظالم يصاحبه الندم على ما فرط في جنب الله؛ فقد جاءه القرآن الكريم وذُكِّرَ بالله تعالى بما فيه الكفاية للطاعة وعدم الغفلة عنها، ومع ذلك فقد غفل عن الحق، واتبع هواه بالاستماع إلى صحبته الشريرة، فاستحق غضب الله تعالى، ومن ثم عقابه في الدنيا بفضيحته ومعيشته النكدة، وفي الآخرة بالندم البالغ، ومن ثم دخول النار.

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٦٢.

الآثار المترتبة على الغفلة

تبين من خلال الدراسة أن الغفلة في عمومها مذمومةٌ، وأنها تكون سببًا مباشرًا لغضب الله تعالى، ومن ثم عقابه.

وسنركز على الآثار المترتبة على الغفلة في الدنيا والآخرة، وذلك بالاستقصاء في آيات الله تعالى، والله الموفق والمستعان.

أولًا: الآثار الدنيوية:

وردت آيات عديدة تدلل على وبال العاقبة للغافلين في الدنيا قبل الآخرة، وذلك من خلال بيان العواقب الآتية:

١. **البعد عن أهل الحق فقراء كانوا أم أغنياء.**

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فقد يغفل المسلم الداعية عن بعض الجوانب المهمة من الدين، كالإعراض ولو لحظة عن أهل الحق، حتى ولو كان ذلك بسبب نصرة الدعوة، فإن الغفلة عنهم تعني ركونًا إلى العقل في جلب الناس، والدخول في مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة)، وقد جاء في الحديث الشريف عن مصعب بن سعدٍ، قال: رأى سعدٌ رضي الله عنه،

أن له فضلًا على من دونه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟!)[1].

٢. ضياع أمر الغافل.

ومعنى الآية في هذا السياق: «جعلناه غافلًا بالختم عليه، نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طاعة من جعل الله قلبه غافلًا عن ذكره، كأولئك الذين طلبوا منه أن ينحي الفقراء عن مجلسه، فإنهم طالبوا تنحية الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وهم غافلون عن ذكر الله»[2].

٣. الانتقام من الغافلين عن آيات الله في الدنيا.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

حيث جاءت هذه الآية بعد سرد كل الآيات البينات الدالة على صدق سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فقد غرقوا في الغفلة؛ ولذلك استحقت إرادة الله تعالى بالانتقام منهم، فأغرقهم الله في البحر بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى، والغفلة عنها[3].

٤. صرف الغافلين عن تدبر آيات الله تعالى والتأمل فيها.

فقد قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

حيث إن الغافلين - الذين كذبوا بآيات الله تعالى فهم المتكبرون- سيحل بهم عقاب، وهو إيجاب عدم القدرة على التفكر في آيات الله تعالى والاعتبار فيها، وسيرون الحق وما فيه من نجاة، وسيرون الباطل وما فيه من هلاك، ومع ذلك فإن أبوا إلا الانغماس في الباطل، وعميت بصيرتهم، وما عادوا يتفكرون فيما ينجيهم[4].

٥. الغافلون سيتصفون في الدنيا بأنهم جهلة.

فقد قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

فمن يغفل عن الآخرة، يكن من الذين لا يعرفون سبب وجودهم في الحياة الدنيا، فلا يعرف نفسه حق المعرفة، ولا يفقه هؤلاء الغافلون من الحياة إلا «معايشهم، متى يغرسون؟ ومتى يزرعون؟ ومتى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، ٤/ ٣٦، رقم ٢٨٩٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٣٤.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٦٦.
(٤) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٥٦٢.

يحصدون؟»(١).

٦. لهو القلب عند الغافلين.

فقد قال -تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣].

حيث إن هذه الآية تبين حال الغافلين من الناس، لاهية قلوبهم، وبأنهم يصدون عن الحق بالتناجي فيما بينهم بسرية متناهية(٢).

ثانيًا: الآثار الأخروية:

إن للغفلة آثارًا كبيرة على من يغرق في وحلها في الآخرة، يوم لقاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۞ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ - ٨].

فقد بينت تلكما الآيتان أن الذي يغفل عن لقاء الله تعالى، ويركن إلى الدنيا ويرضى بمتاعها الزائل، فإن بيته الخالد يوم القيامة سيكون النار، وهذا بما كسب قلبه وقوله وعمله، فالغافلون هم من يكسبون من الكفر والتكذيب بالمعاد(٣)، ومن هذه الآية يتبين أن من آثار الغفلة في الآخرة الدخول في النار.

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وقد تقدم الحديث عن هذه الآية، ويمكن القول: إن يوم القيامة سمي يوم الحسرة في هذه الآية؛ لأنه إذا ذبح الموت، ونودي بالخلود لأهل النار كما الجنة، عندها ينتهي أيُّ أملٍ في النجاة عند أهل النار، فهي الحسرة التي لا تعدلها حسرة فهو بالفعل «يوم الحسرة المُعَدَّة للجزاء بحيث لا يمكن فيها التلافي والتدارك على ما فات سوى الحسرة والندامة غير المفيدة؛ إذ قضي الأمر ونزل العذاب، وقد مضى زمان امتثال المأمور به»(٤).

ومن هذه الآية يتبين أن من آثار الغفلة في الآخرة الحسرة الكبيرة؛ لعلمهم اليقيني بأنهم مخلدون في النار.

(١) المصدر السابق.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٦٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ٢/ ٤٨٥.
(٤) الفواتح الإلهية، الشيخ علوان ١/ ٥٠٠.

منهج القرآن الكريم في علاج الغفلة

إن القرآن الكريم لا يذكر ذنبًا ولا معصية ولا مرضًا قلبيًّا إلا ويذكر العلاج الكافي والمناسب له، وإن الغفلة مرض يكاد يفتك بمن أصيب به، واستحكم قلبه وعقله وحياته، وعند المتابعة في آيات القرآن الكريم يتضح أنها عالجت ذلك المرض القاتل من خلال أمور عديدة، أهمها:

١. ذكر الله تعالى وعبادته.

قال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٤ - ١٦].

فالله تعالى يقول لنبينا موسى عليه السلام: إنني أنا الله لا معبود بحق إلا أنا فأطعني واعبدني عبادة لا تنساني أبدًا من خلالها، والمقصود الإقامة والمكث الأبدي على تلك الصلاة وتلك العبادة، ثم التذكير بالساعة؛ للتذكير بالعاقبة فإما إلى نار وإما إلى جنة، فلا يحرفنك يا موسى عليه السلام الذي لا يصدق إتيانها، اتباعًا لهواه، فهو الرَّديُّ إلى الهاوية(١).

ولا شك أن هذا الذكر الأبدي والإقامة الدائمة على الصلاة، والتذكر الدائم للساعة وما فيها من أهوال، كل ذلك يحصن الإنسان المسلم من الغفلة.

٢. التوكل والتفكر والتدبر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

فإن مبدأ التفكر في خلق السماوات والأرض وما فيها من آيات كونية دالة على قدرته -جل جلاله-، واختلاف الليل والنهار، وما ينتج عن ذلك من فصول السنة وتغير المناخات، إن كل ذلك معجزات دالة على وجود الله تعالى، ومن ثم يصطحب الإنسان ذلك التأمل في تلك المخلوقات؛ ليعيش مع كمال الخوف مع كمال الحب لله تعالى، وإن الله تعالى قد وصف من يكون من المتفكرين في مخلوقات الله تعالى بأنهم أصحاب العقول النيرة(٢).

كيف لا؟! وهم الذاكرون لله تعالى بشتى أنواع الذكر ومزيد التوكل على الله تعالى حق توكله، والمتفكرين في خلق السماوات والأرض فيحملهم ذلك على الخوف من الله تعالى، ربنا ما خلقت هذا

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣٩١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٣٤١.

باطلًا، ننزهك يا ربنا، وأنت غنيٌّ عن تنزيهنا لك، فأجرنا يا ربنا من النار، ولا شك أن هذه المشاعر تجعل من المسلم أنموذجًا تطبيقيًّا لهدي القرآن؛ فيجتنب الغفلة التي ذمها الله تعالى، والتي هي سبب دخول النار وقبل ذلك غضبه عز وجل.

٣. صحبة الصالحين ومجالسة الذاكرين.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

فإن كلا الجنسين من المؤمنين المصدقين بالله ورسوله، والمؤمنات المصدقات بالله ورسوله، ولاؤهم جميعًا مبني على الأمر بالمعروف الذي فيه تعاون على الخير لأجل رضا الله تعالى، وأيضًا على النهي عن المنكر الذي فيه تعاون على اجتناب المنكر، وعلى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن من تكون حاله كذلك، فإنه يبقى متصلًا بالله تعالى، كثير الذكر له جل جلاله، متجنبًا الغفلة بكافة أنواعها وأسبابها، وهؤلاء المؤمنون والمؤمنات المتصفون بذلك يستحقون رحمة الله تعالى[1].

٤. اليقظة والحذر، والعلم والعمل.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ٧١].

فالله تعالى ينادي المؤمنين بأحب النداءات، وذلك بوصفهم مؤمنين، فيقول: يا من آمنتم بي وصدقتموني، احذروا واحترزوا من عدوكم، ولا تمكنوه من أنفسكم؛ فخذوا السلاح والعدة لقتال عدوكم[2].

ولا شك أن هذا يتطلب خبرة علمية وعملية، ومن قبل ذلك يقظة بالغةً، وقبل وبعد كل شيء اصطحاب معية الله تعالى، فإن من يفعل كل ذلك فقد نجا من الغفلة التي هي نذير عقاب الله تعالى.

موضوعات ذات صلة:

التفكر، الذكر، العبرة، اللعب، اللهو، النسيان

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٤/ ٣٠٦٦.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٩٨.